كتاب الإصلاح

سلسلة كتب الكترونية توزع مجانا عبر البريد الالكتروني وصفحات التواصل الإجتماعي

بل علمني كيف أفكر

المؤلف

الهادي بريك

الكتاب الثالث عشر - أفريل 2016

يوزّع مجّانا عبر البريد الألكتروني

بل علمني كيف أفكر

المؤلف

الهادي بريك

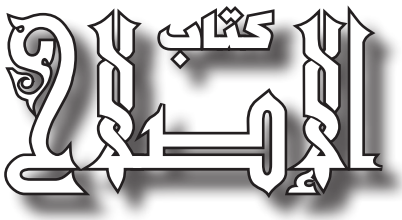

العدد الثالث عشر - أفريل 2016

ISBN: 978 - 9938 - 14 - 604 - 2 :ر.د.م.ك

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

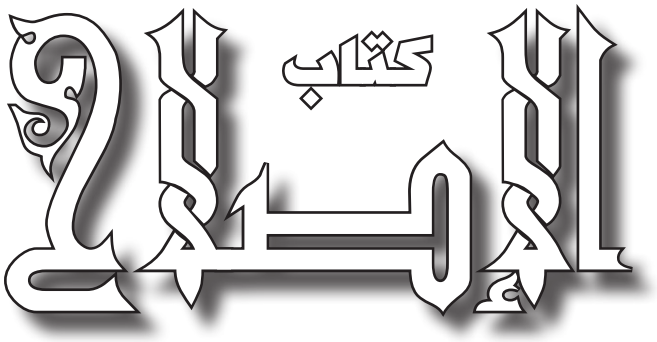

سلسلة كتب الكترونيّة توزع مجّانا عبر البريد الالكتروني وصفحات التواصل الإجتماعي

مدير السلسة
فيصل العش
faycalelleuch@gmail.com

الأفكار والمواقف الواردة في هذا الكتاب لا يتحمّل مسؤوليتها إلاّ صاحبها

بل علمني كيف أفكر
المؤلف الهادي بريك
كتاب الإصلاح العدد 13

بسم الله الرحمن الرحيم

إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله

الفهرس

الفهرس 6

تقديم وإهداء: التفكير فريضة إسلامية محكمة 7

المحور الأول : أمثلة من القرآن الكريم

المثال الأول : إلتقاط المقصد مقدم على معرفة ملابسات الحادث 20

المثال الثاني :للفقه مفتاح أوحد إسمه اللغة العربية 23

المثال الثالث : الإيمان حقيقة واقعية وليس شكلانية صورية باهتة... 26

المثال الرابع : المقصد الأسنى من القتال هو التحرر من الفتنة والإكراه 28

المثال الخامس :فقه مراتب الأعمال هو العاصم الهادي 30

المثال السادس : أكثر ما ينقصنا اليوم هو فقه الإنسان 32

المثال السابع : إلى متى يظل باب التكافل حول المحكمات موصدا 38

المثال الثامن : إلتزام الموضوعية والعدل والإنصاف 42

المثال التاسع : التفرق كفر 44

المثال العاشر : عبادة مهجورة إسمها السير في الأرض إقتفاء للسنن .. 46

المثال الحادي عشر : الشورى ضمان الجماعة والوحدة والتنوع والقوة ... 50

المثال الثاني عشر : الإبتلاء سنة ماضية وقانون مطرد 53

المحور الثاني : مقالات تعالج كيفية التفكير

لو قام الذي نحتفي بمولده لأنكر علينا 59

الحرية أسبق من العقيدة والعدالة أسبق من الشريعة 69

خطابنا الديني في عصر الثورة 99

فقهنا السياسي بين المراجعة وبين التحديث 117

هذا الكتاب تلوناه وذاك الميزان أهملناه 143

أسس المنهاج التفكيري الأرشد 157

تقديم وإهداء
التفكير فريضة إسلامية محكمة

أجل. التفكير فريضة إسلامية محكمة وضرورة واقعية محتمة. لا يستغني الإنسان عن التفكير. ذاك دأبه الدائب يلازمه بمثل ما يلازمه نفسه. لذلك خلق وبذلك خلق. لا ينفك التفكير عن الإنسان حتى يقضي. فإن إنفك عنه التفكير قبل أن يقضي فقد إنتقل إلى دنيا غير المكلفين. العقل مناط التكليف. فلا يكلف المرء ـ دينا ودنيا ـ سوى بما فيه من عقل يفكر ويدبر وينظر ويقيس ويقارن ويوازن ويرجح ويحسم. ليس بغير التفكير فضلّنا من لدن الباري سبحانه على كثير ممن خلق تفضيلا. عندما أراد القرآن الكريم أن يكثف رسالته في كلمة واحدة لم يتردد في هذا القول : « قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ * أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا * مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ».[1]. بل لم يتردد في رهن الإيمان بالنظر والتدبر والتأمل والتفكر. إنما جعل الحقل الكوني ـ الذي هو مسرح النظر ومثله الحقل التاريخي والنفسي ـ خصبا ثريا ثرا لينهل منه الناس كارعين. لم يكن الإيمان بسبب ذلك تعاويذ تتلى ولا تمتمات تتيه فوق الشفاه الحائرة

ليس بغير التفكير فضلنا من لدن الباري سبحانه على كثير ممن خلق تفضيلا . عندما أراد القرآن الكريم أن يكثف رسالته في كلمة واحدة لم يتردد في هذا القول: «قل إنما أعظكم بواحدة. أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا. ما بصاحبكم من جنة»

[1] سورة سبأ ـ الآية 46.

وإنما كان موقفا فكريا يثمره التفكر. لا تقل للناس : آمنوا ولكن قل لهم : تدبروا وتفكروا وتأملوا. فإذا فعلوا ذلك فقد وقعوا في شرك الإيمان وما هو بشرك ولكنه السفينة الرحبة التي تمخر بك عباب الكون لتزداد مع مطلع كل فجر جديد علما جديدا. الإيمان والعلم لا ينفكان بل هما شقيقان صنوان لا يفترقان. هل تجد أبلغ من هذا : «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ» [2] . أبدا. لن تجد أبلغ منه. ولكنك لاف مفارقة عجيبة غريبة تكاد لا تعثر لها على راق. هي مفارقة الفصل النكد بين العلم وبين الإسلام أو بين الإجتهاد وبين الإسلام أو بين التجديد والتحديث وبين الإسلام. أي بين الحرية الفكرية وبين الإسلام. تلك هي بدعتنا البادعة التي عيي بها الراقون. بدعة يظن أهلها أن الحرية الفكرية كلما إنداحت أفضت إلى الإلحاد أو بنت من بنات الإلحاد. بدعة يفندها الوحي الكريم تفنيدا لن تجد أبلغ فيه من هذا : «وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ» [3] . هما إتجاهان متضادان لا يلتقيان : إتجاه يرهن الإيمان بالبرهان فلا إيمان لمن ليس له عليه برهان. وإتجاه يحبس الإيمان عن التفكير إلا في حدود ضيقة لا تقدم ولا تؤخر. لا بل هي تؤخر قطعا. ليت شعري. هل فقه هؤلاء أن الإيمان إيمانان : إيمان يأتي بالخير وإيمان لا يأتي بالخير فهو وعدمه سواء. ألا تتدبر هذا : «يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا» [4]. تلك هي خلاصتي في الحياة : إيمان لا برهان عليه أو هو برهان منخول مدخول يخر صريعا لأول صفعة من زمهرير العواصف..

لم يتردد الله في رهن الإيمان بالنظر والتدبر والتأمل والتفكر. إنما جعل الحقل الكوني ـ الذي هو مسرح النظر ومثله الحقل التاريخي والنفسي ـ خصبا ثريا ثرا لينهل منه الناس كارعين. لم يكن الإيمان بسبب ذلك تعاويذ تتلى ولا تمتمات تتيه فوق الشفاه الحائرة وإنما كان موقفا فكريا يثمره التفكر وعدمه.

---

[2] سورة فاطر - الآية 28 .
[3] سورة المؤمنون - الآية117.
[4] سورة الأنعام - الآية 158.

هو إيمان اليأسى من القاعدين والبطالين. إيمان لا يحطم قيود الحبس عن التفكر والتعقل والتدبر والإجتهاد والتحديث والتجديد هو إيمان الموتى من المتواكلين الخانعين. إيمان لا يثمر لصاحبه خيرا وللناس من حوله هو إيمان الجامدين والبؤساء.

«بل علمني كيف أفكر». كراس كتبته لنفسي في صدري فلما تأملت فيه قلت : لم لا أنشره لأظفر بفارس مغامر ثائر غير هياب يخرج معي شاهرا قلمه في وجه التقليد الأعمى والسذاجة الحمقاء. فإما أن نمضي على درب التفكر ونكسب في إيماننا خيرا أو نقضي شهداء. أجل. أولئك تتعقبهم أسياف المجتمع والسلطان معا. تلك الأسياف التي لا تجتمع في العادة لترمي على قوس واحدة إلا هنا. فإن لم يكن هذا ولا ذاك فالنأي النأي بعيدا بعيدا. لا أجد لذتي إلا في تفكر أو قلم وكراس أو في مقاومة باللسان والمداد والعتاد في ساحات الوغى الكثيرة المبسوطة فوق أرضنا.

تدبرت الكتاب العزيز الهادي مرات ومرات فما شدني إليه شيء مثل ما شدني إليه منهاجه الأحكم في تعليم الناس كيف يفكرون. شدتني إليه أشياء لا تأتي تحت حصر وكل ما فيه يشد شدا. بل يسحر سحرا.

«بل علمني كيف أفكر». كراس إشتققت عنوانه من المثل الصيني المعروف : لا تعطني سمكة بل علمني كيف أصطاد. عربته فأصبح عندي: لا تعطني فكرة بل علمني كيف أفكر. تدبرت الكتاب العزيز الهادي مرات ومرات فما شدني إليه شيء مثل ما شدني إليه منهاجه الأحكم في تعليم الناس كيف يفكرون. شدتني إليه أشياء لا تأتي تحت حصر وكل ما فيه يشد شدا. بل يسحر سحرا. أجل. لا أتردد في التصريح بذلك التعبير الذي يفر منه من لم تداعب لمساته البيانية البلاغية الساحرة شغاف فؤاده. لا أرعوي عن ذلك ولترمني العجماء على قوس واحدة. وهل أنا سوى سابح في لجج من تلك المشكاة التي أذعن إليها عتاة المشركين من العرب الأقحاح وهم يقارعون التحدي أن يأتوا بعشر معشار سورة من ذلك النظم المسبوك المحبوك بالحروف ذاتها التي ظلوا يقرظونها أشعارا ملكوا به

عرش اللسان وتربعوا على بيانه بمثل ما يستوي الملك المظفر على عرشه فلا ينازعه عليه أحد. هو سحر يغذي العقل ويطلق فيه مؤهلات الإبداع وليس سحرا يسجن العقل ليجعله بليدا لا تنزكم أنوفه بنسائم الحرية ليظل عبدا لسلف مضى وإنقضى أو عبدا لخلف أتى معربدا ليؤذن في الدنيا وهي تصخي إليه مذهولة بنهاية التاريخ أو صراع الحضارات.

أجل. لا تعطني فكرة بل علمني كيف أفكر

كراس قد يطول مقامي به إذ لا سبيل إلى مكابدة الشوق إلى التفكير. كراس أرنو به إلى الإنخراط في مدرسة الحياة الكبيرة لعلها تعلمني كيف أفكر. الناس اليوم فريقان : رجل يفكر لتدبير شأنه. ورجل يفكر لذلك ولتدبير شأن الأمة والبشرية. الأول منهما يفكر تفكيرا غريزيا فطريا إنما جبل عليه لحفظ أكبر غريزة فيه أي غريزة حب البقاء ولكن عليه أن يعلم أن التفكير الغريزي الفطري الجبلي لا يستقل به عن دنيا العجماوات وعالم البكماوات التي تفكر كلها لأجل حفظ البقاء. أما الثاني منهما فهو الذي يحتاج إلى منهاج آخر متركب من أبعاد أخرى. من تلك الأبعاد على سبيل الذكر لا الحصر : المقاصدية والموضوعية والجماعية والواقعية وغير ذلك. كل الناس يفكرون فطريا ولكن من يفكر منهم وفق منهاج صحيح متوافق مع مصادر التفكير سننيا وسببيا وفطريا ودينيا. ذلك هو المقصود بهذا الكراس : «بل علمني كيف أفكر».

كل الناس يفكرون فطريا ولكن من يفكر منهم وفق منهاج صحيح متوافق مع مصادر التفكير سننيا وسببيا وفطريا ودينيا. ذلك هو المقصود بهذا الكراس : بل علمني كيف أفكر.

الأفكار مثلها مثل الصيد بالتمام والكمال. لو ظللت تفكر فطريا فحسب لتدبير شأنك فلن ترسم علاقة مع الشأن العام للناس لخدمتهم والتعاون معهم والتكافل على الخير. ولو ظللت تقتبس الأفكار وتستجديها متسولا فستنخرط في ذلك الحقل المطلوب دون ريب ولكنك ستظل عبئا على من

ينتج الأفكار. مصانع الأفكار قد تزودك بالطيب وقد تزودك بالخبيث مثلها مثل بقية المصانع التي تنتج الأغذية البدنية والمرافق المادية.

لم لا نكون في ذلك من أصحاب المصانع والمنتجين بدل متسولين مستهلكين. لا يغرنك أن الفكر لا يملكه أحد وأن الفكرة ليس لها صانع ولا صاحب ولا مالك بل هي مشاع. ذلك صحيح من جانب وليس من كل الجوانب. وما يجديني أن أكون شريكا في فكرة صحيحة ولكنها ليست الأصح أو في فكرة أخرى صحيحة ولكن في غير موضعها بل هي الأصح ولكن في غير زمانها ومكانها. أي قيمة لفكرة فقدت شروط التنفيذ فظلت سمرا يتلذذ به المترفون فوق الأرائك.

ألست أهلا لأن أتعلم كيف أفكر. لا يحبسني عن ذلك سوى مزاولة التفكير نفسه. من يفكر يهدى إن شاء الله إلى منهاج يعلمه كيف يفكر ليعصمه من إنتاج الأفكار الصحيحة التي فات أوانها. لا يحبسك عن ذلك سوى النظر في الكتاب العزيز الهادي. أجل. جرب ذلك بنفسك. صاحبني في هذا الكراس الصغير. كراس قصر نفسه على التمثيل من ذلك وليس له أن يستقرئ لا الكتاب كله ولا أصول التفكير المنهاجي كلها.

مطلبنا الآن هو أن نرسخ الأقدام فوق ذلك الدرب. عندما تترسخ الأقدام على ذلك الدرب ـ درب يعلمنا كيف نفكر وليس دربا يجعلنا متسولين ـ تتاح لنا مؤهلات تنقدح في الذهن إنقداحا عجيبا.

> الأفكار مثلها مثل الصيد بالتمام والكمال. لو ظللت تفكر فطريا فحسب لتدبير شأنك فلن ترسم علاقة مع الشأن العام للناس لخدمتهم والتعاون معهم والتكافل على الخير. ولو ظللت تقتبس الأفكار وتستجد بها متسولا فستنخرط في ذلك الحقل المطلوب دون ريب.

شرط واحد لا بد منه لخوض هذه المعركة

هو شرط المغامرة وهو شرط الخروج وهو شرط الإقتحام وهو شرط نبذ التقليد ونبذ الخوف من الله أن يعاقبك لأنك تفكر بحرية. لو سألتني

عن جني الإسلام لما ترددت في القول أنه يمنحني حرية التفكير بلا حدود. أجل. بلا حدود. إذا ألفيت من يستعجب ذلك فأعلم دون تلعثم أنه مازال سجينا محبوسا. مازال يئن تحت وطأة داء عضال إسمه : فكر ولكن لا تخرق الحجب لئلا يغضب عليك الرب. أجل. فكر ولكن .. أولئك حرموا لذة السؤال الموسوي الكبير الذي لم يلق عنده سبحانه إلا القبول والرضى بل لقي الإستجابة لولا أن الإنسان ركب في الدنيا على صورة نفسية تؤهله لإستقبال تلك الإستجابة دون أن يقضي أو يحترق. أولئك حرموا لذة السؤال الموسوي العظيم : «رب أرني أنظر إليك» [5]. أولئك حرموا لذة السؤال الإبراهيمي الخطير :«رب أرني كيف تحيي الموتى» [6]. أولئك قصرت بهم النفقة أن يغامروا فقعدوا. أولئك نفقت أموالهم ومواشيهم وأغذيتهم فإستبد بهم التقليد. المقلد مقلدان: مقلد يدرك أنه مقلد ولكنه لا يرضى بمقعده ومنزلته فهو يعمل جاهدا لتحطيم أغلال التقليد وعندما يقلد يعرف كيف يقلد لئلا يكتب مع القردة ويحشر مع الببغاوات. كثير من المقلدين ـ ممن أعرف ـ لكانوا غير كذلك لو تهيأت لهم طرق البحث والتفكير والإجتهاد ولكن شغلهم الحدب على من يعولون. ومقلد يصح فيه قول الشاعر : ذو النعيم يشقي في النعيم بعلمه وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم. أولئك أيضا كثر. مشكلة الحرية أنها عروس عروب طروب لعوب غلا مهرها حتى بلغ عنان السماء وطاول الثريا. تلك هي مشكلتنا معها. لا هي ترضى بمقعد دون ذاك يغرها سحرها أنها مطلوبة الجماهير. ولا نحن في أكثرنا مهيؤون للمغامرة لنيل تلك العروس. وبذلك تنسج العلاقة بيننا وبينها بمثل ما نسجت بين جميل وبثيناه. شغل بها القلب ووقف

المقلد مقلدان: مقلد يدرك أنه مقلد ولكنه لا يرضى بمقعده ومنزلته فهو يعمل جاهدا لتحطيم أغلال التقليد وعندما يقلد يعرف كيف يقلد لئلا يكتب مع القردة ويحشر مع الببغاوات. ومقلد يصح فيه قول الشاعر : ذو النعيم يشقي في النعيم بعلمه وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم.

---

[5] سورة الأعراف – الآية 143 .

[6] سورة البقرة – الآية 260.

على الأطلال حتى حفيت الأقدام وجفت المآقي فما رق منها له حال ولا هو ظفر منها بوصال.

كراس جمعت فيه بعضا من المقالات التي تشتبك مع هذه المشكلة : «لا تعطني فكرة بل علمني كيف أفكر». مقالات قد تتفرق بعض موضوعاتها ولكنها تلتقي عند معقد واحد لا تصدر إلا عنه ولا تفيء إلا إليه وهو هذا المعقد الذي يحتل مني الذي يحتل:«لا تعطني فكرة بل علمني كيف أفكر».

سئمت التسول فقلت في نفسي : لم لا تكون يدي هي العليا. أليست اليد العليا خير من اليد السفلى. ما يحبسني عن ذلك إلا أن أكون غنيا ثريا. لم كنت كذلك في رياش الدنيا ولم أكن كذلك في الذي يجدي حتى مع رياش الدنيا. هل تظن أن رياش الدنيا يجنى دون ذلك. لا. ما جنى الناس من رياش الدنيا إلا لأنهم غامروا وخرجوا وسافروا. ما كان منهم ذلك إلا لأنهم كابدوا السؤال ذاته. سؤال إسمه : بل علمني كيف أفكر.

لا ترقبن معلما يعلمك كيف تفكر. لا. هناك معلم واحد يعلمك كيف تفكر. من هو؟ أنت قطعا وبالتأكيد المؤكد. (كيف أفكر) مختلفة عن (أفكر). هناك وثائق تنطلق منها وهي لا تضمن لك سوى صحة الإنطلاقة أما من بعد ذلك فالقانون هو :«فسالت أودية بقدرها ..» [7] . هي أودية الأفئدة تسيل بما تقدر عليه فحسب شأنها شأن أودية الأرض عندما يغمرها الغيث الصيب المنهمر.

هذه كراس جمعت فيه بعضا من المقالات التي تشتبك مع هذه المشكلة : «لا تعطني فكرة بل علمني كيف أفكر». مقالات قد تتفرق بعض موضوعاتها ولكنها تلتقي عند معقد واحد لا تصدر إلا عنه ولا تفيء إلا إليه وهو هذا المعقد الذي يحتل مني الذي يحتل:«لا تعطني فكرة بل علمني كيف أفكر».

[7] سورة الرعد ـ الآية 17.

الكتب المدرسية المقررة في مدرسة : «بل علمني كيف أفكر».

1 ـ عقلك أنت وإنتاجك الفكري أي أسلوبك في تقليب ما تسمعه وتراه وينتهي إلى فؤادك. ولذلك قال الرسول عليه الصلاة والسلام : «إنّما العلم بالتعلم» [8].

2 ـ القرآن الكريم بالأساس الأول والحديث والسيرة بالأساس الثاني.

3 ـ النظر في الكون والتاريخ الغابر والحدث الحاضر وتقلبات النفس.

4 ـ المدارسة بالحوار مع الناس المهتمين مثلك بهدوء وعمق بعيدا عن ضوضاء التناحرات وضجيج الزوابع وليكن مقصدك منذ البداية : مقصد الإفادة مما عند الآخرين.

5 ـ الإخلاص الداخلي الذي يجعلك باحثا عن الحق والحقيقة دون أحكام مسبقة ولا تعصب. لا أخفيك أن هذا الشرط هو الأعسر علي وعليك وعلى الناس أجمعين إلا من رحم ربك وقليل ما هم بل هم قليل من قليل من قليل. هو الإخلاص الذي يجعلك تتحلى بالشجاعة الكافية لنبذ أي فكرة ظهر لك خورها أو عدم مناسبتها للزمان والمكان حتى لو كانت تلك الفكرة هي صاحبتك الحميمية منذ عقود. أن تجعل من نفسك في كل مرة صفحة بيضاء تعرض بضاعتك بأمانة وصراحة للنقد والمعالجة والإمتحان على كل من هب ودب من أهل الذكر المهتمين وليس من الغلمان والأصاغر .. تلك هي العقبة التي عليك إجتيازها. ذلك هو الحائل الذي يجعل الناس مكرهين دون شعور منهم على لزوم ما ألفوا. ليس معنى

الإخلاص هو الذي يجعلك تتحلى بالشجاعة الكافية لنبذ أي فكرة ظهر لك خورها أو عدم مناسبتها للزمان والمكان حتى لو كانت تلك الفكرة هي صاحبتك الحميمية منذ عقود.

[8] أخرجه الطبراني في الأوسط (118/3) عن أبي الدرداء.

ذلك أن تتخلص من عقائدك وثوابتك التي صنعت شخصيتك وهويتك ولا ذلك المنهاج الفكري الذي تصنع به الفكرة. لا. إنما المقصود هو أن تعرض تلك البضاعة نفسها في الأسواق القيمية التي تتولى معالجتها وإمتحانها. إذا كنت تظن أن ذلك يعرضها لما تتعرض له السيارة عندما تقدم إلى مصلحة الإختبار مرة في السنة أو مرة في السنتين لإجتياز إمتحان الصلاحية لمواصلة الجولان ثم تخفق تلك السيارة في ذلك الإمتحان .. إذا كنت تظن ذلك ببضاعتك وسفينة حياتك فلا تصاحبني وإني وإياك لعلى منهاج فكري قويم أو في غي من ذلك مبين.

تلك هي الكتب التي عليك إقتناؤها لتنخرط في هذه المدرسة.

لمن أهدي هذا الكراس

هو قربى إليه وحده سبحانه فهو الذي علم القرآن وهو الذي علم بالقلم وعلم الإنسان ما لم يعلم.

وهو هدية إلى النبي الأمي الذي آثر أن يكون ثمن إطلاق سراح أسرى بدر ليس هو سوى أن يتولى كل واحد منهم تعليم القراءة والكتابة لعشرة من المسلمين الأميين فكان بذلك الرائد الأول لمشروع محو الأمية في الأرض. هو هدية إلى النبي الأمي الذي أرسل مولاه زيدا إبن حارثة ليتعلم السريالية لغة يهود في تلك الأيام. هو هدية إلى النبي الأمي الذي قال :«خيركم من تعلم القرآن وعلمه» [9]. ذلك الحديث المظلوم الذي لم نفقه منه ـ أي كثير منها بل أكثرنا ـ سوى شطره الحرفي أما شطره المعنوي فما إلتفت إليه إلا قليل منا شغلتنا عن ذلك أصوات المقرئين المترنمين بآيات النعيم وآيات الجحيم سواء بسواء.

هذا الكتاب هو هدية إلى النبي الأمي الذي آثر أن يكون ثمن إطلاق سراح أسرى بدر ليس هو سوى أن يتولى كل واحد منهم تعليم القراءة والكتابة لعشرة من المسلمين الأميين فكان بذلك الرائد الأول لمشروع محو الأمية في الأرض.

---

[9] أخرجه البخاري من حديث حجاج بن منهال (صحيح البخاري:ج4/ص1919 ح4739).

وهو هدية إلى والدي اللذين هرما لأشب وأبلغ أشدي ولبثا أميين لأكرع من مناهل العلم ما أكرع.لبثا أميين وما هما في فقه الحياة بأميين بل منهما فقهت الحياة وخبرت دروبها. عليهما رحمة الله سبحانه رحمة واسعة بها يردان الحوض النبوي الكريم فيشربان ولا يظمآن ثم يقطنان بجوار خير جار في الفردوس الأعلى.

وهو هدية إلى كل من علمني يوما حرفا. هو شعور يخترمني إختراما. هو شعور أتوجس من البوح به لفرط غربته. هو شعور يدفعني إلى خدمة كثير ممن علموني وأنا طفل يافع وكثير ممن تعلمت منهم وأنا شاب أشق طريقي أو رجل في يم المعركة الحامية. شعور يدفعني إلى خدمة أولئك جميعا خدمة الخادم الطيع الوفي المثابر.

وهو هدية إلى من هو لي شريك في هذا الهم الذي يستبد بي. هم إسمه: «لا تعطني فكرة بل علمني كيف أفكر». هم إستبد بي إستبدادا لفرط شعوري بثقل الإنحطاط الذي خيم علينا من الجهتين : جهة التقليد للأسلاف وما الذنب ذنب الأسلاف أصابوا أم أخطؤوا ولكن الذنب ذنب الأخلاف الذين ظلوا يتسكعون على شطآن التاريخ وهو يدعوهم إلى الفعل فيه. وجهة الإنبهار الأعمى للأخلاف وما الذنب ذنب الأخلاف أصابوا أم أخطؤوا ولكن الذنب ذنبنا نحن. ليست الإمعية حيال الأسلاف بأهون شرا من الإمعية حيال الأخلاف. الإمعية الإنهزامية الإنبهارية شر كلها حتى لو إختلفت إتجاهاتها فإنطلقت هذه إلى من عمر الأرض من قبلنا وإنطلقت الأخرى إلى من يعمرها اليوم.

هو هدية إلى أولئك لعلي أفيد منهم علما وفقها. لعلي أتعلم منهم كيف أفكر. ظني أن من يعرف كيف يفكر هو الذي يبحث عنه محمد عليه الصلاة

هو هديـــة إلى من هو لي شريـــك في هذا الهم الـذي يستبد بي. هـــم إسمه: «لا تعطني فكرة بل علمنـــي كيف أفكر». هم إستبد بي إستبدادا لفرط شعـــوري بثقل الإنحطـــاط الذي خيم علينـــا من الجهتين : جهة التقليد للأســلاف وما الذنـــب ذنب الأسلاف أصابـوا أم أخطؤوا ولكـــن الذنـــب ذنـــب الأخـــلاف الذين ظلوا يتسكعون على شطآن التاريخ وهو يدعوهم إلى الفعل فيه.

والسلام : «الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة» [10]. ظني أن أولئك هم العدول الذين يبحث عنهم : «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله : ينفون عنه تحريف الغالين وتأويل الجاهلين وإنتحال المبطلين» [11].

إذا ألفيت في هذا الكراس الصغير ما يجمعك بي فلا تتردد لعلنا ننتمي إلى خطة الحياة التي رسمها الخليل : «أيامي أربعة : يوم أخرج فيه من داري فألفى من هو أكثر مني علما فأفيد من علمه وذاك هو يوم غنمي. ويوم أخرج فيه من داري فألفى من هو دوني علما فيفيد مني علما وذاك هو يوم أجري. ويوم أخرج فيه من داري فألفى من هو مثلي علما فيدارسني وأدارسه وذاك هو يوم درسي. ويوم أخرج فيه من داري فألفى متعالما يتحامق يدعوني إلى التعالم والتحامق فآبى أن أكون له مجيبا وذاك هو يوم راحتي» [12].

لا تكترث بما في هذا الكراس من أخطاء بعدما ما علمت أن الخطأ في أصيل آصل لا فكاك لي عنه. إنما أبحث عن غيرك الذي يوجهني ويسددني أما من لا تقع عيناه إلا على ما تقع عليه الذبابة فلا جامع لي به.

لا تكترث بما في هذا الكراس من أخطاء بعدما ما علمت أن الخطأ في أصيل آصل لا فكاك لي عنه. إنما أبحث عن غيرك الذي يوجهني ويسددني أما من لا تقع عيناه إلا على ما تقع عليه الذبابة فلا جامع لي به.

والله أعلم.

وهو يهدي سواء السبيل.

---

[10] رواه البخاري 6498، ومسلم 2547 عن عبدالله بن عمر.

[11] رواه البيهقي، تحقيق العلامة الألباني / مشكاة المصابيح كتاب العلم الفصل الأول الجزء1 ص/ 53

[12] الخَلِيل بن احمد الفاراهيدي، (100 هـ-170 هـ - 718م 786م) من أئمة اللغة والأدب، وواضع علم العروض

المحور الأول :

أمثلة من القرآن الكريم

المثال الأول :
إلتقاط المقصد مقدم على معرفة ملابسات الحادث

قال تعالى :

«وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون»

(البقرة ـ 72)

ذلك تعقيب وارد على قصة البقرة التي بسببها سميت سورة البقرة بذلك الإسلام. أصل المسألة التي تعرض لها القرآن الكريم قبل أن يفيء إلى ذلك التعقيب هو قوله سبحانه : «وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ..». سياق إحتل زهاء نصف صفحة كاملة. الأصل هو أن يبدأ بسبب ذلك وهو تورط بعض بني إسرائيل في قتل بعضهم بغير حق ولما تمكن القاتل من إخفاء جريمته وعييت التحقيقات أن تصل إليه وظلت القضية مسجلة ضد مجهول لا أمل في التعرف على هويته .. رفع الأمر إلى موسى عليه السلام وهو بدوره رفعه إلى ربه سبحانه فجاء الأمر بذبح بقرة لتكون منطلقا لمعرفة القاتل والقصاص منه أو تعريضه إلى الدية. تلكؤوا كما ترى في القصة بنفسك في الإمتثال للأمر تلكؤا شديدا لا معنى له سوى سعيهم الحثيث إلى الإفلات منه. فكانوا كلما شددوا على أنفسهم شدد الله عليهم حتى إضطروا إلى ذبحها وهو الأمر الذي وصفه سبحانه بقوله : «فذبحوها وما كادوا يفعلون». حتى لكأن السياق يوحي بأنهم لم يفعلوا لشدة تلكؤهم. السياق القرآني خالف ذلك الأصل في الرواية والقصة إذ قلب السلم العادي التقليدي القاضي بأن يقص علينا أن بعضهم قتل بعضا ثم تطور المشهد حتى جاء دور البقرة. سؤال الفقه الملح هو هنا: لم خولف السياق القصصي التقليدي الذي ينتهجه هو بنفسه في أكثر قصصه؟ المقصد من ذلك هو أن إلتقاط المقصد من القصة مقدم على معرفة

خالف القرآن الكريم في قصة البقرة وبني اسرائيل السياق القصصي التقليدي الذي ينتهجه هو بنفسه في أكثر قصصه؟ والمقصد من ذلك هو أن إلتقاط المقصد من القصة مقدم على معرفة الملابسات الحافة بها.

الملابسات الحافة بها. المقصد من القصة ـ أي المقصد الأسنى لها الذي ظل يعالجه في زهاء نصف صفحة كاملة ـ هو أن الدين لا يبنى في النفوس على الطريقة الإسرائيلية القائمة على التلكؤ والتشدد والتعنت وتحريج النفس ولكنه يبنى على أمرين متلازمين : الطاعة أولا والسلاسة في التنفيذ ثانيا. أمر الطاعة معلوم عندنا ولكن منا اليوم من يتأسرل في تنفيذ طاعته فيظل يلقي بالأسئلة التي لا تزيد المشهد الديني إلا تعقدا وإرتباكا ثم تفضي به إلى التشدد والتزمت والضيق والحرج ثم إلى التبرم بنفسه وبالناس من حوله وبالدنيا فلا ينظر إليها إلا من الثقب الأسود القاتم ومنتهى المشهد الكئيب الحزين هو تورط في التكفير بالجملة وتورط في التفجير بالجملة مثله. التأسرل هنا ليس سبة ولكنها الحقيقة لأن المقصد الأسنى من هذه القصة ـ التي هي أم أكبر سورة وأعظمها وأطولها ـ هو تحديدا : دعوتنا نحن إلى تجنب التأسرل في تنفيذ الطاعات. لأن ذلك يفضي بالضرورة إلى الغلو الذي ورد في كتابنا نحن أنه نهى عنه بني إسرائيل أنفسهم. ذلك هو المقصد الذي قدمه على الملابسات التي هي هنا أصل القصة فما بالك إذا كانت تلك الملابسات فرعية من مثل عدد أصحاب الكهف أو مكانهم أو غير ذلك مما تثور فيه اليوم بيننا حروب ضارية وأدخنة سوداء.

لا يبنى الدين في النفوس على الطريقة الإسرائيلية القائمة على التلكؤ والتشدد والتعنت وتحريج النفس ولكنه يبنى على أمرين متلازمين : الطاعة أولا والسلاسة في التنفيذ ثانيا.

ذلك مثال أول يعلمنا كيف نفكر. مثال يعلمنا أن التفكير القرآني ـ أي الذي مبناه القرآن الكريم ـ مبناه المقاصدية لا الشكلانية والموضوعية لا الموضعية. مثال يعلمنا أن التفكير الإسلامي مبناه تجنب الأسرلة التي أفضت بأهلها إلى ما نعلم. الأسرلة ليست دينا فحسب ولكنها طريقة في التفكير. هو مثال يعلمنا كيف نتجنب التفكير الإسرائيلي المبني على الغلو والتشدد لنظفر بالمقاصدية والموضوعية والعملية أي لنغنم طاعة منزوع منها تخمات التكلف والتصنع.

المثال الثاني :
للفقه مفتاح أوحد إسمه اللغة العربية

قال تعالى :

«لا ينال عهدي الظالمين»

(البقرة 124)

أليس الأصل أن يقول : «لا ينال عهدي الظالمون». ليكون (الظالمون) فاعلا مؤخرا ويكون (عهدي) مفعولا به مقدما. ذلك هو الأصل التركيبي. لم خولف الأصل إذن. في ذلك عبرة وأي عبرة. العبرة هي أن الظالمين ليسوا في مستوى يتيح لهم إمكانا عقليا لنيل عهده سبحانه. معلوم أن الإمكانات في الفلسفة إمكانات كثيرة منها الإمكان الخيالي والإمكان العقلي والإمكان الواقعي وغير ذلك. الذي يهمنا هنا هو أن الإمكانيات العقلية كلها موصدة أمام الظالمين لنيل عهده سبحانه وحتى يتوافق المبنى مع المعنى توافقا يساعد على إيصاد تلك الأبواب كلها إقتضى الحال أن يخالف الأصل التركيبي للجملة الفعلية المنفية ـ منفية وليست منهية ـ وفاء الأمر إلى أن يحرم الفاعل الأصلي (الظالمون) حتى من الرفع الشكلي الذي تضمنه الضمة التي لا بد منها للفاعل. ربما يكون الأمر لمن لا ينزكم أنف فؤاده بحلاوة اللغة العربية أمرا غير مفهوم أو يخامره من التعقيد ما يخامره. ولكن ما الحيلة يا حبيبي والأمر البياني مقصود في الكتاب العزيز قصدا مبينا بل هو قصد التحدي. هل نخفيه لأن الناس اليوم لا يفقهون ذلك أو ربما يستثقلون إيراده. ما علاقة ذلك بكتمان العلم. ولذلك إذن جاء العهد هو الفاعل المرفوع لأنه الأقوى حقيقة وقيمة ولا بد لتلك القوة أن تتعزز ببنياتها اللغوية اللازمة. فكان المعنى الملائم لتلك الرفعة ـ رفعة العهد ـ ولذلك الخفض ـ خفض الظالمين ـ هو أن العهد هو المرفوع الأعلى الذي لا ينزل لينالـه الظالمون وكان الظالمون هم المخفوضون في صيغة مفعول به لا

الإمكانيات العقلية كلها موصدة أمام الظالمين لنيل عهده سبحانه وحتى يتوافق المبنى مع المعنى توافقا يساعد على إيصاد تلك الأبواب كلها إقتضى الحال أن يخالف الأصل التركيبي للجملة الفعلية المنفية ـ منفية وليست منهية ـ وفاء الأمر إلى أن يحرم الفاعل الأصلي (الظالمون) حتى من الرفع الشكلي الذي تضمنه الضمة التي لا بد منها للفاعل.

يرتفعون إلى نيل العهد. بين الظالمين وبين العهد الإلهي بون لا يخرق وفق أي إمكانية عقلية. وقد سبقت الإشارة إلى الجملة الفعلية المسبوقة بالنفي وليس بمجرد النهي. النهي ترد عليه إمكانيات العصيان أما النفي فلا. كل ذلك لخدمة ذلك المقصد الأسنى من التقرير الذي هو : الظلم والعهد خطان لا يلتقيان البتة. ولاية العهد الإلهي ـ وهي ولاية الإمامة هنا ـ لا ينالها الظالمون أبدا البتة. فماذا لو نيلت منهم. أبعد كل ذلك. أجل. لو كان ذلك كذلك فإن الأمر وسد لغير أهله وإنتظار الساعة هو واجب الوقت.

ذلك مثال ثان يعلمنا كيف نفكر. يعلمنا أن اللغة العربية هي المفتاح الأوحد لهذا الدين علما وفقها ودعوة وشهادة على الناس. كيف لا والبيان البلاغي مبتهج بها هنا في الكتاب العزيز في مواضع زادت عن العشرة. الحديث عن اللغة لسانا وليس عن الأعراق والألوان وما نكره فيه.

يعلمنا المثال أن اللغة العربية هي المفتاح الأوحد لهذا الدين علما وفقها ودعوة وشهادة على الناس. كيف لا والبيان البلاغي مبتهج بها هنا في الكتاب العزيز في مواضع زادت عن العشرة. الحديث عن اللغة لسانا وليس عن الأعراق والألوان وما نكره فيه.

المثال الثالث :
الإيمان حقيقة واقعية وليس شكلانية صورية باهتة

قال تعالى :

«ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وإبن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس»

(البقرة 177)

جاء ذلك بعد تبديل القبلة ليقول للمؤمنين أن القبلة ـ وإن كانت أمرا رمزيا يحمل دلالته في غيره وليس في نفسه ـ حق وهي سبيل للوحدة والتعارف والإئتلاف ورص الصف ولكنها ما ينبغي لها أن تتضخم في النفوس حتى تحجب الحقيقة. وما هي الحقيقة. الحقيقة هي أن الإيمان ـ الذي ليست القبلة إلا رسما من رسومه الكثيرة ـ هو المقصود بالتشريع والعقيدة والعبادة. وأن الإيمان هو ذلك التصور الواقر في الصدر وقرا لا يتزلزل من جهة ومن جهة أخرى هو العمل الإجتماعي الإغاثي الإنساني الذي يجلب الخير للناس ويكر عليهم بمقاصد الإسلام ومنها تحرير الرقاب والوفاء بالعهود والعقود حتى مع المخالفين والمحاربين والأعداء وهو موقف نفسي غائر مخه الصبر والصدق وغير ذلك. هي رسالة قوامها أن التقوى لا تبنى بالأشكال فحسب حتى لو كانت تلك الأشكال والصور مطلوبة ـ من مثل قبلة الصلاة ـ ولكنها تبنى بالمعاني والمقاصد. ليس البر لا في الحفاظ على شكلانية صورية باهتة تاهت معانيها في ركام التفاصيل الجزئية ولا في لزوم التقاليد البالية لقوله : «وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها» . إنما البر الجمع بين المبنى وبين المعنى من جهة و التجديد من جهة أخرى.

مثال ثالث يعلمنا كيف نفكر. يعلمنا أن التفكير الإسلامي مبناه الموازنة العادلة بين الصورة وبين الحقيقة. لا تشغب هذه على تلك ولا تلك على هذه. قد يتخلف الشكل لسبب ما ـ من مثل عدم القدرة على تحري القبلة الصحيحة في الصلاة ـ ولا ضير في ذلك ولكن الحقيقة لا تتخلف أبدا البتة وفي الأحوال كلها.

يعلمنا هذا المثال أن التفكير الإسلامي مبناه الموازنة العادلة بين الصورة وبين الحقيقة. لا تشغب هذه على تلك ولا تلك على هذه. قد يتخلف الشكل لسبب ما ـ من مثل عدم القدرة على تحري القبلة الصحيحة في الصلاة ـ ولا ضير في ذلك ولكن الحقيقة لا تتخلف أبدا البتة وفي الأحوال كلها

المثال الرابع :
المقصد الأسنى من القتال هو التحرر من الفتنة والإكراه

قال تعالى :

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله
فإن إنتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين».

(البقرة 193)

القتال فرع من الجهاد. القتال يقتضي المشاركة بخلاف القتل الذي يعني الأحادية. كلمة (حتى) ترسم المقصد. الفتنة هي الإكراه مطلقا بمثل ما يقع للصدإ الذي تكرهه النار على الإنتفاء. مقصدان للقتال هما : نفي الفتنة أي منع الإكراه وهو ما يعني بتعبيرنا المعاصر التحرير الذي يتيح للمرء إختيار حياته ودينه وما يلزمه من ذلك. وكينونة الدين لله أي أن الإكراه يقتضي النفاق بالضرورة وبذلك لا يكون الدين ـ وهو هنا بمعنى التدين ـ لله وحده ولكن يكون له في السر مثلا وللمكرهين (إسم فاعل) في العلن أو يكون بالفيئ لهم بدء وخلاصة وهو النفاق الكامل التام. فإذا تحرر المرء من الإكراه تحرر من النفاق وأصبح في موضع يختار فيه الإيمان أو الكفر بحسب ما يشاء لا يكره على ذلك حتى من لدن خالقه الأعظم سبحانه. عندما يتوصل القتال إلى تحقيق ذينك المقصدين وإنتهى الظالمون عن الإكراه فلا عدوان على أحد إلا إذا عادوا إلى إكراه الناس. معنى ذلك هو أن الإسلام مقصده الأعلى هو الحرية وليس غير الحرية البتة. وذلك هو مقصد القتال أو الجهاد بأي صورة من صوره. الإسلام والحرية وجهان لا ينفصلان فإذا إنفصل أحدهما عن الآخر فلا يسمى الإسلام إسلاما إلا كذبا ولا تسمى الحرية حرية إلا بهتانا.

مثال رابع يعلمنا كيف نفكر. يعلمنا أن وظيفتنا في الدنيا هي الدعوة بالحسنى والحجة وليست هي الإكراه ولو كان خفيا بسلاح الحياء والمنّ. يعلمنا أن الإنسان أكثر من أن يكره وأكبر من أن يفتن. يعلمنا أن الصبر الذي يصبر به الله على عبده الكافر هو صبر من مقاصده أن نصبر على ذلك الكافر لأننا لا نتولى لا خلقه ولا رزقه ولا نملك له شيئا إلا شيئا واحدا هو الدعوة بشروطها.

يعلمنا هذا المثال أن وظيفتنا في الدنيا هي الدعوة بالحسنى والحجة وليست هي الإكراه ولو كان خفيا بسلاح الحياء والمنّ. يعلمنا أن الإنسان أكثر من أن يكره وأكبر من أن يفتن يعلمنا أن الصبر الذي يصبر به الله على عبده الكافر هو صبر من مقاصده أن نصبر على ذلك الكافر لأننا لا نتولى لا خلقه ولا رزقه ولا نملك له شيئا إلا شيئا واحدا هو الدعوة بشروطها

المثال الخامس :
فقه مراتب الأعمال هو العاصم الهادي

قال تعالى :

«يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه. قل : قتال فيه كبير. وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل».

(البقرة 217)

لك أن تلاحظ هنا كلمتي : (كبير) و (أكبر). من لم يلاحظ ذلك فما فقه من الآية شيئا. ورود ذلك في الخاطب العربي ـ والقرآن الكريم خطاب عربي ـ كثير. لدينا هنا أمر كبير ـ كبر إثم ـ وهو إستحلال الحرمات الزمانية الأربع وإعلان القتال فيها. ولكن لدينا ما هو أكبر من ذلك وهو الصد عن سبيل الله والكفر به وبالمسجد الحرام وإخراج أهله منه. بل سمي ذلك فتنة والفتنة أكبر من القتل. تحصل لدينا إذن كبير وأكبر. الكبير هو إستحلال الحرمات الزمانية بالقتال والأكبر هو فتنة الناس عما يريدون إختياره في حياتهم مريدين غير مكرهين. الثاني أشد كبرا لأنه يتعلق بالإنسان والإنسان أغلى من الزمان ولا بد من تقديم مصلحة الأغلى والأثمن والأكرم على ما دونه. مقايسة عقلية منطقية لا طلاسم فيها ولا تحتاج إلى من يعلمنا إياها. ذلك هو الأسلوب القرآني العظيم الذي لا يقتصر خطابه على تعيين الحلال والحرام ـ كما دأبنا في تعاملنا معه ـ ولكنه يتجاوز ذلك إلى تعليمنا المقايسات والموازنات وفقه مراتب الأعمال. ولكن لم ؟ لأجل أن نتعلم ذلك لنفيد منه في الحياة. فمن لم يتعلم فنون القياس المنطقي العقلي الأرشد من هذا الكتاب لينتفع بها في حياته الخاصة والعامة ما فقه منه شيئا بالتأكيد المؤكد. ألا ترى كيف علمنا أن الخمر والميسر ليسا محرمين لعدم وجود المنافع فيهما ولكن لوجود الآثام فيهما أكثر من المنافع. لم فعل ذلك؟ لمقصد واحد أوحد هو : إكسابنا منهاجا عقليا منطقيا نحكمه عند ورود أي صورة أخرى من صور الحياة حيث يلتقي الخير والشر فيها أو الحق والباطل والفضيلة والرذيلة والحسن والقبح وغير ذلك من المزدوجات التي لا تنفك عن شيء أو لا تكاد تنفك عنه. ذلك هو الذي جعل إبن تيمية يقول : ليس العاقل من يعلم الخير من الشر ولكن العاقل من يعرف خير الخيرين وشر الشرين. أكثر الحياة هي كذلك : خير وشر في الشيء ذاته. فإذا كانت الحياة كذلك فلا مناص لنا من تعلم فقه مراتب الأعمال الذي سمي في عصرنا فقه الأولويات وهو ثمرة فقه الموازنات والترجيحات.

الكبير هو إستحلال الحرمات الزمانية بالقتال والأكبر هو فتنة الناس عما يريدون إختياره في حياتهم مريدين غير مكرهين. الثاني أشد كبرا لأنه يتعلق بالإنسان والإنسان أغلى من الزمان ولا بد من تقديم مصلحة الأغلى والأثمن والأكرم على ما دونه.

المثال السادس :
أكثر ما ينقصنا اليوم هو فقه الإنسان

قال تعالى :

«فإن لم يكونا رجلين فرجل وإمرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى»

(البقرة 282)

أمور كثيرة تنقصنا منها فقه الإنسان. إذ أن بعضا ممن فقه الدين منا لم يتوصل إلى فقه المحل البشري الذي أنزل عليه الدين ليفهمه ويفقهه وينزله ويعالج مناسبات تنزيله عند إصطدام تلك المحال بمثل ما مر بنا آنفا. فقه المحل البشري الذي إستؤمن على الدين فهما وتنزيلا هو الفقه الأولى بالتعلم لأن فقه النص لا يجدي عندما نجهل فقه المحل وبين هذا وذاك لا بد لنا كذلك من فقه المقصد كما مر بنا ذلك كذلك. فقه الإنسان مقصود به الخصائص التي حبا الله بها الإنسان من تكريم وإستخلاف وإستئمان وتعليم وإستعمار وغير ذلك مما لا نبغي عده الآن لخروجه عن مقتضى قولنا هنا. من الأمور التي عادة ما تصحب جهلنا بفقه الإنسان نظرتنا التجزيئية التقطيعية التي ورثناها. الإنسان عندنا مكرم ولكن عندما يتعلق الأمر بالمرأة فالكرامة تتراجع إلى الخلف قليلا. شغبت علينا عادات وتقاليد وروايات منخولة مدخولة سوينا بينها وبين محكمات الكتاب العزيز الهادي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بسبب أنه تنزيل من حكيم حميد وبسبب قطعيته الورودية قطعية لا يجادل فيها إلا مراهق. غلبت علينا شقوات الإنحطاط فجعلتنا نعد التقاليد والمنخولات من التراث مثل ما نعد المحكمات القطعيات الراسخات الثابتات. لو تأملنا في آية الدين في سورة البقرة لألفينا أن المقصد الأسنى للآية واحد لا يتعدد وهو حفظ حقوق الناس أي حقوقهم المالية وذلك هو الذي جعل الآية هي أطول آية في الكتاب العزيز الهادي. طول إستحقته بسبب عظم الحقوق في الإسلام أي حقوق الناس والحقوق المالية إحدى تلك الحقوق لا تتقدم عليها الحقوق الأخرى المعنوية إلا مقايسة ومقاربة لتتحد الحرمة الإنسانية بكل مركباتها وإلا فما يعني تكريم إنسان من بعد تجريده من حقوقه المالية. عندما غاب علينا ذلك المقصد الأسنى لتلك الآية ظللنا نغرق في تفاصيلها

أمور كثيرة تنقصنا منها فقه الإنسان. إذ أن بعضا ممن فقه الدين منا لم يتوصل إلى فقه المحل البشري الذي أنزل عليه الدين ليفهمه ويفقهه وينزله ويعالج مناسبات تنزيله عند إصطدام تلك المحال بمثل ما مر بنا آنفا. فقه المحل البشري الذي إستؤمن على الدين فهما وتنزيلا هو الفقه الأولى بالتعلم لأن فقه النص لا يجدي عندما نجهل فقه المحل.

وفروعها فارين بها إلى حيث نهلك وغير رادين لها إلى أصلها الثابت. الأصل الثابت في حسن الفقه هنا هو لمّ تلك الفروع كلها مهما تفرعت إلى معقد توحيدي واحد يعيد تركيب الصورة الحقيقية لمقصد الآية أي حفظ حقوق الناس. فإذا تنكبنا ذلك المنهاج تهنا دون ريب. كمن يسير في طريق سريع سيار مستقيم حتى أخذته سنة من النوم أو الغفلة ففسق عن طريقه وظل يتسكع في مخرج من المخارج الكثيرة التي تتفرع عن ذلك الطريق السريع السيار من اليمين ومن الشمال. هي آية طويلة كأنها طريق سيار سريع وفيه مخارج كثيرة. القصد من تلك المخارج في هذه الآية هو جمعها لخدمة المقصد الأسنى أي حفظ حقوق الناس. ما الذي جرى لنا. الذي جرى لنا هو أننا عكفنا على فرع من تلك الفروع ـ وهو فرع أسميناه تنصيف شهادة المرأة ـ وظللنا نفرع عليه ونؤصل له وما هو هنا بمقصود أصلا وما كان له أن يقصد منه ما قصدنا نحن أي البحث عن دونية المرأة وتعريض عقلها إلى الهذر والنتيجة التي نريد الوصول إليها ـ والإنحطاط يؤزنا أزا عجيبا ـ هي أن الفحل أعلى منها بفحولته وهو أشرف منها بتركيبه البيولوجي وهو أفضل منها بماله. أمور لم يقصد منها الشارع الحكيم شيئا ولكن ورثناها يوم إنقلب المنقلبون فينا على إرث الخلافة الراشدة وجد الفصام النكد فينا بين مجتمع يرعاه الفقهاء ولكن حدد لهم سقف لا يطالونه وبين فئة حاكمة مستأثرة يتوارث فيها الأبناء السلطان كابرا عن كابر دون نكير. تلك هي نقطة البداية التي أسست لسقوط السقف السياسي للأمة من بعد ذلك بقرون. كان ذلك الإنقلاب كبيرا وخطيرا إلى درجة أنه أحدث إنقلابات إرتدادية على هامشه ومن تلك الإنقلابات الإرتدادية الجانبية إنقلاب ضد منزلة المرأة في المجتمع وفي الدولة حيث عاد الحنين العربي إلى وأد المرأة وعندما لم يجرؤ على وأدها بالصورة التي كان يئدها بها قبل الإسلام تجرأ

عندما حدث الإنقلاب الكبير على إرث الخلافة الراشدة وجد الفصام النكد فينا بين مجتمع يرعاه الفقهاء ولكن حدد لهم سقف لا يطالونه وبين فئة حاكمة مستأثرة يتوارث فيها الأبناء السلطان كابرا عن كابر حدثت إنقلابات إرتدادية على هامشه من بينها الانقلاب ضد منزلة المرأة في المجتمع وفي الدولة.

على صورة أخرى من الوأد الخفي وهي أن يحط من دورها وينقص من منزلتها ولو أفتانا بسبب مقنع لأتبعناه ولكن الناظر في ذلك التراث الزاخر بدونية المرأة لا يجد غير سبب واحد مفهوم لا يتجرؤون على النطق به وهو سبب الفحولة عند الرجل وسبب الأنوثة عند المرأة. أدرك كل الإدراك أن مثل هذا الكلام لا يلقى ترحيبا وهو كفيل بإغتيال مثل هذا الكراس وغيره بل ربما يفضي إلى إغتيال صاحبه. أجل. لا أبالغ في ذلك البتة. والأيام حبلى كما تقول العرب. فما تعده اليوم مستهجنا بعيدا يولد غدا لتعده أنت بنفسك مقبولا قريبا.

ثم طال بنا الأمد لننتهي إلى هذه الخلاصة التي هي اليوم معلوم من الدين بالضرورة : المرأة نصف الرجل والدليل هو تنصيف شهادتها. أليست تلك هي من الملعومات من الدين بالضرورة اليوم. هل غفلت عنها أم تريد تجاهلها لئلا تثير فيك الذي تثير. هل تجد فيك تدافعا داخليا بين مؤيد لتلك الخلاصة وبين متوجس منها. هل تقبل أن تتحاكم إلى القرآن وليس إلى التقاليد. إذا كانت لديك الشجاعة فلم لا تعاود فحص قوله سبحانه : «أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى». ماذا يعني ذلك؟. ألا يعني ذلك سوى أن المقصد من تنصيف شهادة المرأة هو ما يقتضيه المقصد الأسنى من الآية أي حفظ حقوق الناس وهو مقصد لا بد من التوسل إليه بنفي الضلال في إستحضار تلك الحقوق كاملة وهو ضلال عادة ما يصاحب المرأة في تلك الأحقاب التي لا تتيح لها معافسة الأسواق والأموال والمعاملات بما يجعلها معرضة إلى ذلك الضلال وبذا تكون محتاجة إلى إمرأة أخرى تذكرها. هل يعني ذلك أنه عندما نجد إمرأة لا تضل ـ لأي سبب ومن الأسباب الكبرى مزاولة المرأة لمثل تلك المعاملات ـ فلا تحتاج إلى من يذكرها لنا أن نجعل من شهادتها شهادة كاملة. طبعا لا . لم؟ لأن

مع حدوث الانقلاب الخطير على إرث الخلافة الراشدة، عاد الحنين العربي إلى وأد المرأة وعندما لم يجرؤ على وأدها بالصورة التي كان يئدها بها قبل الإسلام تجرأ على صورة أخرى من الوأد الخفي وهي أن يحط من دورها وينقص من منزلتها.

التقاليد تحبسنا عن ذلك. طبعا لا . لم؟ لأن الإجماع منعقد على عدم ذلك. طبعا لا. لم؟ لأن ما ألفناه معرض إلى أن يخر سقفه علينا دون سابق إنذار. ما هو الحل إذن. الحل هو أن نظل على إجماعنا وعلى معلومنا من الدين بالضرورة. هل تجد لتلك الآية المقاصدية:«أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى» من معنى إذن؟. ألا ترى أن إيرادها يستوي مع عدم إيرادها. جملة لا معنى لها. سواء ألفينا إمرأة يرد عليها الضلال أم إمرأة لا يرد عليها الضلال. كتب علينا أن نهمل المقصد من الآية وكتب علينا أن نقصر النظر على دونية المرأة. أليست شهادتها نصف شهادة الرجل. إنتهت المعركة وحسمت بالضربة القاضية. حكمت بذلك قرون عسيفة طويلة كالحة عجفاء سوداء. قضي الأمر الذي فيه تستفتون. لا داعي للمراجعة. هي مراجعة للدين ومراجعة الدين هرطقة وزندقة وردة. ضلال المرأة في المعاملات المالية مكتوب. مكتوب في الفطرة لا تنفع معه مزاولة منها لتلك المعاملات بما يكسبها ما أكسب الرجل من قبلها خبرة. هو ضلال سببه الوحيد الأوحد هي أنها أنثى ولو كانت فحلا مثلنا لكان لنا مجال لمناقشة ذلك الضلال. ولكن أنى لنا أن نقبل منها الدين الذي يأتي به الحديث الذي يخرجه الإمام البخاري في صحيحه. ألم يقبل سندا فيه إمرأة هي أم محمد. بلى. أنى له ذلك. ألم يعلم أن شهادتها لا بد لها فيها من إمرأة تذكرها أن تضل. أيهما أشد علينا : الدين الذي جاء به الحديث في صحيح البخاري وفيه إمرأة هي أم محمد أم المال الذي لا بد لنا من حفظه آداء لأهله. ولكن أي منهاج أتيت به أنت إلينا؟ نحن لا نريد مثل هذا الوصل بين الأمرين. لا. هناك البخاري وهنا البقرة. لا وصل بينهما. دعنا كذلك. مثل ذلك يجعلنا في حرب مع أنفسنا. دعنا نأخذ هذا السياق من آية البقرة منفردا لا نريد مقايسته بأي شيء آخر. يستوي في ذلك إذا كانت أم

> نتيجة تخلّفنا إستقبلنا الشريعة الإسلامية بنظرة تجزيئية تفريقية تشطيرية، فما ظفرنا بفقه. إذا أضفنا إلى ذلك السرطان الفكري الذي أصابنا ما ورثناه من إجماع ومعلوم من الدين بالضرورة أن المرأة ناقصة ودونية .. تحصل لدينا أن شهادتها منصفة ولا داعي لأي مراجعة.

هانئ قد منحت اللجوء السياسي لمشرك في حالة طوارئ أمنية شديدة جدا في أثناء فتح مكة. تلك شهادة منها. تلك شهادة سياسية أمنية لا تهمنا هنا. ويستوي في ذلك إذا كان الطبري وغيره قد أجاز للمرأة أن تتولى القضاء وهل يشهد من يتولى القضاء؟. ويستوي في ذلك إذا كان الفاروق قد إختار للسوق الذي يغشاه الرجال مراقبة إسمها الشفاء. وهل تشهد الشفاء؟. لا. كل تلك شهادات من نوع آخر لا مجال لمقايستها بشهادتها هنا. بمثل تلك النظرة التجزيئية التفريقية التشطيرية إستقبلنا الشريعة الإسلامية فما ظفرنا بفقه. إذا أضفنا إلى ذلك السرطان الفكري الذي أصابنا ما ورثناه من إجماع ومعلوم من الدين بالضرورة أن المرأة ناقصة ودونية .. تحصل لدينا أن شهادتها منصفة ولا داعي لأي مراجعة. لا تغير الزمان ولا المكان ولا الحال ولا العرف. تلك عوامل تزلزل الدين ولا حاجة لنا بها. ثم إنضاف إلى المشهد شيء آخر زاد الطين بلة. إنضاف إلى المشهد ما ألفيناه عند خصوم الإسلام وأعدائه الذين يبيحون للمرأة ما يناقض الفطرة والغريزة والسنن أصلا وليس الدين فحسب. ونحن نتوفر على خلاصة أخرى قوامها أن الفلاح هو دوما في السير في الإتجاه المعاكس لأولئك وفي كل آن وأوان وفي كل صغيرة وكبيرة. فما راموه هم يجب أن نغمض الأعين ثم نتجه في الإتجاه المعاكس له. إتجاه المبنى وإتجاه المعنى معا. لا نستخدم حتى الكلمات التي يستخدمونها هم. ولا نتخلى عن أي كلمة وردت عندنا ولأي ظرف كان. وما شأننا بالفاروق الذي قبل عدم تسمية الجزية بالجزية وهو يأخذها من نصارى تغلب من العرب المتنصرين. أليس كل واحد منا اليوم فاروقا مفرقا. أجل. كل واحد منا اليوم هو كذلك.

لأننا ننطلق من خلاصة قوامها أن الفلاح هو دوما في السير في الإتجاه المعاكس لخصوم الإسلام وفي كل آن وأوان وفي كل صغيرة وكبيرة. فما راموه هم يجب أن نغمض الأعين ثم نتجه في الإتجاه المعاكس له، فقد ذهبنا بإصرار إلى أن المرأة ناقصة.

المثال السابع :
إلى متى يظل باب التكافل حول المحكمات موصدا

قال تعالى :

« هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات
هن أم الكتاب وأخر متشابهات»

(آل عمران 7)

هذه الآية من أوائل آيات الزهراء الثانية (سورة آل عمران) هي منطلق أولي من منطلقات طالب العلم الجاد. طالب العلم الذي ينشد الفقه وليس ينشد حشو رأسه بالمعلومات. المعلومات لا شطآن لها حقا. ولذلك الفقيه هو من يستثمر ما ينتهي إليه علمه في خدمة رسالته. هل تصدق أن كثيرا من الصحابة ماتوا ولم يدركوا من القرآن الكريم ولا من الحديث إلا شيئا قليلا جدا. لم. ليس زهدا منهم فيهما ولكن لأن القرآن الكريم ظل يتنزل على إمتداد زهاء ربع قرن إلا قليلا ولم يدرك ذلك الصحابة أجمعون بل مات منهم قبل ذلك كثير. أما الحديث فمعلوم أن كثيرا منهم ليس له ما لنا نحن اليوم لأسباب معروفة. ورغم ذلك عرفوا الرسالة ومنهاجها فطفقوا يسيرون في إتجاهها. ها نحن اليوم بين أيدينا القرآن الكريم على أربعة عشر قراءة وما فيها من روايات وما لا يحصى من التفاسير وزهاء مليون حديث فضلا عن كتب السيرة والتاريخ والفقه على المذاهب الثمانية وغير ذلك مما نعلم ومما لا نعلم. فهل عرفنا الرسالة وفقهناها حق الفقه؟. ذلك هو معنى أن المطلوب ليس كثرة العلم ولكن المطلوب هو دقة الفقه. كثرة العلم تحتاجه المجلدات والأقراص الإلكترونية المضغوطة التي بإمكانها أن تضم إليها ملايين مملينة من المجلدات. أما الإنسان فلا يحتاج إلى كل ذلك ولكن يحتاج من ذلك إلى أصوله وكلياته ومعاقده ومبادئه ومقاصده . ومن ذلك نظرا فيه وحسن فهم تتكون لديه الملكة الفقهية أي فقه الرسالة وفقه الحياة وفقه الإنسان وفقه العمل وفقه الدين وفقه الدنيا. لما سئل حبر الأمة إبن عباس عن علمه قال : جنيته بلسان سؤول وفؤاد عقول. ولكنك لاف اليوم أغرارا لا يتحرجون من قولهم أن العقل منبوذ في الدين ولا علاقة للعقل مع الإسلام. نحن أهل الإتباع ولسنا أهل الإبتداع. وضحالات أخرى ظاهرها الحق وباطنها الخرافة.

المطلوب ليس كثرة العلم ولكن المطلوب هو دقة الفقه. كثرة العلم تحتاجه المجلدات والأقراص الإلكترونية المضغوطة التي بإمكانها أن تضم إليها ملايين مملينة من المجلدات. أما الإنسان فلا يحتاج إلى كل ذلك ولكن يحتاج من ذلك إلى أصوله وكلياته ومعاقده ومبادئه ومقاصده

هذه الآية منطلق من منطلقات طلبة العلم لأنها ترسم لهم الفقه الإسلامي في مسارين مختلفين من جانب ومشتركين من جانب آخر وذلك نشدانا لتكاملهما. مسار المحكمات القطعيات الراسخات الثابتات في الإسلام من مثل العقائد والعبادات والأخلاق وغير ذلك مما هو في المعاملات غير قابل للتغير من مثل كثير من أحوال الأسرة. ذلك مسار كفيل بوضع طلبة العلم على الطريق السيار الطويل المستقيم الذي لا يسلكه سالك إلا وضمن لنفسه الفلاح والفوز بإذنه سبحانه وبه يتجنب التيه والضياع حتى لو أبطأ وليس البطئ عيبا ولكن العيب مخالفة الإتجاه العام لرسالة الإسلام في كلياتها الكبرى. ومسار المتشابهات وهي الأكثر ورودا في الكتاب والسنة سواء بسواء. تلك المتشابهات التي تحتمل أكثر من معنى إنما كانت كذلك لحكمة الإبتلاء. نحن مبتلون بها هل نصبر على عدم الخوض فيها خوضا باطلا إلا في مجالسها العلمية من أهلها بقصد تحريرها وتأويلها وغير ذلك. نحن مبتلون بها هل يصبر بعضنا على بعض فيها. هي ساحة إبتلاء لنا. منا من يسقط في تلك الساحة وذلك من خلال إتباع المتشابهات إبتغاء الفتنة أي تعريض الصف الإسلامي للفرقة والتنافر والتناحر وأكرم به من كبيرة كابرة أو إبتغاء التأويل وليس التأويل ممنوعا ولا محرما ولكنه محمي مقيد إذ لا يخوض فيه غير أهله ممن تسلح بأدوات التأويل وليست تلك الأدوات حكرا على « رجل دين» ولكنها حكر على من تأهل لذلك. هي مساحة مقيدة بعدم إثارة الفتنة وتفريق الصف الداخلي مهما كانت التباينات بسبب تلك المتشابهات كبيرة. من فقه ذلك له أن يتقدم على درب العلم أشواطا وأشواطا. ومن جهل ذلك فله أن يتأخر حتى يعلم أن الإسلام مساحتان : مساحة المحكمات التي لا يعذر بجهلها جاهل وهي مناط الوحدة والقيم التي تجمعنا وتعصمنا فهي العمود الفقري

تحتمل المتشابهات أكثر من معنى لحكمة الإبتلاء. نحن مبتلون بها هل نصبر على عدم الخوض فيها خوضا باطلا إلا في مجالسها العلمية من أهلها بقصد تحريرها وتأويلها وغير ذلك. نحن مبتلون بها هل يصبر بعضنا على بعض فيها.

فينا وهي الرأس الذي به نبصر ونسمع ونعقل ونقود سفينة الحياة. تلك هي المساحة الحاكمة على مساحة المتشابهات. هي مساحة صغيرة جدا من حيث الحجم الكمي ولكنها خطيرة جدا. خطيرة خطورة إيجابية إذ بإعتصامنا بها نفلح ونجدد وخطيرة خطورة سلبية إذ بتفرقنا فيها نعرض صفنا الداخلي إلى التفتت ثم إلى الإحتلال. ليس الإحتلال عسكريا فحسب بل إن الإحتلال الفكري أخطر والإحتلال الإقتصادي كذلك وغير ذلك.

ومساحة المتشابهات التي لا يطؤها سوى من كان من أهلها وفي محالها لئلا تتخذ ذريعة إلى القضاء على المحكمات. ذلك معقد أولي من معاقد طلب العلم وتلك هي السنة الأولى على درب طلب العلم.

الإسلام مساحتان: مساحة المحكمات ومساحة المتشابهات والمحكمات هي مناط الوحدة والقيم التي تجمعنا وتعصمنا فهي العمود الفقري فينا وهي الرأس الذي به نبصر ونسمع ونعقل ونقود سفينة الحياة. تلك هي المساحة الحاكمة على مساحة المتشابهات.

المثال الثامن :
إلتزام الموضوعية والعدل والإنصاف

قال تعالى :

«ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما»

(آل عمران 75)

(من) هذه تسمى : من التبعيضية. أي أن بعضا من أهل الكتاب وليس كلهم... يريد أن يعلمنا ما نسميه اليوم موضوعية أي عدلا وإنصافا حتى مع المخالفين أو الذين نشنؤهم أي نبغضهم ونكرههم. من أهل الكتاب أولئك الذين يدعونا إلى العدل معهم اليهود الذين قال فيهم في موضع آخر: «لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ..». حتى مع أولئك الذين هم أشد عداوة لنا ما ينبغي لنا سوى إلتزام الموضوعية والعدل والإنصاف أن نبخس الناس أشياءهم. ألا ترى أنه قدم أهل الكتاب الأمناء على أهل الكتاب الخونة. حدثنا عن الذين يستأمنون بقنطار كامل فيؤدونه وذلك قبل أن يحدثنا عن أولئك الذين يستأمنون على دينار واحد فلا يؤدونه. يريد أن يعلمنا العدل مرة أخرى. إشارتان متتاليان في ذلك في موضع واحد. أين نحن اليوم من مثل تلك التوجيهات. صفر على الشمال كما يقولون إلا قليلا. الأمانة والغدر لا دين لهما البتة. ألا ترى مسلمين اليوم غدرا. ألا ترى غير مسلمين اليوم أمناء. الذنب ذنب من؟ ذنب الإسلام. كلا. الذنب ذنب المسلم الذي لم يؤطره الإسلام ليجعل منه أمينا بمثل ما كان عبد الله إبن أريقط قائدا لرحلة الهجرة مقابل أجر وما كان منه ذلك كذلك إلا لأمانته وقوته على ذلك. للدنيا قانون إسمه الأمانة فمن وفى به فهو شريكك ولا تسل عن دينه.

يريد الله أن يعلمنا ما نسميه اليوم موضوعية أي عدلا وإنصافا حتى مع المخالفين أو الذين نشنؤهم أي نبغضهم ونكرههم. حتى مع أولئك الذين هم أشد عداوة لنا ما ينبغي لنا سوى إلتزام الموضوعية والعدل والإنصاف أن نبخس الناس أشياءهم. ألا ترى أنه قدم أهل الكتاب الأمناء على أهل الكتاب الخونة.

المثال التاسع :
التفرق كفر

قال تعالى :

«يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين.وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات اللّه وفيكم رسوله ومن يعصتم باللّه فقد هدي إلى صراط مستقيم»

(آل عمران الآيتان 100 و 101)

يردوكم بعد إيمانكم كافرين هنا معناها : يردوكم بعد وحدتكم متفرقين. السياق يقتضي ذلك وهو ملحظ المفسرين. السياق هو سياق الحث على الإعتصام والتحريض على الوحدة والحض على التكافل. الإسلام مبناه أمران : توحيد الدّيّان سبحانه وتوحيد الناس على ذلك قدر الإمكان بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن فمن أبى فوزره عليه ويبقى مكرما بيننا لا يناله السوء بل ندفع عنه السوء. لا يقدر إنسان على تطبيق هذا الأمر :«إتقوا الله حق تقاته». ولذا يكون معناه : بقدر إعتصامكم بالله ورسوله والجماعة أي بحبل الله وحبل الناس يكون إقترابكم من تقوى الله حق تقاته. لا يقدر أن يتقي الله حق تقاته حتى جبريل عليه السلام ولا محمد صلى الله عليه وسلم. ولذلك لا يكلفنا ما لا نقدر عليه بالضرورة فكانت الرخصة : «فأتقوا الله مـــا إستطعتم». ويدخل تحت طائلة الإستطاعة أن نعتصم بحبل الله أي بالإسلام من حيث محكماته وثوابته وقطعياته وراسخاته أما المتشابهات فلنا فيها الخلاف ولكن الممقوت هو الذهاب بذلك الحق إلى حد تشتيت الصف بالتأويل البعيد أو المتحكم المتسعف. وليس الإعتصام بحبل الله يكفي فلا بد من الإعتصام بحبل الناس أي بالجماعة وهذا هو المقصود هنا أصالة وليس بالتبعية. الإعتصام بحبل الله ضمنته آية النساء : «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم».

حبل الناس هو المشار إليه من بعد هذا السياق بقليل وهو الحبل الذي يبسطه المسلمون إلى أهل الكتاب ممن هم مواطنون في الدولة الإسلامية

سيـــاق الآية هو سيـــاق الحث على الإعتصـــام والتحريـض على الوحدة والحـــض على التكافـــل. الإسلام مبناه أمران: توحيد الدّيّـــان سبحانه وتوحيـد الناس على ذلـــك قدر الإمكـــان بالحكمـــة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هـي أحسن فمـن أبى فوزره عليه ويبقى مكرما بيننا لا يناله الســوء بل ندفع عنه السوء.

لهم فيها ما للمسلمين وعليهم فيها ما على المسلمين. لو لم يكن التفرق كفرا لما سعى إبليس إلى تفريق حبل الأسرة بإيغار الصدور حتى يقع الطلاق وقد ورد في الحديث أن من ينجح في ذلك من ذريته ينال أعلى الدرجات عنده مقربا. ولو لم يكن التفرق كفرا لما سعى إليه أعداء الإسلام صباح مساء ليل نهار. عندما يئسوا من هدم الإسلام قالوا : لا بد لنا من هدم الجامعة التي ينضوي تحتها المسلمون فإذا تفرقوا سدنا عليهم حتى وهم مسلمون مؤمنون. أليست تلك هي الحال الغالبة علينا إلى حد اليوم. لم الإستنجاد بالنقل أصلا في مثل هذه المواضيع. ألا يكفي العقل هنا منجدا ليرى تضاريس الأرض كيف تخسف بنا شرقا وغربا وأعداء الإسلام لا تزيدهم الأيام إلا وحدة في وجهنا وإعتصاما. معنى ذلك كله هو : العمل لتوطيد عرى الأمة الإسلامية اليوم هو أحب عمل إلى الله تعالى طرا مطلقا. وما سوى ذلك هو هراء في هراء وعواء في عواء. كل عمل لا يتجه في ذلك الإتجاه هو عبث معبوث.

العمل لتوطيد عرى الأمة الإسلامية اليوم هو أحب عمل إلى الله تعالى طرا مطلقا. وما سوى ذلك هو هراء في هراء وعواء في عواء. كل عمل لا يتجه في ذلك الإتجاه هو عبث معبوث

إذا كانت الدعوة إلى الله ـ أو إلى الإسلام ـ في زماننا من لدن بعض منا أيلولتها هي تفرقنا فبئست الدعوة وبئس الداعون بل هي في عداد الأعمال الذي لا بد من كتم صوتها وإخماد تأثيرها. أجل. حتى لو كانت تلك الدعوة تساهم في بث خير صغير هنا وبر أصغر هناك. أجل. حتى في تلك الحالة ما ينبغي لها سوى أن تصمت وتتأخر. لم؟ لأن أيلولتها النهائية تسير في الإتجاه المعاكس لأعلى مقصد من مقاصد الإسلام أي إعتصام الأمة بحبل الله وحبل الناس ووحدة صفها المرصوص وتكافلها على إختلافها. لم ألف ـ ورب الكعبة ـ شرا أشر فينا اليوم من تحكيم نظرة تجزيئية بغيضة هي نظرة حولاء عرجاء قطعاء عمياء.

المثال العاشر :
عبادة مهجورة إسمها السير في الأرض إقتفاء للسنن

قال تعالى :

«قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض
فأنظروا كيف كان عاقبة المكذبين»

(آل عمران الآية 137)

عبادات أخرى كثيرة مهجورة اليوم منا. مهجورة ليست بسبب التقاعس العملي ولكنها مهجورة بسبب عدم الوعي بها. ومن جهل شيئا عاداه كما قالت العرب. عبادة التكافل اليوم عبادة مهجورة إلا قليلا وعبادة البحث والإجتهاد والتجديد والتحديث كذلك هي عبادة مهجورة وعبادة أخرى إسمها : السير في الأرض بحثا عن السنن. فما هي السنن؟ السنن هي القوانين التي أودعها الباري كونه وخلقه وإجتماع عباده. هناك كون فسيح لا نعلم منه إلا قليلا من قليل من قليل. ذلك الكون فيه سنن كونية مطردة ثابتة بها تجري الشمس وتسير الكواكب وغير ذلك. وهناك الخلق وليس الإنسان سوى جزء من ذلك الخلق الواسع الفسيح الذي فيه الدواب من كل نوع وفصيلة وجنس وطائفة وملة ونحلة. هو خلق الأحياء بأنواعهم التي تند عن العد. وفي ذلك الخلق قوانين وسنن إجتماعية منها سنة الإنقراض مثلا. وهناك إجتماع الناس وهو يشمل أبناء آدم فحسب وفيه قوانين وسنن ونواميس غريزية وإجتماعية وفطرية وجبلية وغير ذلك. تلك النواميس كلها في العوالم الثلاثة (الكون والخلق والإجتماع البشري) تضمن الحركة والبقاء بإذنه وحده سبحانه فهو خالقها وهو الذي يخرقها متى شاء وكيفما شاء ولكن قضت سنته أنها لا تخرق إلا قليلا جدا في مناسبات نادرة جدا والأصل مضاؤها وإطرادها ليعم قانون الإبتلاء ثم قانون الجزاء. السير في الأرض سيران : سير بالأقدام وهذا

عبادات كثيرة مهجورة اليوم منا ليس بسبب التقاعس العملي ولكن بسبب عدم الوعي بها. عبادة التكافل عبادة مهجورة إلا قليلا وعبادة البحث والإجتهاد والتجديد والتحديث كذلك هي عبادة مهجورة وعبادة أخرى إسمها : السير في الأرض بحثا عن السنن.

مطلوب للكشف عن أشياء كثيرة وخدمة مقاصد كثيرة. وسير بالعقول والأفئدة تدبرا وتأملا وتفكرا. وهذا كذلك مطلوب. كلاهما مطلوب ولكل منا أن يزاولهما قدر الإمكان. هما يتكافلان ولا يتقابلان. لقد درجنا على طلب التكليفات العملية المباشرة من القرآن الكريم وهذا مطلوب دون ريب ولكن الذي يمتلئ به القرآن الكريم من السنن والنواميس والقوانين في الحقول البشرية كلها أضعافا مضاعفة مما هو فيه من تلك التكاليف العملية التي تسمى الفقه. درجنا على طلب الفقه العملي وتخلينا عن طلب الفقه الفكري والمعرفي والإجتماعي والسياسي والمالي وغير ذلك من ضروب المعارف. ما تفوق علينا الغربيون إلا لما حفلوا بفقه السنن التي بها سخروا الأرض ومعادنها وما على ظهرها وما في بطنها لجلب الرفاه والرغد. أرضنا تميد بمثل ذلك وأضعاف أضعافه ميدانا عجيبا ونحن على ظهرها نتضور جوعا. الذنب ذنب من؟ ذنب الإسلام أو ذنب القضاء والقدر. أو هو ذنبنا نحن.

هل طرحنا سؤال النهضة الأعظم : لماذا تقدم غيرنا وهم غير مسلمين وتخلفنا نحن ونحن مسلمون. ذلك سؤال نهضوي كبير وعظيم جدير بالطرح. طرحه هو الخطوة الأولى. الخطوة الثانية هو توفير الجواب الصحيح عليه. الخطوة الثالثة هو تعميم الوعي بهما أي بالسؤال وبالجواب. الخطوة الرابعة هي تهيئة الأسباب المادية والمعنوية لتنفيذ الجواب فوق الأرض. ثم تنطلق الخطوات خطوة في إثر خطوة. ذلك سؤال سنني سببي لا بد منه. هناك سنن للتقدم وأخرى للتدحرج وهناك سنن للعلم وأخرى للجهل وهناك سنن للتكافل وأخرى للتفرق وهناك سنن للنهضة وأخرى للتخلف وهكذا.. كل شيء مرتهن بسننه وأسبابه.

لماذا تقدم غيرنا وهم غير مسلمين وتخلفنا نحن ونحن مسلمون؟. ذلك سؤال نهضوي كبير وعظيم جدير بالطرح. طرحه هو الخطوة الأولى. الخطوة الثانية هو توفير الجواب الصحيح عليه. الخطوة الثالثة هو تعميم الوعي بهما أي بالسؤال وبالجواب. الخطوة الرابعة هي تهيئة الأسباب المادية والمعنوية لتنفيذ الجواب فوق الأرض.

المثال الحادي عشر :
الشورى ضمان الجماعة والوحدة والتنوع والقوة

قال تعالى :

«وشاورهم في الأمر»

(آل عمران 159)

ورد ذلك تعقيبا على واقعة أحد. أجل. ورد الأمر بالشورى موجها إليه هو ـ وهو من هو عليه الصلاة والسلام ـ وفي أعقاب هزيمة عسكرية ثقيلة كان سببها الظاهر ـ بحسب ما نتمحل به نحن اليوم ـ هو إدارته الشورى بين أصحابه الذين مالوا إلى الخروج إلى العدو الصائل خارج المدينة بدل اللبث هناك الذي كان يختاره هو عليه الصلاة والسلام. السبب الظاهر هو الشورى ولولا الشورى لمضى القائد في إختياره. لذلك جاء التعقيب بالأمر بالشورى موجها إليه هو ولم يرد ذلك قبل الواقعة. الذي يعنيه ذلك هو أن الشورى ما ينبغي لنا أن نتخذها سببا للهزيمة أبدا البتة. ذلك هو الذي جرى في تاريخنا حيث ألغيت الشورى بذريعة أن العامة والدهماء أصغر من أن يشيروا على ملك مظفر أو أبناء الأكارم الذين ورثوا الأمر كابرا عن كابر. ورد الأمر موجها إليه هو ـ وهو من هو عليه الصلاة والسلام ـ ليرعوي منا كل جبار عنيد ـ سواء كان في صف الحكام أو في صف الفقهاء ـ أن ينبذ الشورى. فإذا كان هو مأمورا بها فمن باب أولى وأحرى أن يكون غيره إلى ذلك أحوج. للشورى في الإسلام مقصد عظيم إسمه : الشورى تحفظ الجماعة وترص صفها رغم الإختلافات العقدية والمذهبية والأصولية والفكرية. الشورى تحفظ الحرية التي هي ضمانة العدل والكرامة. الشورى تحفظ الإختلاف والتباين والتعدد والتنوع وهي سنن إلهية وليست هوايات فكرية أو إختراعات بشرية أو بدعا شريرة. لكل ذلك كانت الشورى غير مقصورة على آلية سياسية أو إدارية لتحد من جنوح الحاكم إلى الإستبداد والقهر والسلب والنهب ولكنها كانت إلى جانب ذلك كذلك خلقا مثل كل خلق طيب كريم. الشورى خلق الأسرة:«فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما». (البقرة 233) وهي

الشورى تحفظ الجماعة وترص صفها رغم الإختلافات العقدية والمذهبية والأصولية والفكرية. الشورى تحفظ الحرية التي هي ضمانة العدل والكرامة. الشورى تحفظ الإختلاف والتباين والتعدد والتنوع وهي سنن إلهية وليست هوايات فكرية أو إختراعات بشرية أو بدعا شريرة.

خلق السياسة :«وشاورهم في الأمر».(آل عمران 159). وهي خلق عام في كل شعب الحياة ومناحيها : «وأمرهم شورى بينهم «.(الشورى 38). أما الذين يقارنون بينها وبين الديمقراطية فإنهم يقعون في خطإ منهاجي. الشورى نظام حياة يشمل الأسرة والحياة والسياسة والإدارة. أما الديمقراطية فهي آلية إدارية سياسية فحسب. إذا كان لا بد من المقارنة فلا بد أن نلحظ الفرق الذي يحجب المقارنة أن تكون وفية. لا تكون المقارنة إلا بين أمرين متجانسين. التجانس بين الشورى وبين الديمقراطية تجانس في حيز صغير ولا يمسح المنطقة كلها. لا مانع من المقارنات بل هي مطلوبة ولكن لها أصولها وقوانينها ولا بد من مراعاة أصل التجانس بين أمرين لا بد لنا من المقارنة بينهما. الشورى ضامنة للوحدة وهي ضامنة للحرية وهي ضامنة للقوة. ولا يضمن غيابها من ذلك من شيء أبدا. ليت شعري هل آل بنا الأمر إلى الإحتلال والتجزئة والتبعية إلا بسبب نبذ الشورى. أنى لغيرنا أن يهتدي إلى الشورى ـ روحا ومقصدا ـ ليحقق نهضته وليس له كتاب يهديه إلى ذلك ولكن هدي إليه بالعقل.. أنى له ذلك وليس لنا أن نفيئ إلى الشورى وهي مضاعفة عندنا : هي في الكتاب العزيز الهادي سورة مكية كاملة بله كونها آيات مبثوثات في البقرة وآل عمران والشورى وهي في العقول تشير إليها بيسر وبساطة.

الذين يقارنون بين الشورى وبين الديمقراطية يقعون في خطإ منهاجي.الشورى نظام حياة يشمل الأسرة والحياة والسياسة والإدارة. أما الديمقراطية فهي آلية إدارية سياسية فحسب. التجانس بين الشورى وبين الديمقراطية تجانس في حيز صغير ولا يمسح المنطقة كلها.

المثال الثاني عشر :
الإبتلاء سنة ماضية وقانون مطرد

قال تعالى :

«لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا»

(آل عمران 186)

المقصود هنا هو إبتلاء واحد فحسب. أعرف أن الناس كلهم يدركون أن الإبتلاء قانون إلهي ماض وسنة ربانية مطردة لا تتخلف. أعرف أن من يجهل ذلك عليه أن يرسم نفسه في السنة الأولى حتى يتعلم الأبجديات أو فقه الحياة كلمة كلمة. أعرف ذلك جيدا. ولذلك أحصر الكلام هنا على ضرب واحد من ضروب الإبتلاء وهو أننا مبتلون بالتعدد والتنوع والإختلاف. أجل. نحن مبتلون بذلك. فإن أدركنا الإمتحان وفزنا فيه فبها ونعمت وإن غفلنا عن ذلك أو خسرنا الإمتحان فويل الدنيا في إنتظارنا دون ريب. نحن مبتلون بذلك لنتعلم كيف ندير الإختلافات التي هي بيننا قانون ماض مطرد وليس هواية نتسلى بها. ألم ينجح الغربيون في أكثريتهم الكاثرة في ذلك الإمتحان. ألم ينجحوا في ذلك وتعدياتهم تفوق تعدياتنا بألف مرة ومرة. ألم نخفق نحن في إدارة تلك التعدديات وهي عندنا قليلة وصغيرة ولنا فيها إرث سابق. لنا فيها موجهات من الوحي الكريم ومن السيرة النبوية ومن الخلافة الراشدة المهدية الأولى. إبتلاءات الدنيا كثيرة وهذه واحدة منها. هذ الضرب من الإبتلاء هو إبتلاء الجماعة و الأمة وليس هو إبتلاء الفرد فحسب. يبتلى الفرد بالمرض والموت والغياب والعجز ولكن الأمة تبتلى بمثل ذلك. إبتليت الأمة من قبل فنجحت في ذلك الإمتحان. نجحت نجاحات جزئية لم تسلم من بعض الإخفاقات.

أننا مبتلـــون بالتعدد والتنـــوع والإختلاف. أجـل. نحن مبتلـــون بذلك. فإن أدركنا الإمتحان وفزنا فيه فبها ونعمـــت وإن غفلنا عـــن ذلك أو خسرنـــا الإمتحان فويل الدنيـــا في إنتظارنا دون ريب. نحن مبتلون بذلك لنتعلـــم كيـــف ندير الإختلافـات التي هي بيننا قانون ماض مطـرد وليس هوايـــة نتسلى بها.

أكتفي بذلك العدد من الأمثلة من الكتاب العزيز الهادي. أكتفي بذلك لأن المقصود هنا هو التمثيل وليس الإستقصاء ولا الإستقراء الجامع. أمثلة بالعشرات من الكتاب العزيز الهادي تعلمنا كيف نفكر. ذلك هو المطلوب من هذا الكراس. نستقرئ الآي لنتعلم كيف نفكر. القرآن الكريم لا يزودنا بالفكرة فحسب بل يعلمنا معها كيف نفكر. هل تذكر مثال تحريم الخمر والميسر مما أنف ذكره. أليس يعلمنا كيف نفكر قبل حتى أن يعلمنا كيف نعلم حرمة هذا أو حلية ذاك. هل تذكر مثال القتال في الأشهر الحرم والأمثلة كلها ما ورد منها هنا وما لم يرد. إستقراء ذلك يتطلب جهدا جماعيا كبيرا ومؤلفا ضخما بل سفرا. نحن بحاجة إلى ذلك السفر. فهل منا من يتطوع لذلك الجهاد الكبير. الجهاد بالإجتهاد. هما جهادان : جهاد بالعلم وهو الذي نأنف منه في العادة بل ربما عددناه ملهاة ومسرفة أو ربما معبثة. وجهاد بالقوة المادية وهو الذي قليلا ما نضعه في مكانه المناسب وحجمه المناسب وزمانه المناسب. هما جهادان مطلوبان. فهلا نفرت منا طائفة إلى الجهاد بالعلم وطائفة أخرى إلى الجهاد بالقوة المادية. ذلك هو فقه التكامل المنشود.

نحن بحاجة إلى سفر ضخم لا يقصر نظره على الكتاب العزيز الهادي لنتعلم منه كيف نفكر ولكن يستوعب الحديث كذلك لأن السنة ملآى بمثل ذلك. أليست من المشكاة ذاتها؟

هما جهادان: جهاد بالعلم وهو الذي نأنف منه في العادة بل ربما عددناه ملهاة ومسرفة أو ربما معبثة. وجهاد بالقوة المادية وهو الذي قليلا ما نضعه في مكانه المناسب وحجمه المناسب وزمانه المناسب. هما جهادان مطلوبان. فهلا نفرت منا طائفة إلى الجهاد بالعلم وطائفة أخرى إلى الجهاد بالقوة المادية. ذلك هو فقه التكامل المنشود.

المحور الثاني :

مقالات تعالج كيفية التفكير

لو قام الذي نحتفي بمولده لأنكر علينا [1]

[1] صدر هذا المقال بمجلّة «الإصلاح» العدد 23 - 8 فيفري 2013

أجل. لو قام خاتم النبيين محمد عليه الصلاة والسلام من قبره لأنكر علينا إحتفاءنا بمولده. ليس ذلك لعدم مشروعية الإحتفاء. أبدا وكلاّ. ولكن لما تنكبناه من سوء فهم له شخصية ونبيا ورسولا ورسالة عالمية لا يحدها زمان ولا مكان ولا حال ولا عرف. أول ما يبدأ به إنكارا هو إختلافنا المرهق في مشروعية الإحتفاء بمولده عليه الصلاة والسلام. لا شك في أن كثيرا من الراسخين في الوعي الإسلامي أصالة ومعاصرة يتوافقون على أن دائرة المحكمات الثابتات في حياتنا في تقلص وإنحسار في حين أن دائرة أخرى مصطنعة من لدنا في زحف وإمتداد. هي دائرة الظنيات والمتشابهات والخلافيات التي يتوسع فيها أهل العلم بحسبانها موطن إجتماع تندمل فيه جراحات التفرق وهو إجتهاد خاطئ دون ريب. وهي الدائرة ذاتها التي يعمل على توسيعها أعداء المشروع الإسلامي ـ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني ـ بحسبانها تمكن للمشروع الغربي بمختلف ألوانه الفكرية في مجتمعاتنا الإسلامية. مشروعية الإحتفاء بذكرى مولده عليه الصلاة والسلام لا تنتمي إلى تلك الدائرة وذلك لسبب بسيط جدا وهو عدم إنتماؤها إلى الدين بل إلى الدنيا. إنه عندما صرح ـ عليه الصلاة والسلام ـ بقوله : «أنتم أعلم بشؤون دنياكم» [1] فهو إنما يقصد مثل هذا. شغب

لا شك في أن كثيرا من الراسخين في الوعي الإسلامي يتوافقون على أن دائرة المحكمات الثابتات في حياتنا في تقلص وإنحسار في حين أن دائرة أخرى مصطنعة من لدنا في زحف وإمتداد. هي دائرة الظنيات والمتشابهات والخلافيات التي يتوسع فيها أهل العلم بحسبانها موطن إجتماع تندمل فيه جراحات التفرق وهو إجتهاد خاطئ دون ريب.

[1] أخرجه أحمد في مسنده (24964) ، و مسلم في صحيحه (2363) عن عائشة رضي الله عنها.

على ذلك الغالون المحرفون بسبب جهلهم أن الإسلام دين ودنيا ظنا منهم أن ذلك التقسيم يجري لمنفعة العالمانية فأفضى شغبهم ذاك إلى إلغاء الدنيا من الإسلام وبإلغائها تتحول دينا لا بد لنا فيه من نص من الوحي والحال في التشريع الإسلام مغايرة لذلك بالتمام والكمال إذ أن نصوص الوحي الملزمة إعتقادا وعملا نادرة جدا بالنسبة إلى تصاريف الحياة ودروبها الكثيرة المتعرجة المتشعبة وليس تلك منطقة فراغ أهملها التشريع ولكنها عفو عفا به الشارع الحكيم من النص إلى العقل تفويتا إراديا تكريما للإنسان المستخلف المستأمن المعلم من جهة ومن جهة أخرى تحقيقا لإستيعاب الإسلام بشريعته المرنة لطارئات التطور وداعيات المعاصرة وحالقات الليالي.

إنّ نصوص الوحي الملزمة إعتقادا وعملا نادرة جدا بالنسبة إلى تصاريف الحياة ودروبها الكثيرة المتعرجة المتشعبة وليس تلك منطقة فراغ أهملها التشريع ولكنها عفو عفا به الشارع الحكيم من النص إلى العقل تفويتا إراديا تكريما للإنسان المستخلف المستأمن المعلم.

منهاج الإستدلال هنا خاطئ منذ البداية

أجل. هو خاطئ منذ البداية لأنه منهاج يخضع حقل الدنيا إلى حقل الدين ولذلك يكون خطؤه منهاجيا. لا يشفع للعلماء أن يكون ذلك تحصيلا لرضى المخالفين أو جمعا للكلمة إذ الحق أحق أن يتبع. من أرضيته اليوم ففاء إليك تكون جنايتك عليه أنك لقنته منهاجا خاطئا فأي الأمرين أحب إلى نفسك؟ تأصيل مشروعية الإحتفاء بمولده عليه الصلاة والسلام يبدأ من النقطة الأصولية المنهاجية الأولى وإليها يرتد وهي أن مثل هذا الأمر ينتمي إلى الدنيا وليس إلى الدين ولو كان ينتمي إلى الدين الموقوف لكان لنا فيه أمر أو نهي وليس شيئا غير الأمر أو النهي. فإذا كان ذلك كذلك فإن الأمر مفوت فيه إلى العقل يصرفه بحسب ما فقه من إتجاه النص وإتجاه مقصده وإتجاه أيلولته. إلا أن ينبه العلماء إلى ما قد يشوب الإحتفاء ـ أي إحتفاء ـ من محرمات ولكن محل ذلك ليس هذا المحل لأن المعاصي يمكن أن تشوب أي عمل حتى لو كان عبادة.

ما يشوب الإحتفاء إتجاهات فكرية موغلة في العمى

مبنى الدنيا هو التفاضل خيرا وشرا دون ريب. لذلك رتبت الطاعات وبمثلها المعاصي ترتيبا تفاضليا تصاعديا أو إنحطاطيا لئلا نركمها في كيس واحد لفرط جهلنا أو لفرط تعصبنا. من العلماء اليوم من يحذر من وقوع المعاصي العملية ـ معاصي الجوارح ـ في مثل تلك الأحتفاءات. ولكن هل تجد واحدا منهم فحسب ينبه إلى أن الإتجاه الفكري للإحتفاء بمولده عليه الصلاة والسلام يكرس للعمى عن الرسالة الإسلامية الصحيحة؟ طبعا لا. بعضهم لا يعي ذلك لفرط تغلغل التدين التقليدي الخرافي الأسطوري في فؤاده وبعضهم الآخر يتأخر عن ذلك لإرتداد الإرادة فيه إلى درجات سفلية بعيدة. عندما نجاري هؤلاء نسقط في المحذور ذاته الذي يسقط فيه أولئك الذين يفتون بحرمة الإحتفاء بذكرى مولده عليه الصلاة والسلام. هؤلاء يرتكبون خطأ منهاجيا غليظا موجعا وذلك بسبب وصلهم الدين بالدنيا في الإسلام وصلا لا فصل فيه ولا يشفع لهم حسن الطوية في الدنيا ولا سدا لذريعة غفل عنها الإسلام بزعمهم. أما أولئك فإنهم يرتكبون الخطأ المنهاجي ذاته ولكن في إتجاه معاكس وذلك عندما يأذنون بإحتفاءات تغرز في الأمة معاني الجاهلية الغابرة والحاضرة سواء بسواء. كيف ذاك؟ إليك البيان الآتي :

إنّ الذين يفتون بحرمة الإحتفاء بذكرى مولده عليه الصلاة والسلام يرتكبون خطأ منهاجيا غليظا موجعا وذلك بسبب وصلهم الدين بالدنيا في الإسلام وصلا لا فصل فيه ولا يشفع لهم حسن الطوية في الدنيا ولا سدا لذريعة غفل عنها الإسلام بزعمهم

عندما يكون إتجاه الإحتفاء شخصانيا

من أعقد معضلاتنا المعاصرة اليوم أننا نأخذ جزء كبيرا من ديننا عن مخلفات عصور الإنحطاط وهي عصور مبكرة جدا في تاريخنا سيما في جانبها السياسي بسبب الإنقلاب الأموي الشنيع ضد أكبر قيمة في الإسلام من بعد قيمة التوحيد العظمى أي قيمة الشورى الكفيلة بصياغة شخصية

جماعية للأمة قوامها الإجتماع المتنوع من جهة وكرامة الإنسان بمشاركته السياسية ومشاركته العامة من جهة أخرى. جرثومة المشكلة الحضارية المعاصرة اليوم هي تلك اللحظة البئيسة التي تغلب فيها السيف على القلم فألجمت الألسنة القويمة وسالت لعابات الأفواه الجشعة. من مخلفات تلك الفترة وما تلاها أن إنحسر الإهتمام في جانبه الشخصي متعلقا بمحمد عليه الصلاة والسلام فأنبرى الشعراء و المداحون يصفون جسمه وحركته وسكنته وشعره ومشيه وقعوده وقيامه ووسامته وجماله حتى يحال إليك اليوم بطلا دوليا في رياضة كمال الأجسام أو ملك جمال الرجال وليس ذاك سوى محصلة حزينة من محصلات ذلك الإنقلاب الأموي الدموي الذي حمى حقول السياسة والحكم والدولة والمال العام وحاشيات القصور أن تتناوشها أقلام المصلحين أو ألسنة المقاومين فكان أضعف الإيمان عندنا هو ألا نفرط في محمد عليه الصلاة والسلام ولو بذكر مناقبه البدنية. هل تجد منا من ينكر ذلك اليوم؟ هل تجد في الكتاب أو السنة أدنى ذكر لذلك؟ ناكية النواكي أنك تجد مثل ذلك الإتجاه الشخصاني البليد حتى في زمن الثورة أو زمن ما بعد الثورة حيث لا مكمم للأفواه ولا للأقلام. ذلك يعني أن الثورة ـ على جلالة قدرها ـ ليست سوى مفتاحا لثورة لا بد منها في العقول والأفكار بل في مناهج التفكير. عندما تتأخر مثل تلك الثورة القابلة تندحر الثورة العربية الراهنة ـ الربيع العربي بالتعبير الإعلامي ـ خطوة إلى الوراء بل خطوات.

من مخلفات الانقلاب الأموي وما تلاها أن انحسر الإهتمام في جانبه الشخصي متعلقا بمحمد عليه الصلاة والسلام فأنبرى الشعراء و المداحون يصفون جسمه وحركته وسكنته وشعره ومشيه وقعوده وقيامه ووسامته وجماله.

عندما يكون الإحتفاء تقليديا

دعني أقول لك هذا فلا تعجل علي بتكفيري وتفسيقي وتبديعي ورميي بالهرطقة والزندقة حتى تسمعه مني. دعني أقول لك أن كارل ماركس عندما قال : الدين أفيون الشعوب.. إنما قال ذلك في المسيحية المتكنسة

التي تسلب الإنسان حقه وحريته وكرامته. ذلك صحيح دون ريب. ولكن الأصح منه عندي أن الإسلام نفسه تحول في فترات معينة محددة فينا إلى ما يشبه ذلك الأفيون الذي يستخدمه علماء السلطان وفقهاء البغي وزبانية القصور بقصد تخديرنا وصرفنا عن المطالب الإجتماعية والسياسية والإقتصادية والدولية والتحررية بصفة عامة داخليا وخارجيا. أكرر لك القول أن اللحظة المأساوية التي لا زلنا ندين بدينها غير واعين بشرها وخطرها هي لحظة إفتراق الحكم والسياسة والشأن العام عن الوحي الساطع الصادق أي لحظة تغلب السيف على اللسان والقلم وهي لحظة بعيدة في التاريخ مبكرة في التجربة وآثارها اليوم بادية حتى بعد الثورة. صحيح أن صحوة إسلامية كبيرة نسبيا تشق الأمة منذ زهاء ثلاثة قرون ولكنها صحوة مازالت نخبوية فئوية ضيقة يحجزها عن الإنسان المسلم في الأدغال والقرى حاجز التصدئ فينا. هل تنفك إحتفاءاتنا بالمولد النبوي الشريف عن المدائح والأذكار وكثير منها ينضح شركا قحا بمثل ما حوته قصيرة البردة البوصيرية على جلالة قدرها البياني الكبير؟ ناكية النواكي أن تنبري لتلك الإحتفاءات إحياء نساء عاريات وليس كاسيات عاريات. لا بل عاريات عراء فاحشا متبذلا. هل تظنون أن ذلك خطأ فنيا أو توبة منهن أو على غير إعداد مسبق؟ عندها نكون قد وقعنا في خطإ قيمي من بعد وقوعنا في الخطإ المنهاجي. ذلك كله مسبق الإعداد لإفراغ الإسلام من نهضته القيمية والروحية والإجتماعية التي لم يتألق إلا بها ولم يجلب إليه رؤوس الفلسفة في القديم والحديث إلا بها. هي خطة عالمانية محكمة تحقق فيها قالة كارل ماركس : الدين أفيون الشعوب من جهة ومن جهة أخرى ترضينا بذلك الفتات المدسوس سما زعافا. وأي سم أشد علينا عندما تتربى أجيالنا على إسلام لا طعم فيه للمقاومة والجهاد والكرامة والعدالة والعمل والحق والخير والقوة والوحدة والإنتصار للمسحوقين؟ أي طعم

تحول الإسلام نفسه في فترات معينة محددة فينا إلى ما يشبه ذلك الأفيون الذي يستخدمه علماء السلطان وفقهاء البغي وزبانية القصور بقصد تخديرنا وصرفنا عن المطالب الإجتماعية والسياسية والإقتصادية والدولية والتحررية بصفة عامة داخليا وخارجيا.

للإسلام عندما ينبري فيه إماما بالعشي من كان بالضحى عربيدا؟ هي خطة لتمييع الإسلام ونبذ قيم الإلتزام فيه.

إحتفاءات 1434 لا مكان فيها للنبي الثائر

تلك هي المفارقة العجيبة وما هي بعجيبة بسبب التخطيط العالماني الماكر وبسبب الإستضعاف الإسلامي الذي فرضه المسلمون على أنفسهم فرضا. لا أجد في هذه السنة طعما لتلك الإحتفاءات إلا إذا إجتهدت لتقدم لنا محمدا عليه الصلاة والسلام ثائرا مقاوما ومجاهدا ضد أساطين الطغيان والإستبداد والجبروت والقهروت. أنى لنا أن نجمع بين الأمرين في هذا العام : إحتفاء بالذكرى الثانية لثورة تونس (14 جانفي) وثورة مصر (25 جانفي) وثورة ليبيا (17فبراير) وفي الآن ذاته إحتفاء بنبي لا علاقة له بالثورة والمقاومة والجهاد وكرامة الإنسان. ليت شعري وهل بعث هو عليه الصلاة والسلام لغير الثورة ضد الإستبداد القرشي والنخاسة العربية الجاهلية؟ ليت شعري هل بعث هو لغير كرامة الإنسان والعدالة الإجتماعية والوحدة البشرية جمعاء قاطبة فإن تعذرت فالوحدة الكتابية فإن تعذرت فالوحدة الإسلامية؟ ليت شعري أليس ذلك هو الأرضية الصلبة التي يدعى من بعدها إلى توحيد الديان سبحانه؟ أجل. بعدها وليس قبلها. ألا تسأل نفسك هذا السؤال المنهاجي العظيم : هل بعث موسى عليه السلام لتحرير بني إسرائيل أم لهدايتهم؟ إنما بعث لتحريرهم من البطش الفرعوني أولا فلما تحرروا من ذلك وفاؤوا إلى حيث الأمان في صحراء سيناء دعاهم عليه السلام إلى الله سبحانه. بمثل ذلك فعل عليه الصلاة والسلام إذ عمل على تحرير الإنسان ليتأهل الإنسان إلى إستقبال دعوة التوحيد وله من بعد ذلك مطلق الحرية في القبول أو الرفض. أما قبل ذلك فلا. ذلك هو معنى أن الحرية تسبق الشريعة. بل تسبق الحرية العقيدة وليس الشريعة

> كان علينا أن نجمع بين الاحتفاء بالثورة والاحتفاء بالنبي محمد الذي بعث للثورة ضد الإستبداد القرشي والنخاسة العربية ا لجا هلية و بعث لتحقيق كرامة الإنسان والعدالة ا لا جتما عية والوحدة البشرية جمعاء قاطبة فإن تعذرت فالوحدة الكتابية فإن تعذرت فالوحدة الإسلامية.

فحسب. تدبر ذلك قبل أن تتعجل علي بتكفيري فلا يفيئ بوزرها غيرك. هل أن ذلك يعد فقها عالي المنال لا يحصله إلا الراسخون؟ كلا وألف ألف كلا. إذا لكان الإسلام دين النخبة. ولكن المعضلة فينا نحن. المعضلة في عدم أهليتنا للتفكير وكأننا نتجه في إتجاه معاكس بالتمام والكمال لإتجاه الكتاب الذي لا يقوم سوى على التفكير الحر ولا يقود التفكير الحر إلا إلى الإسلام. فإن قاد التفكير الحر إلى الإسلام الذي يطاوع الظالمين والمعتدين والسلابين والنهابين فما هو بتفكير أصلا وما بتفكر حر أبدا.

عجبي لا ينقضي! أنى لنا أن نرتد إلى الإحتفاءات الشخصانية والتقليدية التي تدعونا صراحا بواحا إلى الشرك العام أو الشرك بالله بمحمد عليه الصلاة والسلام ليكون محمدا عندنا هو المسيح الصليب ـ بزعمهم ـ إبن مريم الذي يعده النصارى إلها أو عشر إله.. أنى لنا أن نرتد إلى ذلك ونحن في زمن الثورة أو في زمن ما بعد الثورة. ولكن ينفك عني عجبي عندما أذكر أن ثورة الربيع العربي المنداحة اليوم ليست سوى مفتاحا لتدشين مرحلة الثورة الفكرية والثقافية التي نضع لها المثال الصيني عنوانا : «لا تعطني سمكا بل علمني كيف أصطاد». أجل. لا تعطني فكرة بل علمني كيف أفكر. ثورة نسميها : علمني كيف أفكر.

أجل. لو قام عليه الصلاة والسلام لأنكر علينا إحتفاءنا به لأنه ينهانا عن الإحتفاء به ولكن يأمرنا بالإحتفاء بالإسلام. نحن نحتفي به والإسلام يأمرنا بالإحتفاء بالإسلام. أي مفارقة هي! إذا كان إحتفاؤنا به لا ذكر فيه للإسلام فلا خير في إحتفاء لا يعلى فيه الإسلام : الإسلام الذي نجده في الكتاب والسنة وليس الإسلام الذي تغلب فيه السيف على القلم فسحب منا القيادة العالمية لنظل إلى اليوم في ذيل القافلة. الإسلام الذي وضع لنا سورة

لو قام عليه الصلاة والسلام لأنكر علينا إحتفاءنا به لأنه ينهانا عن الإحتفاء به ولكن يأمرنا بالإحتفاء بالإسلام. نحن نحتفي به والإسلام يأمرنا بالإحتفاء بالإسلام. أي مفارقة هي! إذا كان إحتفاؤنا به لا ذكر فيه للإسلام فلا خير في إحتفاء لا يعلى فيه الإسلام: الإسلام الذي نجده في الكتاب والسنة وليس الإسلام الذي تغلب فيه السيف على القلم

مكية كاملة سماها الشورى لتتكون الأمة على قوامها وتعمل متكافلة على قوامها فلا تظلم فيها أقلية ولا تستبد فيها أكثرية.

الإحتفاء مشروع لأنه دنيا وليس دينا ولو كان دينا مثل حرمة الخمر والخنزير لما إختلفنا فيه وإختلافنا فيه لهو دليل على أنه دنيا لأن الناس يختلفون في الدنيا وليس في الدين. أما إختلافنا في فروع الدين فلا يسمى إختلافا في الدين لأن الدين الموقوف هو أصول ومعاقد ومعازم وكبائر وفرائض ومحكمات وراسخات وثابتات وقطعيات. ذلك يسمى إختلافا في التقدير والإجتهاد.

ولكن الإحتفاء غير مشروع عندما يكرس الإتجاهات الفكرية المعيقة للنهضة والثورة والكرامة والعدالة والوحدة والمقاومة. عندما ندعى إلى الإرتكاس إلى الجاهلية العقدية من جديد أو إلى نبذ العدالة والكرامة من جديد .. لا يسمى إحتفاؤنا مشروعا ولكن يسمى عادة جاهلية وتقليدا عربيا خائبا علينا أن نتوب منه.

أجل. عندما يكون الإحتفاء خادما لقالة كارل ماركس فلا حاجة لنا بإحتفاء يجعلنا ماركسيين.

الإحتفاء غير مشروع عندما يكرس الإتجاهات الفكرية المعيقة للنهضة والثورة والكرامة والعدالة والوحدة والمقاومة. عندما ندعى إلى الإرتكاس إلى الجاهلية العقدية من جديد أو إلى نبذ العدالة والكرامة من جديد .. لا يسمى إحتفاؤنا مشروعا ولكن يسمى عادة جاهلية وتقليدا عربيا خائبا علينا أن نتوب منه.

الحرية أسبق من العقيدة
والعدالة أسبق من الشريعة [1]

[1] صدر هذا المقال بمجلّة «الإصلاح» بالأعداد 30 و 31 و 32 - 17 و 31 ماي 2013 و 14 جوان 2013

مقدمة عامة

حاجتنا إلى هذه المعالجة هي اليوم مؤكدة بسبب إندراجها ضمن فقه الأولويات ـ الذي كان يسمى قديما : فقه مراتب الأعمال ـ ولا أظن أن مجادلا يجادل في تقديم ترتيب أولوياتنا على ترتيب مركبات تلك الأولويات ذاتها. فقه الأولويات لا ينتمي إلى فقه الشريعة الإسلامية فحسب. بل ينتمي ـ قبل ذلك أصلا ـ إلى فقه الحياة وإلى فقه المنطق العقلي البدهي الذي نخضع له في ترتيب حياتنا بما ركّب فينا من ملكات فطرية وغريزية وجبلية هادية. بعض الناس اليوم يفرون مما تتعلق معالجاته بالموضوعات الشرعية سيما إذا كانت على غير المنهاج السائد ظنا منهم أن ذلك أمر خاص بأهل الذكر في ذلك الحقل من جهة ومن جهة أخرى ظنا منهم أن الشريعة شيء والحياة شيء آخر أو أن النظام الإسلامي الدنيوي شيء وأن النظام الإسلامي الأخروي شيء آخر. النظامان إما أنهما يتماثلان أو يتجانسان عن كثب قريب جدا ـ وذلك هو رأيي ـ وإما أنهما يصدران عن مشكاة واحدة فهما صنوان شقيقان. ألا ترى ـ مثالا واحدا صغيرا على ذلك ـ أن النظام الأخروي شبيه جدا بالنظام الدنيوي سيما عندما نؤجل الحديث عن قيم العدل والجور وقيم الحق والباطل وقيم المصلحة والمفسدة. كلاهما يشتمل على نظام عقابي تأديبي وكلاهما يشتمل على نظام وقائي علاجي وكلاهما يشتمل على نظام تربوي تأهيلي إعدادي. عندما يقبل المرء على تعلم الإسلام وفق ذلك المنهاج الجامع بين النظامين في إنسجام ووئام وتكافل فإنه كمن يدخل بيتا من بابه المعروف لا متسلقا وذلك هو إحدى معاني قوله سبحانه في سورة البقرة : «وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البرّ من إتقى وأتوا البيوت من أبوابها وأتقوا الله لعلكم

فقه الأولويات لا ينتمي إلى فقه الشريعة الإسلامية فحسب. بل ينتمي قبل ذلك أصلا إلى فقه الحياة وإلى فقه المنطق العقلي البدهي الذي نخضع له في ترتيب حياتنا بما ركّب فينا من ملكات فطرية وغريزية وجبلية هادية.

تفلحون» [2]. إتيان البيوت من أبوابها ومن ظهورها ليس عملا له علاقة بالتطيّر في عصر الوثنيات الغابرة فحسب ولكنه عمل فكري كذلك مازال بعضنا يزاوله تطيّرا عقليا وروحيا.

حياتنا مبناها مطالب كثيرة لا تنتهي ولا مناص لنا من النظر مليّا في تلك المطالب ـ مطالب فعل ومطالب ترك ـ بقصد ترتيبها ضمن سلم أولوي معقول ومفهوم يأخذ بعين الإعتبار مؤهلاتنا والمتاح لنا إذ مبنى فقه الحياة هو الموافقة بين ما هو واجب وبين ما هو ممكن. لو يعلم الذين يطحنون أنفسهم طحنا ـ إما بدوافع دينية أو دنيوية ـ أن كسبهم في حصيلة الميزان النهائي لن يتعدى ما هو ممكن أبدا البتّة لفاؤوا إلى تلك المعادلة منذ البداية ولما عرّضوا أنفسهم إلى الإنبتات الذي لا يقطع بصاحبه أرضا ولا يبقي له على ظهر. ألست ترتب أولويات يومك عند كل فجر جديد وكذا أولويات أيامك القابلة وذلك بحسب مؤهلاتك البدنية والفكرية والمالية وبحسب ما هو متاح لديك من الأوقات والأعمال وممكنات المكان والحاجة مراعيا ضغوطات الضرورة. لم يحيّرني سؤال في حياتي سوى هذا السؤال: لم تفعل كذلك في حياتك الدنيوية فإذا إنقلبت إلى إهتماماتك الدينية تفكيرا وسلوكا طويت ذلك المنهاج العادل لتصبح عالة على الفوضى التي لا تعترف بفقه مراتب الأعمال أثرا من آثار النظر في الموازنات والمصالح والمفاسد وترجيحا بينها لتصيب أكثر الكسوب أجرا وفي أقصر الأوقات في كثير من الأحيان ولتجتنب أكثر العطوب وزرا.

حياتنا مبناها مطالب كثيرة لا تنتهي ولا مناص لنا من النظر مليّا في تلك المطالب ـ مطالب فعل ومطالب ترك ـ بقصد ترتيبها ضمن سلم أولوي معقول ومفهوم يأخذ بعين الإعتبار مؤهلاتنا والمتاح لنا إذ مبنى فقه الحياة هو الموافقة بين ما هو واجب وبين ما هو ممكن.

كثيرا ما تمتلئ أذهاننا بدلالات خاطئة ونحن لا نشعر ومنشأ ذلك التعجّل هو عدم تأملنا في العبارات. من ذلك أن كثيرا من الشباب اليوم لا

---

[2] سورة البقرة – الآية 189.

يفهم مسألة الأولويات سوى أنها صرف لتلك الأولوية المؤخرة من دائرة الإهتمام والحقيقة على خلاف ذلك بالتمام والكمال إذ الترتيب الأولوي لأعمالنا ـ تفكيرا وإنجازا ـ هو ترتيب أفضلي أسبقي وليس ترتيبا إلغائيا ومن بعد ذلك فإن الترتيب الأولوي عملية تنظيمية تقتضيها ما شكا منه المصلحون دوما أي رجحان كفة المطلوبات على كفة الممكنات.

منشأ المشكلة وتحريراتها المطلوبة

نفي طروء المشكلات الذي يلجأ إليه بعضنا هو الحكم بالإعدام على إمكانيات التطور والتحسن والتقدم وبمثله في ذلك جعل تلك المشكلات ألغازا وطلاسم وجودية لا سبيل إلى معالجتها إلا بالإقصاءات والإلغاءات والتضييقات. ثمرة المسارين واحدة رغم أن كلاهما يسير في الإتجاه المعاكس للآخر.

نفي طروء المشكلات الذي يلجأ إليه بعضنا هو الحكم بالإعدام على إمكانيات التطور والتحسن والتقدم وبمثله في ذلك جعل تلك المشكلات ألغازا وطلاسم وجودية لا سبيل إلى معالجتها إلا بالإقصاءات والإلغاءات والتضييقات.

المشكلة هي علاقة الإسلام بالحياة. علاقة تطرحها العالمانية الغربية لفسح المجال أمام الحياة وحسرها أمام الإسلام. وهي علاقة أخرى تطرحها السلفية العربية لفسح المجال أمام الإسلام وحسرها أمام الحياة. هؤلاء ينطلقون من منطلق صحيح في الأصل ولكن تنكبوا حسن فقهه. صحيح أن الإسلام إنما جاء لتوجيه الحياة وتخليص الأحياء من ربقات الرّق ووهدات الإستعباد. ولكن الذي تنكبوا فهمه هو أن الإسلام إنما جاء لتحقيق ذلك بالرضى والتعاقد والتفاهم والإقتناع وذلك هو معنى الإيمان الذي يسبق العمل دوما بمثل ما يسبق الكفر عمل الكافر. المشكلة هي علاقة الإسلام بالإنسان. وهي علاقة يتنكبها الفريقان : الفريق العالماني الغربي الذي يكره الإنسان على تقديم الحياة ـ أو قل الدنيا ـ وتأخير الإسلام وهي إكراهات طامنت من غلوائها المواثيق الحقوقية الإنسانية التي فرضتها إستحقاقات الحرب العالمية الثانية. والفريق السلفي العربي الذي

يكره الإنسان على تقديم الإسلام وتأخير الحياة أو الدنيا وهي إكراهات تغذيها مساحات غير قليلة من تراثنا وتاريخنا ويستجيب لها الناس لفرط الجهل حينا وليقظة العاطفة الدينية حينا آخر ولحدة السؤال المطروح بقوة وشدة منذ قرون طويلة وهو سؤال النهضة العربية المعاصرة. أي : لم تقدم غيرنا وهو كافر وتأخرنا نحن ونحن مسلمون. السؤال صحيح ولكن المقاربة خاطئة. السؤال ذاته صحيح في الجملة ولكن التفصيل لا يضمن تلك الصحة كاملة. ذلك أن معايير التقدم والتأخر التي تأبطناها في المعالجة هي معايير غربية لأنها مادية فحسب. ولكن دعنا نقرر صحة السؤال رغم ذلك لأن معالجته تخرج بنا عن دائرة إهتمامنا في هذه القالة المتعجلة المرتجلة. أما المقاربة فهي خاطئة وذلك بسبب أنها تواضعت في الجملة على كون تأخرنا هو ثمرة للبعد عن الدين. أصل المقاربة لا يخلو من صحة في الظاهر ولكن عند مباشرة التنزيل للقرب من الدين الذي إبتعدنا عنه نقترف خطأ شنيعا جدا قوامه أن بعدنا عن الدين كان بعدا مسلكيا عمليا فحسب ولذا تكون المعالجة من جنس الخطإ أي نفيئ إلى الدين عملا وسلوكا فحسب. منشأ الخطإ الأكبر هنا هو أن بعدنا عن الدين كان بعدا فكريا بالأساس. كان بعدا فكريا بالتاريخ ثم بالترسب والتراكم والإلف والعادة والتقليد وطول الأمد ظل ذلك البعد الفكري التاريخي واقعا ماثلا شاخصا لا ينكر وأنى لفاقد الشيء أن يعطيه ومن جهل شيئا عاداه بالطبيعة والضرورة.

صحيح أن الأطروحات العالمانية الغربية إنهزمت شر هزيمة في الدار الإسلامية وما كان ينبغي لها سوى ذاك لمن يدرك فقه السنن الإجتماعية التي أودعها الباري سبحانه كونه وخلقه. ولكن هزيمة تلك الأطروحات لم تكن لتنشئ نهضة من تلقاء نفسها. عندما تهجم على بيتك البالي فتهدمه فإن البيت الجديد الذي عمّر مخيالك أياما لن يقوم مكان البيت المهدوم

صحيح أن الأطروحات العالمانية الغربية إنهزمت شر هزيمة في الدار الإسلامية وما كان ينبغي لها سوى ذاك لمن يدرك فقه السنن الإجتماعية التي أودعها الباري سبحانه كونه وخلقه. ولكن هزيمة تلك الأطروحات لم تكن لتنشئ نهضة من تلقاء نفسها.

بقانون : كن فيكون. أمر النهضات العمرانية الروحية والفكرية لدى الأمم والشعوب هو كذلك بالتمام والكمال. الذي حدث فينا كان أشد علينا من ذلك بقليل. الذي حدث فينا هو أن غروب البديل العالماني الغربي المتطرف كانت تعتمل في أحشائه بدائل إسلامية تختلف ولاءاتها إلى الإسلام من بديل إلى آخر وتتعدد وفاءاتها لرسالة الإسلام ومبادئه وعقائده ومقاصده كذلك من بديل إلى آخر. هما بديلان كبيران جديران بالمعالجة. البديل الوسطي المعتدل المتوازن والبديل السلفي المتورم والمغالي. أما البديل الوسطي فبالرغم من نجاحاته الكثيرة والكبيرة فإنه أخفق في شيء مهم وكبير وهو التعبئة الشعبية الواسعة بالمفاهيم الإسلامية الناصعة الصحيحة في قضايا مفتاحية من مثل المرأة والأسرة ومن مثل الدولة والسياسة والشأن العام وغير ذلك. ظل ذلك البديل نخبويا إلى حد بعيد كما أنهكته المعارك السياسية التي جنى منها دون شك مساحات معتبرة لفائدة البديل الإسلامي. ولكن تفريطه في المعركة الفكرية التثقيفية التنويرية ـ بله الإجتهادية التحديثية التجديدية ـ من جهة وتورم الإهتمامات الداخلية التنظيمية فيه على حساب العمل الشعبي الميداني الجماهيري من جهة أخرى .. كان ذلك الفراغ محلا للملء ـ جزئيا وليس كليا ـ من لدن البديل السلفي المتورم المغالي. وذلك هو الذي يفسر الإنقسام الإخواني السلفي الذي أفرزته الإنتخابات المصرية التشريعية من بعد الثورة الأخيرة. ينحاز المثقفون في العادة إلى التيار الوسطي وجزء كبير من عامة الناس من أصحاب التدين التقليدي إلى التيار السلفي. تلك هي جغرافية الإرث الداخلي فكريا من بعد ضمور التأثير العالماني الغربي.

الذي حدث فينا هو أن غروب البديل العالماني الغربي المتطرف كانت تعتمل في أحشائه بدائل إسلامية تختلف ولاءاتها إلى الإسلام من بديل إلى آخر وتتعدد وفاءاتها لرسالة الإسلام ومبادئه وعقائده ومقاصده كذلك من بديل إلى آخر.

ولا يسعنا الحديث هنا عن تيار ثالث آخر يشق صف الأمة بوزن شبه ثقيل وهو التيار الصوفي بمختلف مدارسه الطروقية المغالية والمعتدلة وذلك بسبب إشتراكها جميعا في كلمة السر التي قوامها : زكّ نفسك وطهرها ولا

عليك في الآخر إن ضل أو إهتدى. كما لا يسعنا الحديث عن تيار آخر عريض هو تيار جماعة الدعوة والتبليغ وهو تيار وإن كان إنتماؤه إلى التيار الوسطي المعتدل أدنى نسبيا فإن تأثيره محدود جدا إذ لا يتعدى الشأن الفردي الخاص. ذانك تياران أدنى إلى إعتزال الدنيا والحياة تأثرا وتأثيرا وصناعة لا فكرية ثقافية ولا سياسية وبذلك فإن الحديث عنهما غير ذي جدوى هنا سيما أن الحرب طاحنة شرسة بين أحدهما ـ وهو الإتجاه الصوفي ـ وبين التيار السلفي صاحب التأثير المعتبر في هذه الأيام. ولا يندّ ذلك كله عن المخلفات الطبيعية لرحيل البديل العالماني الغربي المتطرف.

معنى ذلك هو أن السرطان العالماني الغربي ـ مثله مثل كل سرطان بدني عافاكم الله جميعا ـ ما كان ينبغي له أن يرحل دون أن يخلف تشوهات جلدية أو في الأسماع والأبصار. وذلك هو الذي يجعلنا في مرحلة إعادة البناء ولعق الجراحات وتصويب المسار أوّلا قبل معالجة ما هو مطلوب إنمائيا ماديا وعمرانيا.

ولا ريب في أن الأمة التي تغيبت عن رسالتها الإسلامية الجامعة بين الدين وبين الحياة لا مناص لها من أن تواجه مثل ذلك. صناعة الأفكار وتصحيح العقول ليس هناك أشق منهما على وجه الأرض طرا مطلقا. قضايا الشريعة والحرية وغيرها لم تكن مطروحة لا زمن الإحتلال الذي خضعت له الأمة طويلا إذ كانت الأولوية للمقاومة ولا زمن الإستبداد السياسي الذي خيّم على الأمة من قبل ثورات الربيع العربي الراهن ردحا من الزمن طويلا وقاسيا وكانت الأولوية يومها كذلك للمقاومة. ولذا لا بدّ من مرحلة إنتقالية تفصل بين المقاومة وبين إعادة البناء وتصل بينهما كذلك. أما الإنتقال الآلي فلا تخضع له حتى الآلات الصماء فكيف بالإنسان مركب التكوين.

قضايا الشريعة والحرية وغيرها لم تكن مطروحة لا زمن الإحتلال الذي خضعت له الأمة طويلا إذ كانت الأولوية للمقاومة ولا زمن الإستبداد السياسي الذي خيّم على الأمة من قبل ثورات الربيع العربي الراهن ردحا من الزمن طويلا وقاسيا وكانت الأولوية يومها كذلك للمقاومة.

ما معنى أسبقية الحرية عن العقيدة

أسبقية الحرية عن العقيدة معناها أن الإسلام ميثاق تعاقدي بين الإنسان وبين الله سبحانه وهو ميثاق تعاقدي حر لا إكراه فيه البتة بل إن الإكراه فيه من مبطلاته حتى لو لم تجد في كتب الفقه المدون أن الإكراه مبطل من مبطلات الإيمان وحسبك أنك لاف ذلك في كتاب الفقه الأول أي القرآن العظيم. أسبقية الحرية عن العقيدة معناها أن ذلك الميثاق التعاقدي الحر بين الإنسان وبين الله تعالى هو عقد ثنائي قد يشهده الإنسان بصفته ضيفا أو شاهدا أو غير ذلك ولكن لم يرد البتة أنه لصحة ذلك العقد لا بد له من شاهد أو شاهدين لا عدلين ولا فاسقين ولم يرد ذلك سوى في عقود دنيوية من مثل عقد النكاح وبعض عقود البيوع والمعاوضات وغير ذلك حفظا لحقوق الناس وليس تعسيرا على الناس أن يتبادلوا المنافع بما يقيم ضرورات حياتهم. تعال نستجلب شواهد على ذلك من الإسلام ذاته سيما من كتابيه الناطقين بإسمه أي القرآن والسنة. ذلك أدعى إلى التمكين لتلك الأسبقية ووضعها فوق طاولة الحوار معززة بأدلتها المطلوبة.

أسبقية الحرية عن العقيدة معناها أن الإسلام ميثاق تعاقدي بين الإنسان وبين الله سبحانه وهو ميثاق تعاقدي حر لا إكراه فيه البتة بل إن الإكراه فيه من مبطلاته حتى لو لم تجد في كتب الفقه المدون أن الإكراه مبطل من مبطلات الإيمان وحسبك أنك لاف ذلك في كتاب الفقه الأول أي القرآن العظيم.

دعنا قبل ذلك نعالج مسألة تلك الأسبقية معالجة عملية. المعالجة العملية معناها هنا هو أن بسط الحرية أمام الناس هو الكفيل بإنجاز أمرين كلاهما أشد حلاوة من الآخر. الأمر الأول هو أن الإسلام وليد شرعي من صلب الحرية دون ريب في ذلك ولا شك. تلك قاعدة من أكبر قواعد الدعوة وتلك حقيقة تاريخية. أما الأمر الثاني فهو أن بسط الحرية أمام الناس يولد مناخا جديدا من الثقة في النفس والعزة والكرامة والصدق بين الناس والتكافل بينهم بما يوحد صفهم حتى وهم مختلفين لا فكريا فحسب أو مذهبيا ولكن دينيا كذلك. ذلك من شأنه أن يحقن المناخ الإجتماعي

العام بحقنات المسؤولية ومن شأنه كذلك أن يبعث على الفعل والإنجاز والمشاركة بدل الإنزواء والتقوقع والتفرغ في الخلاء إما لحبك المؤامرات السرية أو للموت البطيء والإنتحار السريع. فإذا تحقق الأمر الأول من بسط الحرية أمام الناس أي إقبالهم على الإسلام إلتزاما فكريا وتدينا عمليا بتكافل وإجتماع وإشتراك وفقه وفهم ووعي فبها ونعمت وإن لم يحصل ذلك ـ دعنا نبسط فرضية لا مكان لها ـ فإن المجتمع يتعرض لما هو مثل ذلك أثرا إيجابيا أي أنه يتعرض لصناعة جديدة ملؤها الكرامة وحيثما وجدت الكرامة وجد الخير في الناس وبات التعاون منهم على الحق والقوة والمرحمة أمرا واردا في كل آن وأوان. أي أنك لو جنيت الأمر الثاني فحسب من وراء بسط الحرية أمام الناس فإنك كمن لقح بييضة بنطفة من نطف الإيجابية في التفكير بما لا يحتمل سوى تطور تلك النطفة إلى علقة ثم إلى مضغة ثم إلى إنسان سوي حر وليس هناك من خيار بين يدي الإنسان الحر سوى خيار الإسلام. يستوي في ذلك أن تكون المجتمعات التي تبسط فيها الحرية مجتمعات مؤمنة مسلمة أو غير ذلك أو هي مجتمعات رقّ دينها وهي في حاجة إلى تجديدات وتحسينات ونهضات أو حتى مجتمعات بلغت من ذلك مبالغ كبيرة إذ ليس للنهضة سقف يمكن أن ترتدّ عنه.

إن بسط الحرية أمام الناس هو الكفيل بإنجاز أمرين كلاهما أشد حلاوة من الآخر. الأول هو أن الإسلام وليد شرعي من صلب الحرية دون ريب في ذلك ولا شك. والثاني أن بسط الحرية أمام الناس يولد مناخا جديدا من الثقة في النفس والعزة والكرامة والصدق بين الناس والتكافل بينهم بما يوحد صفهم حتى وهم مختلفين.

فما هي الأدلة على أسبقية الحرية على العقيدة

نفي الإكراه

ذلك النفي الذي ثبته الكتاب العزيز الهادي مرات لينقله من درجة النهي إلى درجة النفي وذلك بسبب أن النهي تشغب عليه شاغبات الهوى بما ركب فيها من غرائز هاجعة جائعة فترديه اليوم أو غدا. أما النفي فهي إعدام ذلك الوجود بالكلية حتى لا يتسلل إلى الناس. وصل حد نفي الإكراه

إلى نفيه عن الدين :«لا إكراه في الدين» [3]. ومعلوم أن مناسبة نزولها هو ما قام به بعض الصحابة الكرام ـ عليهم الرضوان جميعا ـ من محاولة إسترداد أبنائهم الذين تنصروا إلى الإسلام. ربما كانوا قد حاولوا ذلك مرات ومرات بالمنهاج الإسلامي الدعوي وقوامه الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ولزوم البصيرة والحجة والبرهان والصبر. فلما أخفقوا همّوا بإستخدام الإكراه فنزلت الآية نافية الإكراه في الدين حتى لو كان ذلك الإكراه كفيلا بالإخراج من الظلمات إلى النور وبالإنقاذ من النار إلى الجنة. بل حتى لو كان ذلك الإكراه من لدن والد حيال ولده لطفا به ورحمة وحبا وودا. حتى عندما يكون الإكراه محفوفا بذينك المستويين فلا يلقى في الإسلام غير النفي المطلق. النفي وليس مجرد النهي. كما نعثر على نص آخر يعاتب محمدا صلى الله عليه وسلم بسؤال إستنكاري :«أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين» [4].كان فؤاده يتقطع في اليوم ألف مرة ومرة بسبب الإعراض من لدن الناس. «فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا» [5]. و في موضع آخر :«فلا تذهب نفسك عليهم حسرات» [6]. ورغم ذلك كله فإن النفي يظل هو هو. راسخا ثابتا لا يلفى له أي مبرر حتى لو كان من لدن محمد نفسه صلى الله عليه وسلم وهو :«بالمؤمنين رؤوف رحيم» [7] بل هو :«رحمة للعالمين» [8]. هو رحمة للعالمين ولكن الرحمة لا تلتقي مع الإكراه البتة. الأصل أن الإكراه

نفي الإكراه الذي ثبته الكتاب العزيز الهادي مرات لينقله من درجة النهي إلى درجة النفي وذلك بسبب أن النهي تشغب عليه شاغبات الهوى بما ركب فيها من غرائز هاجعة جائعة فترديه اليوم أو غدا. أما النفي فهي إعدام ذلك الوجود بالكلية حتى لا يتسلل إلى الناس.

---

[3] سورة البقرة - الآية 256.
[4] سورة يونس - الآية 99.
[5] سورة الكهف - الآية 4 .
[6] سورة فاطر - الآية 8.
[7] سورة التوبة - الآية 128 .
[8] سورة الأنبياء - الآية 107.

الذي ينفى حتى في المعتقد من باب أولى وأحرى أن ينفى فيما دون ذلك أي في حقل العمل. لم يقتصر الإسلام على ذلك الأصل بل نفى الإكراه حتى في العمل فقال :«ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا» [9]. كما لم يرخص حتى للآباء في إنكاح بناتهن إكراها وبمثل ذلك أنشأ العلاقة السياسية بين الدولة وبين الناس على تعاقد سياسي قوامه الرضى مما كان يسمى قديما بيعة. كلمة البيعة نفسها تشي بأن العقد السياسي مقيس على عقد البيع الذي يبطل به تخلف شرط الرضى في البيع.

لا بد من توفر شرط الرضى والحرية والإرادة حتى في العقد الإيماني بين الإنسان وبين ربه الحق سبحانه وإلا بطل العقد. فالإسلام منح الإنسان حرية الإيمان بمثل ما منحه حرية الكفر «وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر».

بناء العقد الإيماني بين الله وبين الإنسان على الحرية

حتى في العقد الإيماني بين الإنسان وبين ربه الحق سبحانه لا بد من توفر شرط الرضى والحرية والإرادة وإلا بطل العقد. وما الدليل. الدليل باهر متألق صحيح صريح في مكة ـ أي والناس مازالوا في حالات إستثنائية جدا من المطاردات والمحاصرات والنفي والقتل والتشريد والتجويع ـ وفي سورة الكهف المكية بالتحديد وذلك عند قوله سبحانه :«وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر» [10].ألم يكن يومها مناسبا أن يكره الناس على الإيمان من لدن ربهم وليس من لدن غيره بسبب تلك الظروف القاسية التي يلاقيها المستضعفون المؤمنون في مكة. ما ضرهم لو أكرهوا مؤقتا فإذا أمنوا نظروا في أمرهم فإن شاؤوا أمضوا العقد الإيماني بينهم وبين خالقهم وإن شاؤوا ألغوه. بمثل ذلك يفكر المتعجلون والمتهافتون والذين لا يدركون طبيعة هذا الدين. دعني أعبّر بلساني أنا وبقلمي أنا دون خوف ولا وجس من أحد من البشر. دعني أسمي الأمور بمسمياتها الحقيقية.

---

[9] سورة النور - الآية 33.

[10] سورة الكهف - الآية 29.

دعني أقول لك أن هذا التعبير : «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر».. ذلك التعبير لا يسميه لساني ولا يصفه قلمي سوى بأن الإسلام منح الإنسان حرية الإيمان بمثل ما منحه حرية الكفر. لا أخجل من ذلك البتة. لا أجد حرجا في قولي : الإسلام منح الإنسان حرية الكفر. أجل. حرية الكفر. أعرف جيدا أن العربي الذي يقرأ ذلك النص قراءة لا تفي سوى للغة العربية ذاتها لا يخرج عن تلك الخلاصة ولكني أعرف جيدا في مقابل ذلك أن جزء كبيرا من التراث أهال على تفكيرنا ترابا كثيفا يجعلنا لا نصرح بمثل ذلك حتى لو كانت اللغة العربية لا تحتمل سواه. وفاء للعادات والتقاليد والأعراف التي كمّمت أفواهنا أن تصرح بأن الإسلام منحنا حرية الإيمان وحرية الكفر سواء بسواء. الذي يمنع الناس من ذلك هو تأثمهم من هذه الكلمة النابية : حرية الكفر. لم؟ لأن حرية الكفر كلمة يستخدمها أعداء الإسلام اليوم. ولقد وقر فينا ـ ظلما وقهرا ورقا ـ أن الكلمة التي يستخدمها عدو الإسلام لا يستحب لنا إستخدامها. لم نكتف بسجنهم هم بل ساعدناهم على سجن أنفسنا في سجن آخر أشد ضيقا. الذي يمنعنا من ذلك هي خلاصة عندي مكينة وقوامها أن المسلمين اليوم ـ أقول كثيرا منهم ولا أقول لا أكثرهم ولا بعضهم فحسب ـ لا يؤمنون بقيمة الحرية في الإسلام إلا وهم بها كافرون. إيماننا بقيمة الحرية في الإسلام اليوم ـ ولأسباب تاريخية معروفة ـ هو إيمان منخول يخترمه الحرج من كل جانب. مثله مثل إيمان الموشك على الردة. ردة عن الحرية وليست ردة عن الإسلام. ذلك هو مبلغ تفكيري : الإسلام يمنحنا حق الإيمان بمثل ما يمنحنا حق الكفر. سوى أنه يحملنا المسؤولية كاملة يوم القيامة لمن يكفر به سبحانه من بعد ما تبيّن له الرشد من الغي أو لمن وصلته الدعوة صافية صحيحة وكان يمتلك الحرية والإرادة لإعلان إيمانه ـ أو حتى ليسرّه ـ فما فعل. لا تكتمل

الإسلام يمنحنا حق الإيمان بمثل ما يمنحنا حق الكفر. سوى أنه يحملنا المسؤولية كاملة يوم القيامة لمن يكفر به سبحانه من بعد ما تبيّن له الرشد من الغي أو لمن وصلته الدعوة صافية صحيحة وكان يمتلك الحرية والإرادة لإعلان إيمانه ـ أو حتى ليسرّه ـ فما فعل

الصورة إلا بالأمرين معا : حرية الكفر مكفولة بالتمام والكمال ولكنها حرية مقيدة بتحمل المسؤولية كاملة كذلك يوم القيامة. يظن الناس أن قولك : الإسلام يمنح الإنسان حرية الكفر .. يصد الناس عن دين الله. الذي أجده فكرا وعملا هو مخالف لذلك بالتمام والكمال.

تعريض الإيمان للمقارنة

معلوم لكل دارس للكتاب العزيز الهادي أنه يعرض علينا الإيمان مقارنا بالكفر وبأضداده بصفة عامة. كأنه يعرض علينا الرأي والرأي الآخر. بل هو يفعل ذلك بالتمام والكمال. مواضع ذلك في الكتاب العزيز الهادي لا تكاد تحصى لكثرتها. دعنا نأخذ منها مثالا واحدا. قال سبحانه:«ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه» [11]. قوله (لا برهان له به) هو جملة إعتراضية. ولكن ما معنى دخول هذه الجملة الإعتراضية هنا. ماذا عليه لو قال لنا :«ومن يدع مع الله إلاها آخر فإنما حسابه عند ربه». هل يتغير المعنى. طبعا لا. هل جاءت هذه الجملة الإعتراضية متسللة دون موجب. طبعا لا. المعنى من ذلك هو واحد لا ثاني له. المعنى من ذلك هو : أنا قدمت إليكم نفسي في هذا الكتاب وذلك من خلال أسمائي وصفاتي وأفعالي وقدراتي وعظمتي ومن خلال دعوتكم إلى التفكر من حولكم في الكون والتاريخ والنفس وغير ذلك. قدمت إليكم نفسي ثم دعوتكم إلى الإيمان بي وشرحت لكم حكم الإيمان ومقاصده ومحامده وغير ذلك. قدمت لكم ذلك ببراهين وحجج لا تدحض. ولكن لأني أريد منكم أن تكونوا مؤمنين حقيقيين لا مقلدين ولا مكرهين ـ حتى من لدني أنا ـ

معلوم لكل دارس للكتاب العزيز الهادي أنه يعرض علينا الإيمان مقارنا بالكفر وبأضداده بصفة عامة. كأنه يعرض علينا الرأي والرأي الآخر. بل هو يفعل ذلك بالتمام والكمال. مواضع ذلك في الكتاب العزيز الهادي لا تكاد تحصى لكثرتها.

[11] سورة المؤمنون - الآية 117.

فإني أدعوكم إلى بناء إيمانكم بي على أسس صلبة متينة أديمها البرهان الساطع وسقفها الحجة البالغة. ولكن إذا تسنى لأي واحد منكم أن يلفى إلها غيري وله عليه برهان لا يدحض فلا مانع عندي. هل يريد سبحانه أن يفتننا من بعد ما هدانا إليه. طبعا لا. ولكنه يريد بناء إيماننا على البرهان الذي هو نقيض التقليد والوقوع في براثن الرق والعبودية والضعف العقلي والسخف الذهني. يريد منا ذلك وإمعانا منه في ذلك ـ إمعانا لا حدود له والله ـ فإنه يقول لنا :«لا برهان له به». كأنما هناك إحتمال لأن يلفى الواحد منا إلها آخر له عليه برهان. هل أن ذلك متاح. طبعا لا. لم؟ لأن البشرية بحثت كثيرا ونقبت طويلا وجربت بأكثر من ذلك وأطول منه فما جنت غير الشوك. ولكن رغم تلك التجربة فإنه سبحانه لا يريد منا سوى أن يؤسس الإيمان فينا على البرهان الساطع اللامع غير المدحوض ولذلك يذهب بنا بعيدا. يذهب بنا بعيدا حيث لا يريد المتفيهقون منا. حيث لا يروق ذلك للذين ينصبون أنفسهم حراسا للعقيدة. غفل هؤلاء عن حقيقة قوامها أن العقيدة لا يحرسها سوى حارس واحد أوحد إسمه : البرهان.

يريد الله سبحانه وتعالى بناء إيماننا على البرهان الذي هو نقيض التقليد والوقوع في براثن الرق والعبودية والضعف العقلي والسخف الذهني. لا يريد منا سوى أن يؤسس الإيمان فينا على البرهان الساطع اللامع غير المدحوض ولذلك يذهب بنا بعيدا

تعريض الإيمان للمساءلة

ذلك واضح جلي في قصتي إبراهيم وموسى عليهما السلام. كلاهما من أولي العزم من الرسل. لم يتردد إبراهيم عليه السلام في إلقاء السؤال على ربه :«رب أرني كيف تحيي الموتى» [12].بمثل ما لم يتردد أحد أحفاده أي موسى عليه السلام من بعده في إلقاء سؤال أقوى من ذلك بكثير. «رب أرني أنظر إليك» [13] . ومن قبل ذلك أطلعنا سبحانه على قصة الإيمان مع خليله

---

[12] سورة البقرة - الآية 260.

[13] سورة الأعراف - الآية 143.

إبراهيم. أنى لرجل مثل هذا يلقي الأسئلة غير المعهودة أن يكون للرحمان خليلا. أتنال الخلة ـ خلة الرحمان وما أدراك ما خلة الرحمان ـ بإلقاء الأسئلة التي نعدها نحن اليوم وقحة وينقصها الأدب في حقه سبحانه. لم الكبر والكذب. ألسنا نعدّ مثل تلك الأسئلة وقاحة لا تصدر عن إنسان بله نبي أو رسول أو من أولي العزم من الرسل. بماذا يجيب المشايخ اليوم والعلماء والفقهاء عندما يسألون عن الله سؤالا أدنى من سؤالي إبراهيم وموسى بألف مرة ومرة. أليسوا يقولون : أستغفر الله العظيم. يرددونها ثلاثا وبصوت عال حتى يسمعها الناس من حولهم فينتبهوا إلى هذا الزنديق المارق الذي تمرد على الإسلام وطرح سؤالا لا يسأله إلا الهراطقة. ليس بوسعي أن ألتزم الهدهدة عندما يتعلق الأمر بالعقيدة التي تسطر لنا خارطة طريق الحياة. ليس بوسعي أن ألتزم ذلك وأمامي نموذجان : نموذج الكتاب العزيز الهادي الذي ينقل إلينا الأسئلة الإبراهيمية والموسوية في سياق التحريض على الإيمان بما يفيد أن تلك الأسئلة كانت مفتاح الإيمان وتجديد الإيمان وترسيخ الإيمان وتفعيل الإيمان في الحياة. ونموذج الناس الذين لا يرحبون بمثل تلك الأسئلة. لا بل بما هو أدنى من ذلك ألف مرة ومرة. ومن يسعه الصمت عن ذلك. لا يسع الصمت عن ذلك غير من لا يبالي. أما أنا فإني أبالي. تعريض الإيمان للمساءلات مهما كانت عميقة وكبيرة وخطيرة لا تزيده إلا تجددا وترسخا وأهلية لخوض معركة الحياة حتى ينتصر فيها. الإيمان عندي مثله مثل بطل رياضي لا يشق له غبار. فإن أنت مكنته من المنافسة فاز وإن أنت أخرته خوفا عليه فلن يفوز بطبيعة الحال. الإيمان عندي رساميل روحية وفكرية ونفسية وعقلية ضخمة جدا فإن أنت إستثمرتها في الأسواق مضاربة ربحت أموالا طائلة وأربحت معك غيرك ثم تضاعفت تلك الرساميل بمرابيحها الوفيرة وإن أنت

تعريض الإيمان للمساءلات مهما كانت عميقة وكبيرة وخطيرة لا تزيده إلا تجددا وترسخا وأهلية لخوض معركة الحياة حتى ينتصر فيها. ذلك واضح جلي في قصتي إبراهيم وموسى عليهما السلام. كلاهما من أولي العزم من الرسل.

أخرتها خوفا من الخسارة فلن يزيدك تأخيرها إلا فقرا على فقر ووهنا على وهن.

إزالة حواجز الخوف لتأمين الحرية

ظهر ذلك جليا في حادثة الحديبية وذلك عندما قبل محمد صلى الله عليه وسلم بتوقيع معاهدة سياسية بينه وبين قريش تنازل فيها عن (بسم الله الرحمان الرحيم) لكتابة (بإسمك اللهم) وتنازل فيها عن (بين محمد رسول الله) لكتابة (محمد إبن عبد الله). حتى ثارت ثائرة الصحابة الكرام ـ بل ثارت ثائرة أحد قوادهم المشهود له بالحصافة والإربة أي الفاروق عمر ـ وقالوا : أنعطى الدنيّة في ديننا. وذلك بسبب شروط «مجحفة» في المعاهدة تقضي بأن من يرتد عن دين محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيأتي إلى قريش طائعا فليس للإسلام أن يسترده وليس لقريش إلا أن تحتضنه وفي مقابل ذلك فإن من يأتي محمدا ـ عليه الصلاة والسلام ـ مسلما من قريش عليه أن يرده إليهم مكرها ولقريش أن تعيد إحتضانه. إعادة إحتضانه معناها : تأديبه بما يلزم حتى يرتد من بعد إيمان وهجرة. عجب عجاب. أنى له أن يوقع مثل هذه المعاهدة الظالمة الجائرة. الناظرون فيها بعجلة وطيش وحدة لا يجنون شيئا فيسرعون إلى الإتهام والتجييش. أما الذين يحسنون قراءة التوازنات الدولية فإنهم يدركون أن الزمن هو زمن الصحوة الإسلامية وأن أعداء تلك الصحوة في إندحار وأن أرصدتهم في هبوط ولذا فإن خير سبيل لتأمين الإسلام والمسلمين هو إشاعة مناخات الحرية دون حدود بمثل ما فعل عليه الصلاة والسلام في هذه المعاهدة. وذلك الذي حصل بالتمام والكمال إذ كان أجل المعاهدة عقدا كاملا فما عمّرت سوى عاما واحدا حتى تسارعت الموازين الدولية تدك أركان الخوف الذي كانت بالأمس تبثه قريش ولم يكن يحجز الناس عن الإسلام سوى

الذين يحسنون قراءة التوازنات الدولية يدركون أن الزمن هو زمن الصحوة الإسلامية وأن أعداء تلك الصحوة في إندحار وأن أرصدتهم في هبوط ولذا فإن خير سبيل لتأمين الإسلام والمسلمين هو إشاعة مناخات الحرية دون حدود بمثل ما فعل عليه الصلاة والسلام في معاهدة الحديبية.

حواجز الخوف تلك فما إن إنداحت بسبب المعاهدة حتى دخل الناس في دين الله أفواجا وأمكن فتح مكة. كانوا في السنوات الثلاث الأولى في مكة أربعين فلما هاجروا كانوا بضع عشرات أخرى. ولما جاءت الحديبية من بعد ذلك بعقدين كاملين كانوا ألفا وخمسمائة نفر. ولما مات ـ عليه الصلاة والسلام ـ من بعد ذلك بزهاء عامين فحسب كانوا 124 ألفا. ألا تنظر معي إلى الفارق العددي الكبير. من زهاء ألفين حتى 124 ألفا في غضون عامين فحسب. هل تقدم إليهم إسلام جديد لم يكونوا يعرفونه. هل جاءهم به رجل جديد لم يكونوا يعرفونه. لا هذا ولا ذاك. ولكن جاءتهم الحرية التي أولاها عليه الصلاة والسلام المقدمة العظمى في عمله فأعلنوا إسلامهم وربما كان كثير منهم من قبل ذلك مسلما لا يجرؤ على إعلان إسلامه خوفا من البطش القرشي. كل ذلك مدين لقيمة واحدة إسمها الحرية. فما بالنا نكفر اليوم بالحرية وهي حمّالة الإسلام. ذلك سؤال يحيّرني. لا بل يطعنني بأسياف نجلاوات حداد.

كان أجل معاهدة الحديبية عقدا كاملا فما عمّرت سوى عاما واحدا حتى تسارعت الموازين الدولية تدك أركان الخوف الذي كانت بالأمس تبثه قريش ولم يكن يحجز الناس عن الإسلام سوى حواجز الخوف تلك فما إن إنداحت بسبب المعاهدة حتى دخل الناس في دين الله أفواجا وأمكن فتح مكة.

دليل من القصة القرآنية :

رسالة موسى عليه السلام رسالة تحريرية بالأساس.

لم يحفل الكتاب العزيز الهادي بشيء حفله بالقصة التي ناهزت ثلثه والثلث كثير كما أخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم. وليست أطول قصة فيه ـ طولا يكاد يبتلع المجال القصصي فيه بأسره ـ سوى قصة بني إسرائيل في مختلف مشاهدها الكثيرة. تارة مع موسى عليه السلام وتارة مع فرعون (وهذا هو أكثر المشاهد ورودا) وغير ذلك. الذي يهمنا هنا هو أن القصة القرآنية (هكذا أسميها بالإستغراق لأنها أطول قصة) بينت لنا أن موسى عليه السلام لم يرسل إلى بني إسرائيل إلا مخلصا لهم من

فرعون إبتداء. أي أنه لم يباشرهم بالحديث عن الدين والدعوة ولكن كانت رسالته من يوم بعثته حتى الخروج بهم من البحر الأحمر إلى سيناء هي رسالة التحرير فحسب. ولنظل صديقين حتى نهاية هذه القالة على الأقل لا تقل لي : ذاك شرع من قبلنا. شرع من قبلنا قد يتغير عندما يتعلق الأمر بالأحكام العملية أما القيم العظمى التي تأسست عليها رسالة الإسلام ـ الذي هو دين الأنبياء جميعا ـ فلا تنسخ ولا تتبدل ومنها هنا ـ كما سنرى ـ أسبقية التحرير على التعبيد.

إن عنوان رسالة الإسلام هو عنوان التحرير وأن التحرير أسبق من التعبيد. لذلك سعى موسى عليه السلام إلى تحرير بني إسرائيل من البطش الفرعوني فلما تخلصوا من ذلك دعاهم إلى الإيمان فآمن منهم من آمن وكفر منهم من كفر. ولم يكن لمعنى الدعوة إلى الإيمان أي معنى مع عبيد مستعبدين لا يملكون شيئا لأنفسهم.

نورد مثالا واحدا من القصة القرآنية لئلا نتوسع في الموضوع الذي ليس هو أمّ هذه المعالجة. قال تعالى في سورة الأعراف على لسان فرعون وملإه: «لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل» [14]. وبالإطلاع على مواضع أخرى يتأكد الباحث أن مطلب موسى عليه السلام هو : إرسال بني إسرائيل وتخليصهم من العذاب وليس غير ذلك. ومن أقوى الأدلة على أن الرسالة لم تكن رسالة هداية بالأساس لما كانوا تحت نير الإستعباد الفرعوني هو أنهم طلبوا منه مطالب وثنية شركية :«قالوا يا موسى إجعل لنا إلها كما لهم آلهة» [15] .وفضلا عن ذلك فإنهم إتخذوا العجل معبودا. فما تفرغ عليه السلام لهدايتهم إلا من بعد تخليصهم من فرعون بإذنه سبحانه وعندما دخلوا سيناء آمنين بدأ معهم مشروعه الدعوي.

وبذلك يتحصل لنا أن عنوان رسالة الإسلام هو عنوان التحرير وأن التحرير أسبق من التعبيد. لذلك سعى موسى عليه السلام إلى تحرير بني

---

[14] سورة الأعراف - الآية 134.

[15] سورة الأعراف - الآية 138.

إسرائيل من البطش الفرعوني فلما تخلصوا من ذلك دعاهم إلى الإيمان فآمن منهم من آمن وكفر منهم من كفر. ولم يكن لمعنى الدعوة إلى الإيمان أي معنى مع عبيد مستعبدين لا يملكون شيئا لأنفسهم.

أسبقية الحرية على العقيدة
حقله المجتمع والحوار

أسبقية الحرية على العقيدة حقولها عملية بالأساس الأول. تلك أسبقية معناها أن المؤمن يتصرف بين الناس مقدما النموذج الحي الدال على أن العقيدة مرتبطة بالحرية أشد الإرتباط. تلك أسبقية معناها أن يكون الحديث مع الناس لونه لون الحرية. الناس الذين يحيطون بك يعرفون ذلك منك لأول وهلة. مخطئ من يظن أن الناس ينتظرون الرجل حتى يتكلم فإن تكلم صنفوه. الناس أذكى من ذلك وهم يصنفون كل واحد منا في قدره المعد له وذلك من بعد مراقبة حركاته و سكناته وتصرفاته لأيام معدودات بل ربما لما هو أدنى من ذلك. شاهدت ذات يوم داعية مشهورا في فضائية خليجية يروي للناس حكاية رجل ـ في الهند على ما أظن ـ يسأل عن حكم الإسلام في مسألة ما وهو مخمور. يروي ذلك الداعية الشهير للناس المشهد وهو ممتلئ إستهزاء من ذلك الرجل الهندي المخمور كيف أنه يهتم بالإسلام وهو مخمور. إمتلأت فضائياتنا بمثل أولئك إمتلاء ما بعده من إمتلاء. أولئك حقهم أن يسجلوا أنفسهم في معاهد التنمية البشرية. أجل. والله. لا أقول ذلك لا هزؤا بهم ولا سخرية. أولئك ينقصهم ذلك الفن نقصا رهيبا فاحشا. لا يكفي أن تكون عالما أو حتى فقيها مبرزا علامة لا يشق لك غبار. تلك بضاعة حملت منها الذي حملت. ولكن هل تعلمت المنهاج الكفيل بتسويق تلك البضاعة. أنت تحتاج إما إلى تعلم فنون التسويق أو تحتاج إلى من يسوق لك علمك. هما جهازان لا بد لك منهما:

أسبقية الحرية على العقيدة حقولها عملية بالأساس الأول. تلك أسبقية معناها أن المؤمن يتصرف بين الناس مقدما النموذج الحي الدال على أن العقيدة مرتبطة بالحرية أشد الإرتباط. تلك أسبقية معناها أن يكون الحديث مع الناس لونه لون الحرية.

جهاز العلم وجهاز نقل العلم. أنى للمعلم إذن أن ينقل العلم إلى الطفل الصغير لو لم ينهل من معارف البيداغوجيا. دعاة اليوم ـ إلا قليلا جدا ـ بحاجة إلى علوم البيداغوجيا. كثير منهم لا يرون من الكوب إلا نصفه الفارغ. والشأن ذاته في أكثر حواراتنا. لا تلفى المسلم يحاور إلا وهو خصيم لمحاوره. خصيمه لسانا وطبقة صوتية. هل تظن أن ذلك الرجل المخصوم سينفتح قلبه للإيمان يوما. لا في الأغلب الأعم ولكن القلوب بيده وحده سبحانه يقلبها كيف يشاء. نحن صنيعة أحداث صغيرة وكبيرة وذكريات وغير ذلك. لا يمكن للمرء أن يتخلص من إرثه الماضي بيسر وسهولة. كثير من الشباب حديث التدين اليوم يقلع عن الإتجار بالمخدرات ضحى ليصبح داعية مغوار تتلقفه الفضائيات بالعشي. أنى لمثل هذا أن يضارع رجالا مردوا على الجدالات الفكرية مردا عجيبا وعلى إمتداد عقود حتى أصبح لهم ذلك حرفة محترفة بل ربما ما نسميه باللغة الأجنبية (بزنس). أسبقية الحرية على العقيدة معناها بكلمة واحدة لا معقب عليها : إذا لم يكن محمد عليه الصلاة والسلام على الناس وكيلا ولا مسيطرا وهو من هو ولكن كان مبلغا عن ربه سبحانه بقول لين وتواضع ورفق ووسطية ويسر فأنى لك أنت أن تكون وكيلا على الناس كأنك قسّ يعرض صكوك النجاة بسرعة وغلظة فمن أجابه إقتطع له صكا من صكوك الجنة ومن لم يجبه إقتطع له صكا من صكوك النار.

إذا لم يكن محمد عليه الصلاة والسلام على الناس وكيلا ولا مسيطرا وهو من هو ولكن كان مبلغا عن ربه سبحانه بقول لين وتواضع ورفق ووسطية ويسر فأنى لك أنت أن تكون وكيلا على الناس كأنك قسّ يعرض صكوك النجاة بسرعة وغلظة.

ونحن نودع الجزء الأول من هذه القالة لنا أن نسأل سؤالا واحدا. ما الذي جعل محمدا ـ عليه الصلاة والسلام ـ يخرج من بيته مهاجرا إلى المدينة وعيناه تذرفان دمعا سخيا هو دمع الفراق وهل هناك أشد لوعة من الإخراج من الأوطان إكراها. لا تجب على هذا السؤال حتى تسأل المهجرين من ديارهم قهرا وجورا. لا أظن أن عاقلا واحدا فوق الأرض يتنكب هذه

الإجابة : ما حمله على الخروج سوى البحث عن الحرية الكفيلة بتأمين العبادة للمسلمين و بإستقطاب مسلمين جددا. وما الذي حمل الصحابة من قبل ذلك على الهجرة إلى الحبشة مرتين. السبب ذاته. الحرية مناط التكليف حقا. الحرية والإسلام صنوان شقيقان لا حياة لأحدهما بفراق الآخر.

أسبقية العدالة على الشريعة

أسبقية العدالة على الشريعة معناها أنه لا سبيل إلى تطبيق الشريعة الجنائية العقابية الجزائية في المجتمع الإسلامي إلا بعد توفر شرطين لا بد منهما : الشرط الأول هو الذي تكفل به الجزء الأول من هذه المعالجة أي لا بد من حصول تعاقد حر بين الله وبين عباده يكون بمقتضاه الإنسان عبدا لمعبود عبودية رضى وإختيار لا إكراه فيها إذ «لا إكراه في الدين». والشرط الثاني هو نفاذ الشريعة السياسية والإجتماعية والإقتصادية في ذلك المجتمع.

أسبقية العدالة على الشريعة معناها أنه لا سبيل إلى تطبيق الشريعة الجنائية العقابية الجزائية في المجتمع إلا بعد توفر شرطين: الأول حصول تعاقد حر بين الله وبين عباده يكون بمقتضاه الإنسان عبدا لمعبود عبودية رضى وإختيار لا إكراه فيها. والشرط الثاني هو نفاذ الشريعة السياسية والإجتماعية والإقتصادية في ذلك المجتمع

فما هي الشريعة إبتداء

الشريعة هي القانون إن شئت قلت بتعبيرنا المعاصر. يعبر بالشريعة أحيانا على الإسلام كله وخاصة في القرآن المكي :«ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا» [16].وكذلك قوله : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا»[17]. وغير ذلك. فلمّا استقر الإسلام في الأمة وآل الأمر إلى تدوين العلوم الإسلامية ـ سيما الشرعية منها ـ في الدولة العباسية وما بعدها تطورت بعض

[16] سورة الجاثية - الآية 18.

[17] سورة المائدة - الآية 48.

المصطلحات لتكتسب دلالات جديدة ومن ذلك مفردة العقيدة نفسها بمثل ما عالجنا آنفا إذ العقيدة كلمة مستحدثة في الإسلام لم يأت بها لا قرآن ولا حديث ولا إستخدمها الصحابة حتى في الخلافة الراشدة ولكن نشأت أثرا من آثار علم الكلام في العهد العباسي وإستقبلتها الأمة بالترحيب حتى يوم الناس هذا. ومن ذلك كذلك كلمة الشريعة التي لم تعد تعني الإسلام كله ولكنها أصبحت تعني الجانب العملي منه وليس الجانب العملي كله ولكن تعني جانب المعاملة فيه ثم إزدادت إنحسارا فلم تعد تعني سوى الجانب الجنائي العقابي الجزائي. المشكلة ليس في إنحسار الدلالات بسبب أن اللغة كائن متطور حتى وهو يتوفر على مساحة متينة من الثبات ولكن المشكلة هي في إبتلاع ذلك الإنحسار للجماع أي يهيمن اللفظ الجديد ليبتلع المعنى الأساسي الأول ويحتكره وهذه العملية عند حصولها لا تسمى تطورا ولكن تسمى إنقلابا. ذلك هو الذي حدث لكلمة الشريعة أو شيئا قريبا من ذلك جدا.

أما من حيث الأصل فلا حرج أن تقول أن الإسلام شريعة عقدية وشريعة تعبدية وشريعة أخلاقية وشريعة معاملات وهذه بدورها تنقسم إلى شريعة سياسية وشريعة إجتماعية وشريعة إقتصادية وشريعة إدارية وشريعة داخلية وشريعة خارجية وغير ذلك مما لا يحصى. ولا حرج أن تقول أن الإسلام عقيدة وعبادة وشريعة. الحرج كله هو أن تعتقد أن الشريعة مختزلة في الجانب الجزائي العقابي الجنائي فحسب وما عدا ذلك فلا وجود له أو لا حكم له أو هو مؤخر في الإهتمام.

لا حرج أن تقول أن الإسلام شريعة عقدية وشريعة تعبدية وشريعة أخلاقية وشريعة معاملات. ولا حرج أن تقول أن الإسلام عقيدة وعبادة وشريعة. الحرج كله هو أن تعتقد أن الشريعة مختزلة في الجانب الجزائي العقابي الجنائي فحسب وما عدا ذلك فلا وجود له أو لا حكم له أو هو مؤخر في الإهتمام.

ترتيب مختلف حقول الشريعة

الحقل العقدي.

هذا لم تعد لنا به الآن حاجة بسبب ما أنف الذكر فيه ويظل هو الحقل المقدم في الإسلام نظرية وتطبيقا دون ريب. إذ لا معنى لشريعة عملية غير مسبوقة بتعاقد إيماني بين الله وبين عبده.

الحقل التعبدي المحض

هذا الحقل يلي الحقل العقدي مباشرة والدليل على ذلك هو أن الفريضة التعبدية ـ وليس غير التعبدية كما سنرى من بعد ذلك بقليل بإذنه سبحانه ـ هي أول فريضة تنزلت وذلك من خلال الصلاة التي لازمت المسلمين حتى وهم مطاردون في مكة مثنى مثنى وفي آخر العهد المكي تنزلت على صورتها الأخيرة. السر في ذلك هو أن الشريعة التعبدية ـ الصلاة مثالا والصيام ـ يمكن تنفيذها حتى في حالات العسر والمحاصرة ولو بشيء من الحرج والعنت والمشقة من جهة ومن جهة أخرى فإن ذلك يبرز الحاجة المتأكدة لتلك الشريعة ـ ومبناها التزكية الروحية ـ التي لا بد من توثيقها لمواصلة البناء عليها. أما الشريعة السياسية والإجتماعية الوحيدة التي سبقت زمانها ومكانها وخالفت القاعدة فهي شريعة الإجتماع والوحدة والإعتصام من لدن المسلمين حتى وهم يسامون الخسف في مكة وذلك من خلال الإجتماع الدوري الذي يلتقون فيه محمدا عليه الصلاة والسلام في دار الأرقم. ذلك يدلنا على أن أم الشريعة السياسية والإجتماعية هو الإجتماع والوحدة والإعتصام فإذا حصل ذلك ترتب ما بعده بيسر وسهولة.

يمكن تنفيذ الشريعة التعبدية ـ الصلاة مثالا والصيام ـ حتى في حالات العسر والمحاصرة ولو بشيء من الحرج والعنت والمشقة من جهة ومن جهة أخرى فإن ذلك يبرز الحاجة المتأكدة لتلك الشريعة ـ ومبناها التزكية الروحية ـ التي لا بد من توثيقها لمواصلة البناء عليه.

الحقل السياسي

أجل. الحقل السياسي هو الحقل الذي يلي الحقلين العقدي والتعبدي المحض مباشرة. الشريعة السياسية في الإسلام مخها الحرية. تلك هي الحرية التي تأسس عليها الحقل العقدي ذاته. ولكنهما حريتان : حرية تأسس عليها الحقل العقدي في مكة بسبب أن العقيدة تعاقد حر بين الله وبين الإنسان وهي حرية كان لا بد من إنفاذها حتى في مكة حيث الملاحقات والتعذيب والتشريد. وحرية يتأسس عليها الحقل السياسي العام من بعد ذلك في المدينة بسبب أن السياسة هي تعاقد حر بين الأمة وبين من يخدمها سوى أنه في حالة المدينة لا يسمى حاكم الأمة خادما لأنه محمد عليه الصلاة والسلام فهو الرسول النبي الأمي الهادي ولكن النظرية الإسلامية السياسية قوامها بيعة تراض حرة بين الأمة وبين من تختار لخدمتها بأجر محدد. الإنسان إذا حر حيال خالقه وهو حر من باب أولى وأحرى حيال حاكمه. من أقوى الأدلة على أن الحقل السياسي تلك هي مرتبته المتقدمة هو أن أول ثلاثة أعمال بادر بها عليه الصلاة والسلام من بعد ظفره بالحرية في المدينة مباشرة هي : بناء المسجد الذي يؤمن الحرية العقدية والتعبدية وعقد التآخي بين المهاجرين والأنصار ـ أي بين الفقراء والأغنياء أو بين الأغراب وبين أهل الدار ـ الذي يؤمن الحرية الإجتماعية والعقد الدستوري السياسي المكتوب بين مختلف الطوائف المتعددة دينيا وعرقيا وهو العقد الذي يؤمن الحرية السياسية. كانت المبادرة إلى التنظم السياسي سابقة تطبيقا للشريعة الإسلامية التي هي ليست سوى الحرية.

أما الحقول الأخرى (الإقتصادية والإدارية والخارجية وغير ذلك) فهي ثمرة من ثمرات ذلك التنظم السياسي إذ عندما تسطر الجماعة دستورها

أول ثلاثة أعمال بادر بها عليه الصلاة والسلام من بعد ظفره بالحرية في المدينة مباشرة هي: بناء المسجد الذي يؤمن الحرية العقدية والتعبدية وعقد التآخي بين المهاجرين والأنصار ـ أي بين الفقراء والأغنياء ـ الذي يؤمن الحرية الإجتماعية والعقد الدستوري السياسي المكتوب بين مختلف الطوائف المتعددة دينيا وعرقيا وهو العقد الذي يؤمن الحرية السياسية.

السياسي على أساس الحرية المسؤولة التي تضمن الحريات الفردية والجماعية داخليا بما يخدم الوحدة الوطنية ويعمق التكافل والتضامن.. عندما يقع ذلك تجد الحقول الأخرى بطبيعة الحال طريقها إلى النفاذ بسبب إنديا ح الحرية المسؤولة المنضبطة.

الحقل الجنائي الجزائي العقابي

هذا هو الحقل الأخير من حقول الشريعة الإسلامية بمعناها الواسع. الدليل على تأخره هو تنزله مؤخرا في القرآن الكريم من جهة ومن جهة أخرى تطبيقه مؤخرا كذلك وتبعا لذلك. الأمر هنا مفهوم جدا وقوامه أن تطبيق الشريعة الجنائية الجزائية العقابية لا معنى له إذا لم يسبق بتطبيق الشريعة السياسية أي بنفاذ الحرية والأمر شبيه جدا بعدم معنوية العقيدة عندما يكون مبناها الإكراه. قاعدة : «لا إكراه في الدين» تقابلها قاعدة : لا تقام الحدود في المجاعات وفي الحروب وفي الأوضاع الإستثنائية الإنتقالية المرحلية بصفة عامة. ذلك هو الأمر الذي قيض له الفاروق عمر عليه الرضوان. ذلك العقل النابغ الذكي الذي نصر الله به الإسلام. ذلك المجتهد الكبير المطلق الذي رسخ في التاريخ أن الشريعة متأخرة عن العدالة. رسخ ذلك عمليا لا قوليا. أمثلة ذلك الترسيخ عديدة منها : عدم تطبيقه حد السرقة عام الرمادة أي عام المجاعة في العراق وعدم إعتباره لمصرف المؤلفة قلوبهم من بعد ظهور الإسلام وغير ذلك مما هو معروف. لم يفعل ذلك إجتهادا فرديا منه ولكنه إجماع الصحابة الكرام عليهم الرضوان. الحكمة من ذلك ظاهرة جلية وقوامها أن الجائع الذي يسرق لا يطبق عليه حد السرقة لأن العقاب في الفلسفة الإسلامية تأديب لموسر أو مستور ـ في أي حقل ـ تجاوز حده وطغى وألحق الضر بالناس وبنفسه

الحقل الجنائي الجزائي العقابي هو الحقل الأخير من حقول الشريعة الإسلامية بمعناها الواسع ذلك أن تطبيق الشريعة الجنائية الجزائية العقابية لا معنى له إذا لم يسبق بتطبيق الشريعة السياسية أي بنفاذ الحرية والأمر شبيه جدا بعدم معنوية العقيدة عندما يكون مبناها الإكراه.

أو بالقيم التي تأسس عليها المجتمع. وليس هو إنتقام من مضطر أو محتاج. الشريعة الجنائية الجزائية العقابية في الإسلام فلسفتها حماية حقوق الإنسان حقوقا مادية وحقوقا معنوية.

العدالة سابقة على الشريعة كلها

ليست العدالة سابقة على الشريعة الإجتماعية العقابية فحسب ولكن العدالة سابقة على الشريعة السياسية ذاتها. العدالة السياسية مخها الحرية فلا بد من أن تأخذ الحرية حظها كاملا ـ وخاصة في الفترات الإنتقالية الصعبة ـ ومن بعد ذلك تسن القوانين التي تسطر التخوم وتحمل المسؤوليات ومن بعد ذلك يقع تنفيذها. مثل ذلك هو مثل الإنذار الذي لا بد له أن يسبق التنفيذ. ألم يمهلنا سبحانه فأنذرنا قبل أن يحيق بنا عذابه أجارنا الله من أليم عذابه. وبمثل ذلك فإن العدالة الإجتماعية والإقتصادية سابقة عن تنفيذ القانون تماما بمثل ما كانت الشريعة العقدية التي مخها الحرية سابقة عن المؤاخذة بسبب العقيدة أي من لدن الله سبحانه يوم القيامة. تلك هي فلسفة الإسلام في التعامل مع الإنسان : إنذار واضح جلي مبين وبسط للحرية بسطا صحيحا منداحا لا بسطا إنتقائيا ومن بعد ذلك ينفذ القانون الدنيوي في الدنيا ويؤجل تنفيذ القانون الأخروي إلى الآخرة.

ليست العدالة سابقة على الشريعة الإجتماعية العقابية فحسب ولكن العدالة سابقة على الشريعة السياسية ذاتها. العدالة السياسية مخها الحرية فلا بد من أن تأخذ الحرية حظها كاملا ـ وخاصة في الفترات الإنتقالية الصعبة ـ ومن بعد ذلك تسن القوانين التي تسطر التخوم وتحمل المسؤوليات ومن بعد ذلك يقع تنفيذها.

خذ إليك مسألة الخمار مثلا. الخمار ـ وليس الحجاب الخاص بنساء النبي عليه الصلاة والسلام ولا النقاب الذي هو لا بدعة ولا سنة ولكنه مباح مقيد ـ لم يفرض سوى في سنوات متأخرة من الهجرة. لم كان ذلك كذلك. لأن الأمر مؤخر في الترتيب التشريعي وفق الفلسفة الإسلامية. تسبقه العقيدة وتسبقه العبادة ويسبقه الخلق وتسبقه الشريعة السياسية والإجتماعية فإذا تم الفراغ من كل ذلك أمكن للشارع الحد من

تلك الحرية أي حرية الكشف عن بعض مواطن الجسد بالنسبة للمرأة. الحكمة التشريعية في ذلك هي أن كل مباح لا يقيد إلا جزئيا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن تقييده يكون متأخرا لأسباب لا نعالجها هنا لخروجها عن غرضنا. الشريعة حذرة جدا عندما يتعلق الأمر بتقييد المباحات أو بالحد من الحريات ولا يكون الحد من الحريات في الشريعة الإسلامية إلا لمراعاة حريات جماعية أخرى لإنشاء التوازن بين مستويي الحريات الفردية والجماعية أو لإنشاء التوازن بين الدنيا وبين الآخرة وهذا هو الملحظ الذي يهمله اليوم أكثر المتحدثين الذين لا يبرزون المعطى الأخروي في القضية ـ قضية الخمار مثلا ـ أي الذين يناقشون المسألة بمعطياتها الدنيوية فحسب فلا يتطرقون إلى ما يسميه الفقهاء : القضاء الدياني.

أن كل مباح لا يقيد إلا جزئيا ويكون تقييده متأخرا. الشريعة حذرة جدا عندما يتعلق الأمر بتقييد المباحات أو بالحد من الحريات ولا يكون الحد من الحريات في الشريعة الإسلامية إلا لمراعاة حريات جماعية أخرى لإنشاء التوازن بين مستويي الحريات الفردية والجماعية أو لإنشاء التوازن بين الدنيا وبين الآخرة.

خلاصتان في الموضوع

الخلاصة الأولى

أسبقيات الحرية على العقيدة والعدالة على الشريعة حكم يستقرؤها الناظر في فلسفة الشريعة الإسلامية وليست بدعا يبتدعها المفكرون اليوم. وهي أسبقيات جاءت بها النصوص والأدلة الجزئية والكلية بمثل ما جاءت بها التطبيقات النبوية والراشدية. هي أمور يعقلها الإنسان ولا تحتاج حتى إلى أدلة نقلية. هي أسبقيات لتنفيذ كرامة الإنسان ذلك المقصد الإسلامي العظيم المقدم. هي أسبقيات وليست إلغائيات كما يريد أن يفهم ذلك كثير من الشباب حديث التدين. هي أسبقيات تحقق وسطية الإسلام بين فريق يريد إلغاء الجانب التشريعي من الإسلام جملة بما فيه الجانب الجزائي العقابي الجنائي متجاهلين أن الأنظمة « الحداثية» التي يقلدونها تقليد الببغاوات لا تقوم سوى على تشريعات عقابية جزائية جنائية ولا

يصلح الناس فوضى لا سراة لهم .. وبين فريق يريد تكديس الإسلام في سلة واحدة تكديسا فوضويا فلا يميز بين عقيدة وبين شريعة ولا بين حرية ولا بين مسؤولية. كلاهما مشط مغال وعلى جنف.

الخلاصة الثانية

تلك أسبقيات راسخة ثابتة حتى في الأوضاع العادية فإذا شابت حياتنا مراحل إستثنائية إنتقالية ألنا إلى ما سمته الشريعة مرحلة الضرورات والحاجات والطارئات وهي مرحلة لها أحكامها الخاصة. لا بد لنا من فقه إنتقالي يكون مرحلة عبور بين العقيدة وبين الشريعة بمثل ما كان ذلك بالتمام والكمال حتى في العهد النبوي ذاته. لا بد لنا من مراعاة المرحلة الإنتقالية من بعد ثورات الربيع العربي من تونس حتى سوريا مراعاة تجعلنا نفقه مرحلتنا وطبيعتها فلا نحمل أنفسنا ما لا نطيق لأن ذلك يؤول بنا إلى رفض الإسلام جملة وتفصيلا كما قال الخليفة الراشد الخامس لإبنه المتعجل : «أخشى أن أحمل الناس على الحق جملة فيدعونه جملة». الإنسان ليس قطعة من حديد أو من خشب يستلط عليها نجار أو حداد فيحيلها مائدة منضودة أو فأسا مدمرا. الإنسان كائن مكرم مستأمن مستخلف معلم مبتلى ومسؤول وهو كائن متعدد الأبعاد. الإنسان هو القيوم على العقيدة بسبب ما كرم به من حرية وعقل. مبنى التشريع هو التدرج من طور إلى طور. ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها ولا يكلف الله حكومة إلا وسعها كذلك. العقيدة مسؤولية الإنسان وليس الدولة والشريعة كذلك مسؤولية المجتمع وليس الدولة. إلا الدولة البلشفية التي تؤز الناس بـ «البرافدا» أزا.

أسبقيات الحرية على العقيدة والعدالة على الشريعة حكم يستقرؤها الناظر في فلسفة الشريعة الإسلامية وليست بدعا يبتدعها المفكرون اليوم. وهي أسبقيات جاءت بها النصوص والأدلة الجزئية والكلية بمثل ما جاءت بها التطبيقات النبوية والراشدية.

ويتأسس عن ذلك كله أنه علينا أن نوطئ الأكناف لتنفيذ الشريعة السياسية في الإسلام وهي الحرية والكرامة والعدالة والوحدة والتنوع ومن

بعد ذلك يمكن لنا ـ أي للمجتمع ـ أن ينفذ الشريعة الجنائية الجزائية العقابية عندما يحل محلها. أما المطالبة بذلك قبل ذلك فهو إما غرور للمزايدات الفارغة أو هو طيش وحمق وجهل.

لذلك كله فإن الحرية أسبق من العقيدة والعدالة أسبق من الشريعة والإنسان أسبق من التعذيب والإنتقام فإذا كان ذلك بإسم الله كان الجرم مضاعفا ولن يكون جزاؤه يوم الدين إلا مضاعفا كذلك.

والله أعلم

لا بد لنا من فقه إنتقالي يكون مرحلة عبور بين العقيدة وبين الشريعة بمثل ما كان ذلك بالتمام والكمال حتى في العهد النبوي ذاته. لا بد لنا من مراعاة المرحلة الإنتقالية من بعد ثورات الربيع العربي من تونس حتى سوريا مراعاة تجعلنا نفقه مرحلتنا وطبيعتها فلا نحمل أنفسنا ما لا نطيق.

خطابنا الديني في عصر الثورة[1]

[1] صدر هذا المقال بمجلّة «الإصلاح» العدد 24 - 22 فيفري 2013

لم تخل حضارة قطّ من ثقافة دينية بحسب المعطيات الإنتروبولوجية الصحيحة [2] في حين خلت حضارات كثيرة من ثقافات أخرى غير دينية. لا علاقة لتلك المعطيات التي أثمرتها الحفريات والبحوث بصحة الثقافة الدينية تصورا أو مسلكا ولا بتهافتها. ألا ترى أن مشركي قريش أنفسهم كانوا يؤسسون لمشروعية ثقافتهم الدينية من خلال إدعائهم إقتفاء الأثر الإبراهيمي وبمثلهم كان بنو إسرائيل. حتى في زماننا حيث غيرت الثورات التكنولوجية وجه الأرض ينصرف الناس إلى التدين ليعبدوا بقرة بكماء عجماء إذا لم يجدوا ما يعبدون. الدين إذن حاجة فطرية ونهم جبلّي وتلك هي المنسأة الأولى التي إعتمد عليها الإسلام في دعوته الناس إلى التفكر والتدبر والتأمل في ملكوت السموات والأرض أي في الكتاب المنظور الكفيل بتحرير التوحيد الإلهي من التعددية الوثنية والإنغلاق الصنمي.

الدين حاجة فطرية ونهم جبلّي وتلك هي المنسأة الأولى التي إعتمد عليها الإسلام في دعوته الناس إلى التفكر والتدبر والتأمل في ملكوت السموات والأرض أي في الكتاب المنظور الكفيل بتحرير التوحيد الإلهي من التعددية الوثنية والإنغلاق الصنمي.

ما هو الخطاب الديني الإسلامي.

الخطاب الديني ـ في كل دين ـ هو مجموعة المنطوقات والمقولات التي يتوسل بها صاحب الدين إلى الإنسان بغرض هدايته. ذلك هو الخطاب الديني في أصله المنيع ولا ينفك عنه ما يحدثه الإنسان من تفسيرات لتلك

---

[2] الأنتروبولوجيا : دراسة الإنسان أو علم الإنسان.

المنطوقات وتأويلات وتشريحات وتحقيقات وترجمات وغير ذلك حتى يتوسع الخطاب الديني ليجمع إليه كل خطاب ينطلق منه أو يرجع إليه لخدمة أي غرض من الأغراض الدينية وأهمها : التزكية والتعليم والدعوة. الخطاب هو المؤسس للعمل دوما ولذا كان لا بد للناس من وسائل للتواصل بينهم فكانت اللغات واللهجات والحركات البدنية بل كانت الكلمة بمعانيها الكثيرة وصورها لتؤسس للفن. إذ من ثمرات الحفريات الأنتروبولوجية كذلك أنه لم تخل حضارة قط من ثقافة فنية. الدين والفن فحسب كلاهما صاحبا الإنسان في رحلته الحضارية الطويلة. الأمر ذاته ينطبق على الخطاب الإسلامي الذي يتأسس على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة قولا وعملا وإقرارا وصفة ولكنه يتوسع ليشمل الأقوال والأعمال التي يحدثها المسلمون في كل حقل من حقول الحياة ـ بسبب الطبيعة الجامعة للإسلام ـ إنطلاقا من النص الديني أو أوبة إليه. لا يتميز الخطاب الإسلامي عن غيره من الخطابات الدينية سوى بأمرين : أولهما أن الخطاب الإسلامي خطاب جامع يغطي الحياة بأسرها وهي خصيصته الفريدة التي تأبت على الذبول تحت مطارق الجلد العنيفة التي تعرض لها الإسلام منذ حقباته المبكرة جدا بغرض حبسه في المربع المضيق الذي عبرت عنه العالمانية [3] المعاصرة وليكون ما لله لله وما لقيصر لقيصر. وثانيهما تركبه من مكونين يتصلان وينفصلان في الآن نفسه : الوحي الثابت الصحيح المقدس وهو المؤسس للخطاب الإسلامي من جهة والتراث البشري من العهد الراشدي حتى يوم القيامة من جهة أخرى. يتصلان

يتأسس الخطاب الإسلامي على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة قولا وعملا وإقرارا وصفة ولكنه يتوسع ليشمل الأقوال والأعمال التي يحدثها المسلمون في كل حقل من حقول الحياة ـ بسبب الطبيعة الجامعة للإسلام ـ إنطلاقا من النص الديني أو أوبة إليه.

[3] العالمانية : بمد العين المفتوحة. هو الإختيار الذي أتبناه من لدن المفكر المرحوم الدكتور عبد الوهاب المسيري أي نسبة إلى العالم أو الدنيا وليس إلى العلم بكسر العين.

كلما كان الوحي حاكما متبوعا والتراث محكوما تابعا فإذا إضطربت تلك العلاقة السيادية بينهما إنفصلا ليحافظ الوحي المعصوم على نقائه ومشروعيته ولتكون المعالجات البشرية من بعد ذلك إجتهادات وتجديدات وتحديثات غير معصومة.

ما هي أبرز معالم الخطاب الإسلامي.

يتوسل الخطاب الإسلامي إلى الإنسان بمجموعة من الوسائل يقدمها بين يدية عربون صدق ومودة ومن أبرزها : تحريك الفطرة التي يمكن أن يتوسع معناها ليجمع إليه الغرائز والآمال والآلام والعواطف وما هو مجبول في الإنسان ومغروز فيه إنغراز الجبال في الأرض تحفظ توازنها أن تميد ولذلك لك أن تقول بإطمئان شديد بأن الفطرة أسبق من الدين وأن الدين لا يتأسس على شيء في الكون أكثر من تأسسه على الفطرة فهي رحمه الذي يضع فيه بويضته التخليقية الأولى. كما يتوسل الخطاب الإسلامي إلى الإنسان ـ من بعد توسله بالفطرة ـ بملكته العقلية يوقظ فيها غريزتها في حب الإطلاع ليستثمر حب الإطلاع في النظر والسير في الأرض سيرا مباشرا في مناكبها وسيرا غير مباشر أي سيرا بالبصائر في الذاكرة التاريخية التي ينقل منها الوحي الكريم جزء كبيرا جدا حتى ليخيل إليك أنه كتاب قصص بل هو كذلك بالفعل. كما يتوسل الخطاب الإسلامي إلى الإنسان بتحريك حاسة الخيال فيه فإذا تخيل إزداد شوقه وكبر أمله ـ وهل الخيال غير الأمل ـ وعمل على تحقيق خيالاته ومن ذا يصيب كثيرا من تسخيرات الكون من حوله ومن ذا يكون الكون له محرابا للعبادة ومحرثا للعمارة والجمال والزينة. بكلمة واحدة : يتوسل الخطاب الإسلامي إلى الإنسان بجهازه النفسي الباطني الداخلي الروحي فطرة و غريزة وعقلا وذوقا وعاطفة بمثل ما يتوسل إليه بجهازه البدني الخارجي سمعا وبصرا وبمجموع

يتوسل الخطاب الإسلامي إلى الإنسان بجهازه النفسي الباطني الداخلي الروحي فطرة وغريزة وعقلا وذوقا وعاطفة بمثل ما يتوسل إليه بجهازه البدني الخارجي سمعا وبصرا وبمجموع حواسه المادية الأخرى. فلا يتسلط الخطاب الإسلامي على الإنسان بقوى خارجة عنه تكرهه على الإيمان أو تحبسه عن الكفر.

حواسه المادية الأخرى. فلا يتسلط الخطاب الإسلامي على الإنسان بقوى خارجة عنه تكرهه على الإيمان أو تحبسه عن الكفر ومن ذا كان الإطار المنهاجي العام للخطاب الإسلامي هو : الحرية ولا شيء غير الحرية. ألا ترى أن المفكرين منا قالوا من قديم : العقل مناط التكليف. العقل مناط التكليف معناه بلهجتنا المعاصرة : الحرية مناط التكليف. كلمة العقل في الفقه معناها : بلوغ الإنسان سنا تحرره من غاشيات الطفولة بلهوها لتتيح له إستثمار ملكاته العقلية فيختار هذا أو ذاك. الحرية هي عنوان المنهاج الإطاري الجامع وهي التي تفتح الباب على مصراعيه إلى العلم معرفة وبحثا وإجتهادا وتجديدا وتحديثا وبذا تكون الحرية شرطا ويكون العلم ـ طلبا وبثا ـ مقصدا.

الحرية هي عنوان المنهاج الإطاري الجامع وهي التي تفتح الباب على مصراعيه إلى العلم معرفة وبحثا وإجتهادا وتجديدا وتحديثا وبذا تكون الحرية شرطا ويكون العلم ـ طلبا وبثا ـ مقصدا.

ذلك هو المنهاج الإطاري الجامع. فما هو متن الخطاب الإسلامي؟ لك أن تكشف ذلك في العناوين التالية وهي عناوين يجب أن تكون وفية لذلك المنهاج الإطاري الجامع. ولذا لا تبرح مطالب الخطاب الإسلامي عاكفة على الإنسان لتحقيق مصلحته الآجلة والعاجلة سواء بسواء فردا وأسرة وأمة. أول تلك المطالب هي تحرير الإنسان تحريرا يجعل من شخصيته المعنوية شخصية قوية متينة متأبية عن الإنقسام والإنشطار والإزدواج ولا يتحقق ذلك سوى بأن يتحرر الإنسان من التألهات والتربيات التي تكرهه بشتى وسائل الإكراه الجلي والخفي ترغيبا وترهيبا على عبادتها ومن تلك التألهات قطعا نفسه التي بين جنبيه بسبب إزدواجية تكونه الفطري بين التقوى والفجور.فإذا تحرر الإنسان من كل تلك العبوديات الإكراهية وجد نفسه وجها لوجه مع ولي نعمته الحقيقي : الله سبحانه. ذلك هو ما يعبر عنه بالتوحيد أو العقيدة أو الإيمان ولا تهمنا الأسماء ولكن تهمنا المعاني. لا حرية للإنسان إذن إلا في كفره بالطاغوت ـ كل الطاغوت

ـ والكفر بالطاغوت ـ كل الطاغوت ـ يفضي بالضرورة ـ أي بالفطرة والجبلة ـ إلى عقيدة التوحيد الخالصة من شوائب الشرك. عندما يتحقق ذلك المطلب في الإنسان تحققا صحيحا ينتقل الإنسان من منطقة الجور والظلم إلى منطقة الأمن والعدل كمن إهتدى إلى سلوك الطريق الصحيح الذي يوصله إلى مقصده الدنيوي على خارطة جغرافية مثلا فهو آمن من التيه لا يضره من بعد ذلك أن يبطئ السير أو يغذه. إذا تحرر الإنسان ـ ولن يتحرر حتى يؤمن بالله سبحانه ـ إمتلك تأشيرة الحرث في الأرض خلافة وعمارة وعبادة وتلك هي مقاصد الإسلام منه من بعد ما جهزه بالحرية اللازمة. ثم يأتي دور العناوين الأخرى لرسالته وأبرزها : العدل والحق والخير والقوة وأداء الأمانة بمعناها السياسي الأعظم أي أمانة الحكم بين الناس بالحق وإشاعة التعارف والمعروف والتواصي بالحق وبالصبر وبالمرحمة وحماية حق المعتقد والعبادة للمخالف تحت سقف إسمه : وحدة البشرية العظمى بحسبانها متساوية أمام سنن الله في كونه الفسيح بل وفي رسالة الدين إليها وفي المرجع النهائي إلى ربها سبحانه. وهي وحدة متدرجة قلبها الوحدة الإسلامية وجناحها الأيمن الوحدة الكتابية وجناحها الأيسر وحدة أهل السلم من المخالفين. وفوق أديم إسمه: إتاحة الفرصة على مصراعيها لقوانين التعدد ونواميس التنوع وضرورات الإختلاف بين الناس وذلك لخدمة أغراض ثلاثة: أولها إلتقاط دليل سنني آخر على أن المعبود بحق سبحانه ليس كمثله شيء ليتحقق التنزيه الكامل. وثانيها إمعانا في تكريم الإنسان بسبب النفخة الرحمانية فيه وليس لأي سبب آخر فلا إسراف حتى في عقوبة الظالم مهما طغا ظلمه وإنداح إسرافه. وثالثها الحث والتحريض على عمارة الأرض تكافلا بين الناس مؤمنهم وكافرهم بسبب القانون الغلاب المطرد في هذا الحقل وهو المعبر عنه في سورة الإسراء بقوله سبحانه

لا حرية للإنسان إذن إلا في كفره بالطاغوت ـ كل الطاغوت ـ والكفر بالطاغوت ـ كل الطاغوت ـ يفضي بالضرورة ـ أي بالفطرة والجبلة ـ إلى عقيدة التوحيد الخالصة من شوائب الشرك. عندما يتحقق ذلك المطلب في الإنسان تحققا صحيحا ينتقل الإنسان من منطقة الجور والظلم إلى منطقة الأمن والعدل.

: «كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا» [4].

إذا رمت تكثيفا لتلك العناوين من بعد العنوان المنهاجي الأعظم للخطاب الإسلامي أي تحرير الإنسان ليكون عبدا لولي نعمته الحقيقي فحسب فلك أن تقول : كرامة الإنسان. فهي المفتاح الذي يمكنه فتح المطالب الأخرى إذ لا عدل إلا بكرامة الإنسان وقس على ذلك المطالب كلها : فلا حق ولا خير ولا قوة ولا أمانة ولا معروف ولا تعارف ولا مرحمة ولا وحدة ولا تنوع ولا عمارة ولا خلافة ولا عبادة .. إلا بكرامة الإنسان. الإنسان هو عنوان المنهاج الإطاري الأعظم لتوسل الخطاب الإسلامي إليه وهو في الآن نفسه عنوان المنهاج الإطاري الأعظم لمطلب الخطاب الإسلامي منه. كل شيء مصنوع لأجل عبادة الصانع وحده سبحانه من جهة ومن جهة أخرى لأجل تيسير رسالة الإنسان وذلك بسبب أنه الكائن الوحيد الذي يعبد الله إختيارا لا كرها ومعه الجن بطبيعة الحال ولكن الجن أدنى منه منزلة ومكانة.

الإنسان هو عنوان المنهاج الإطاري الأعظم لتوسل الخطاب الإسلامي إليه وهو في الآن نفسه عنوان المنهاج الإطاري الأعظم لمطلب الخطاب الإسلامي منه. كل شيء مصنوع لأجل عبادة الصانع وحده سبحانه من جهة ومن جهة أخرى لأجل تيسير رسالة الإنسان وذلك بسبب أنه الكائن الوحيد الذي يعبد الله اختيارا لا كرها.

الخطاب الإسلامي : هل تطرأ عليه التبدلات؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال لا بد من معرفة طبيعة المسؤول عنه أي الخطاب الإسلامي. الخطاب الإسلامي ـ مثله مثل الكائنات الأخرى بسبب صدوره عن المشكاة ذاتها ـ يشتمل على دائرتين تتكاملان وتتكافلان ولا تتضادان ولا تتقابلان : دائرة القطعيات وهي دائرة معززة بالأدوات العلمية الكثيفة والصحيحة التي تدعو الإنسان إلى إستخلاص إيمانه ويقينه ومعالم رسالته من شخوص الكون من حوله ومن ذاكرة التاريخ البشرية ومن مصادر أخرى ليس هنا مجال إحصائها. ودائرة الظنيات وهي دائرة

---

[4] سورة الإسراء – الآية 20.

متاحة لتفعيل الإختلاف بين الناس لأغراض كثيرة ليس هنا مجال إحصائها كذلك. أما دائرة القطعيات التي تكافل العلم من جهة والإيمان من جهة أخرى (أو العقل والنقل بتعبير آخر إن شئت) على نحتها صحيحة صافية شافية كافية ...لا بل تتحدى معارضيها داعية إياهم إلى الحوار والجدال على أساس معايير البرهان والحجة والبينة والسلطان.. تلك دائرة لا تقبل التبدل قيد أنملة إذ بتبدلها تتبدل حركة الكون وتضطرب ويختل الميزان الموضوع للناس بين السماء والأرض ليقوم الناس بالقسط. تلك منطقة محفوظة بتقديرات كونية لتستمر إدارة الخلاق سبحانه في النفاذ أما شرعيا فإنما يحصل الفساد في الناس بقدر إخسارهم بتلك القطعيات أو طغيانهم عليها. من أكبر مكونات منطقة القطعيات المحفوظة : الأصول العقدية حول الحياة والموت والإنسان والأصول الأخلاقية. أما دائرة الظنيات وهي الأوسع جدا فهي قابلة للتبدل ضمن هامش محدد وذلك بحسب تبدلات الزمان والمكان والحال والعرف وإقبال الناس على الإجتهاد والتجديد والتحديث أو عزوفهم إلى التقليد. هي كذلك لإتاحة مساحة مرنة واسعة من التعدد الذي أناط الله الرسوخ في العلم بفقهه وذلك في قوله سبحانه:«إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ»[5]. وسياق هذا التقرير المؤكد بأداة الحصر والقصر هو ورود الإختلاف في المخلوقات كلها:«أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ»[6]. كثف السياق قيمة الإختلاف تكثيفا

إنّ دائرة الظنيات وهي الأوسع جدا من دائرة القطعيّات قابلة للتبدل ضمن هامش محدد وذلك بحسب تبدلات الزمان والمكان والحال والعرف وإقبال الناس على الإجتهاد والتجديد والتحديث أو عزوفهم إلى التقليد. هي كذلك لإتاحة مساحة مرنة واسعة من التعدد الذي أناط الله الرسوخ في العلم بفقهه

[5] سورة فاطر - الآية 28.

[6] سورة فاطر - الآيتان 27 و 28.

عجيبا ليخبرنا في النهاية بأن أخشى الناس لله سبحانه ليسوا هم سوى العلماء. أي علماء؟ السياق يجيبك دون إلتواء : العلماء بناموس التعدد وقانون الإختلاف. ذلك هو رأس العلم وذلك هو الرسوخ في العلم وتلك هي ذؤابة العلم. فمن جهل ذلك فلا أمل له في أي علم نافع ومن فقه ذلك فقد إستدرج العلم من بين جنبيه.

الخطاب الإسلامي إذن يمتلك قابلية التبدل في وجه من وجوهه وهو وجه الظنيات التي لا يتحرر فيها الحق واحدا أوحد أبلج لا مساق فيه للتعدد.

هل لنا سابقات تبدل فيها الخطاب الإسلامي.

أجل. والأمثلة على ذلك لا تكاد تحصى لكثرتها. من تلك الأمثلة : إصدار الفاروق عمر عليه الرضوان ـ وهو خليفة المسلمين يومها ـ لما يشبه المرسوم الحكومي بتعبيرنا المعاصر لمنع نكاح الكتابيات حيلولة دون بوار المسلمات. وجه التبدل هو أن الخطاب القرآني صحيح صريح في إباحة ذلك ولكن طرأت في المجتمع طارئات إجتهد لها الفاروق فبدل الخطاب وقد يرتقي الأمر في أصول الفقه إلى حد إلزامية مثل تلك المرسومات الحكومية وإعتبارها تشريعات فقهية وإدارية صارمة بما لمؤسسة الدولة في الإسلام من سلطان على المباحات تقييدا رعاية لمصلحة أو درإ لفساد. والحقيقة أن المتتبع للتحديثات الفاروقية في المجال الفقهي والإداري والمالي لا يعتريه أي ريب في أن تبدلات الخطاب الإسلامي في المساحة التي تتأهل لذلك لا إنكار عليها بل هي حائزة لأعلى مشروعية أصولية بسبب إجماع الصحابة عليها وأي إجماع أرقى من إجماع الصحابة وأي مصدرية تشريعية أرقى من الإجماع من بعد الوحي المعصوم. من ذلك مثلا : تعليقه لحد السرقة

إن المتتبع للتحديثات الفاروقية في المجال الفقهي والإداري والمالي لا يعتريه أي ريب في أن تبدلات الخطاب الإسلامي في المساحة التي تتأهل لذلك لا إنكار عليها بل هي حائزة لأعلى مشروعية أصولية بسبب إجماع الصحابة عليها وأي إجماع أرقى من إجماع الصحابة وأي مصدرية تشريعية أرقى من الإجماع من بعد الوحي المعصوم

عام المجاعة وتأجيله لفرض المؤلفة قلوبهم من المصارف الثمانية للزكاة وعدم تخميسه لأرض العراق المفتوحة عنوة و قبوله من نصارى تغلب مسمى الجزية بغيرإسمها وتثليثه لآذان صلاة الجمعة فيما ينسب ذلك إلى ذي النورين عثمان عليه الرضوان ولا يعنينا المجتهد ولكن يعنينا الإجتهاد ودليله[7]. وأمثلة أخرى كثيرة جدا لم تقتصر على المرحلة الراشدية ولكنها ظلت تترى ولكن بفتور كبير بسبب ما خيم على الأمة من شاغبات الإنحطاط ثم تعرضت الأمة إلى الغزو فكريا وعسكريا فإندحرت وحدتها السياسية السيادية لأول مرة في التاريخ بمناسبة إنهيار الخلافة العثمانية عام 1924 ميلادية. تلك تبدلات للخطاب الإسلامي فيما يظن اليوم من أكثر المسلمين أنها المساحة التي لا تقبل التبدل وهناك أمثلة أعلى من ذلك لا شك في أنها تثير سوء فهم أو وجوما شديدا. أما التبدلات في المستويات الدنيا من الفروع والذيول والجزئيات فإنها تغلب غلبة توحي إلى غير الراسخين في العلم بأنه لم يبق شيء في الإسلام إلا وهو حمال أوجه.

أي مشروعية للثورة تجعلها تساهم في تبدل الخطاب الإسلامي

الثورة العربية المناحة اليوم من الغرب الإسلامي (تونس) إلى الشرق الإسلامي (سوريا) هي في قراءتي المتواضعة وجه من وجود التجديد الإسلامي الذي أمر به الإسلام وبشر به نبيه الأكرم ـ عليه الصلاة والسلام

الثورة العربية من تونس إلى سوريا هي وجه من وجود التجديد الإسلامي الذي أمر به الإسلام وبشر به نبيه الأكرم ـ عليه الصلاة والسلام ـ في آن واحد. الحديث صحيح صريح ومقصده الكلي أمر بمعانقة التجديد وليس مجرد تبشير به ولا مجرد تنبئ به. «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها دينها»

[7] أرشد تعبير عما فعله الفاروق عمر في ذلك هو ما هدي إليه المرحوم الشيخ المدني الذي قال بغياب المحل أي غياب محل التطبيق في العصر الفاروقي ولذا إرتفع الحكم فلا هو عطل بحسب تعبير المدرسة المادية ولا هو أستثني ولا أجل ولا عدل عنه. أرشد تأويل هو تعليق التنفيذ بسبب غياب المحل رغم حضور الحكم وحضور مقصده وغياب المحل يعيق حصول أيلولته

ـ في آن واحد. الحديث صحيح صريح ومقصده الكلي أمر بمعانقة التجديد وليس مجرد تبشير به ولا مجرد تنبئ به. «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها دينها» [8]. تمحل المتمحلون كثيرا لتزوير المتن وإضافة كلمة (أمر دينها) بدلا عن دينها لعلهم يفلحون في تعويق التجديد الذي لم يستوعبوا حقيقته أو هالتهم مزاولة أعداء المشروع الإسلامي له فطفقوا يقاومون التجديد نفسه وليس ما قد يطرأ عليه من تزوير ولم تعيهم الحيلة الفقهية فهي دوما هنا سيف مسلط : سد الذريعة. وما سمعنا يوما لذريعة فتحت لتفتح أبواب الخير أمامها وكأن الذريعة لا تفضي إلا إلى الشر وكأن ما يصدر عن الإنسان كله شر. تسربات شديدة من الفلسفة اليونانية (العقيدة المنوية) التي قاومها العباسيون يوما بدار الحكمة لترجمة الإنتاج في الإتجاهين. أما عندما نقاوم الشر بسد الذريعة فحسب فإننا نحكم على أنفسنا بالسجن المؤبد ومن يملك اليوم غلق نوافذ بيته؟ الثورات التكنولوجية حطمت كل القيود وسيثبت الإسلام أنه يطوعها لخدمة مقاصده لأن الإسلام يسعى إلى الناس ببراهينه ولا يخاف الناس فيندحر عنهم.

الثورة هي عندي إذن وجه من وجوه التجديد الإسلامي المطلوب. لنقل هي إذن بذلك أو تأشيرة عبور إليه وذلك بسبب أن الإجتهاد الحر قبل الثورة لم يكن متاحا إلا في إتجاه واحد هو إتجاه تمسيح الإسلام وتكنيس مؤسساته لتكون الأمة خادما أمينا مطيعا للدولة أي لتتحقق قالة : شعب الدولة على حد تعبير الشيخ راشد الغنوشي بدل تحقق دولة الشعب.

الثورة هي تأشيرة عبور إلى التجديد الإسلامي المطلوب.وذلك بسبب أن الإجتهاد الحر قبل الثورة لم يكن متاحا إلا في إتجاه واحد هو إتجاه تمسيح الإسلام وتكنيس مؤسساته لتكون الأمة خادما أمينا مطيعا للدولة

[8] رواه أبو داود (رقم/4291) وصححه السخاوي في «المقاصد الحسنة» (149)، والألباني في «السلسلة الصحيحة» (رقم/599)

الثورة إذن فرصة متاحة لتقويم خطابنا الديني الإسلامي ومعالجة الضربات المؤلمة التي رزح تحتها طويلا في زمن ما قبل الثورة. الثورة تأشيرة لمراجعة خطابنا الديني الإسلامي التي هي بدروها خدمة لأهداف الثورة. وخدمة أهداف الثورة هو الطريق الصحيح إلى التجديد والتحديث والإجتهاد والبحث لتأمين الثورة من جانب أن تنقلب عليها ماكرات الليل والنهار ومن جانب آخر لبلوغ المقصد الأسنى الذي من أجله جعلت الأمة خير أمة أخرجت للناس أي : الشهادة على البشرية جمعاء قاطبة. لا تكون الشهادة إلا بشروط منها : إلتزام الوسطية بين الأمم وإلتزام العدل في حمل العلم بمثل ما ورد في الحديث الصحيح : «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله : ينفون عنه تحريف الغالين وإنتحال المبطلين وتأويل الجاهلين». وشروط أخرى من مثل : الوحدة والتنوع والقوة والخير والحق والمرحمة وغير ذلك مما لا يجدر تفصيله هنا.

الثورة فرصة متاحة لتقويم خطابنا الديني الإسلامي ومعالجة الضربات المؤلمة التي رزح تحتها طويلا في زمن ما قبل الثورة. الثورة تأشيرة لمراجعة خطابنا الديني الإسلامي التي هي بدروها خدمة لأهداف الثورة. وخدمة أهداف الثورة هي الطريق الصحيح إلى التجديد والتحديث والاجتهاد والبحث لتأمين الثورة من جانب أن تنقلب عليها ماكرات الليل والنهار

ما هي أهم جراحات خطابنا الإسلامي

ذلك يحتاج لسفر طويل ولكن لا بد من تعريج سريع تشخيصا للداء قبل وصفة الدواء. أهم تلك الجراحات هي : الإغراق في الماضي سواء بأمجاده ثناء أو ببكائياته رثاء من جانب أول. ومن جانب ثان العكوف على وصف الحالة المثالية وإبرازها وإظهارها على أنها الحالة المعيشة في تلك القرون الذهبية الأولى. ومن جانب ثالث عدم التوازن بين الغيب والشهادة إذ يحضر الغيب بكثافة بينما تغيب الشهادة في الأعم الأغلب. ومن جانب رابع التعويل على المنخولات من الأقوال والآثار كثيرا وخاصة في تقرير الأحكام ووعظ النفوس وما في الصحيح يغني وزيادة. ومن جانب خامس إلتزام التقليد إلى حد الببغاوية والقرودية والنفور من التجديد والتحديث والإجتهاد. ومن

جانب سادس غياب المقاصدية في الخطاب وحضور التلقين الأعمى وغياب التحريرات العقلية والمصلحية التي ترغب في التدين وتنمي الفقه وتخصب الفهم. ومن جانب سابع غياب المقارنة والحال أن الخطاب الإسلامي قائم على المقارنة بصورة فريدة ممتعة. ومن جانب ثامن إختيار أسوإ الإجتهادات فيما يتصل بالمرأة والفن والدولة والمعاملات المالية بما يضيق الخناق على الحركة الإسلامية ـ بمعنى حركة الناس اليومية في الحرث وليس بالمعنى السائد اليوم ـ فتشل حركة الإقتصاد ويخيم السكون وتعم البطالة أو ينحرف الناس نحو المحرمات غير آبهين. ومن جانب تاسع جهل بالواقع مريع جدا بما يبث في الوعي الشعبي العام بأن العلم بالواقع لا علاقة له بالدين ولا بالإسلام بل هو حديث المسامرات والمقاهي أو حديث الإعلاميين والسياسيين دون غيرهم. ومن جانب عاشر إنتهاك صارخ للغة العربية التي تزين الوحي الكريم المعصوم حتى ليصل الإنتهاك إلى حد إعتلاء المنابر الفضائية غلمان لا حظ لهم من اللغة العربية حتى بما يقيمون به أودهم ليقرأ أحدهم الكتاب العزيز قراءة صحيحة أو حديثا أو نصا أو ليعبر تعبيرا سليما. تلك هي أمثلة فحسب ولكن الجراحات أكثر من ذلك بكثير وثخوناتها أعمق من ذلك بكثير. فإذا أردت تكثيف تلك الجراحات في عنوان واحد يجمع إليه كل ذلك فما عليك إلا أن تقول : غربة موحشة من لدن بعض جوانب الخطاب الإسلامي عن النص الإسلامي متنا ومقصدا وأيلولة وغربة أخرى أشد إيحاشا من لدن بعض جوانب الخطاب الإسلامي عن محاله التي يتنزل فيها ويراد منه إصلاحها به. أي : إنفصال الخطاب عن واقع الناس أو إنفصال الخطاب عن أصله الديني.

إننا نعيش غربة موحشة من لدن بعض جوانب الخطاب الإسلامي عن النص الإسلامي متنا ومقصدا وأيلولة وغربة أخرى أشد إيحاشا من لدن بعض جوانب الخطاب الإسلامي عن محاله التي يتنزل فيها ويراد منه إصلاحها به. أي: إنفصال الخطاب عن واقع الناس أو إنفصال الخطاب عن أصله الديني

أبرز معالم خطابنا الديني في عصر الثورة.

1 ـ معاودة الإتصال بالأصل النصي الصحيح الصريح وفيه ما يغني وزيادة عن إيراد المنخولات الساقطات والمرسلات المتروكات وخاصة فيما تعم به البلوى على حد التعبير التراثي القديم أي فيما يعد في المنهاج الإسلامي الراسخ قطعيات متعلقة بالضرورات العظمى من مثل أولويات الدين والإنسان والعقل والمال والأسرة ووحدة الأمة ورعاية التعدد وإغاثة المكلوم المقاوم دون عرضه أو ماله أو بلاده وفتح المجال رحبا أمام الدعوة الإسلامية بحسب منهاجها المرسوم في الكتاب العزيز لم يفوت فيه حتى لنبي مرسل أي الكلمة الصحيحة الصادقة المعززة بالعلم الكفيلة بالإقناع.

2 ـ معاودة الإتصال بالوعاء الوفي والثوب القشيب الذي حمل الإسلام إلى العالمين نقيا رقراقا صافيا زلالا فما عيي يوما أن يعرب ولا تلجلج يوما تلعثما أو ترددا حتى تعربت أمم وشعوب وقبائل ومجتمعات كثيفة بأسرها والتونسيون جزء من تلك الأمم المتعربة. أي معاودة الإتصال باللغة العربية إذ في حفظها حفظ للإسلام نفسه والعكس دوما صحيح.

3 ـ مراجعة مساحات كثيفة من التراث السياسي والمالي والإداري وفي حقول أخرى من مثل المرأة والأسرة والفنون والإبداعات وذلك إبتغاء إجتهاد إنتقائي ينتخب أقرب الإجتهادات إلى الإسلام في البداية ريثما يعد فرسان التحديث الإسلامي أنفسهم لمعركة فكرية واسعة تعيد التأسيس لفقه سياسي إسلامي أرشد وأنسب وأوفى إلى نصوص الوحي ومقاصده. أما التمادي على درب التقليد الأعمى ببغاوية مريبة وقرودية مفضوحة فإنه لا يؤسس لثورة ولكن يجهض الثورة قطعا.

مراجعة مساحات كثيفة من التراث السياسي والمالي والإداري وفي حقول أخرى من مثل المرأة والأسرة والفنون والإبداعات وذلك ابتغاء اجتهاد انتقائي ينتخب أقرب الاجتهادات إلى الإسلام في البداية ريثما يعد فرسان التحديث الإسلامي أنفسهم لمعركة فكرية واسعة تعيد التأسيس لفقه سياسي إسلامي أرشد وأنسب وأوفى إلى نصوص الوحي ومقاصده.

4 ـ معاودة الإتصال مع التشييد المتكامل للخطاب الإسلامي أي إنبناء على النص من جهة وعلى مقصده من جهة أخرى وعلى أيلولته من جهة ثالثة وإخراج ذلك الخطاب في نسق معاصر مفهوم يراعي الإمكانيات اللغوية المدحوضة جدا للشباب المعاصر من الذكور والإناث. أي تجنب التلقينات والتجريدات من جهة وتجنب التحشيات والتشريحات والمتون المقفلة من جانب آخر.

من أبرز معالم خطابنا الديني بعد الثورة إيلاء التحديات الحقيقية العظمى التي تواجه الأمة الإهتمام الأكبر وذلك من مثل وحدة الأمة مع تنوعها الشديد وتحديد مقاصدها في الشهادة على الناس وتحديد شروط تلك الشهادة وتحديد الوسائل إليها.

5 ـ إعتماد التأليف والترجمة في الإتجاهين سبيلا يعزز الخطابة المرتجلة وإعداد دعاة معاصرين وسطيين مؤهلين لذلك أصلا وعصرا ومظهرا ولسانا متعددا إحاطة بأكثر ما يمكن من الناس وعدم الإقتصار على رواد المساجد والمتدينين.

6 ـ تقحم المجالات الفنية الإبداعية من مثل التمثيل والسنما والتصوير والرسم والإخراج والأداء والغناء والموسيقى وتطويع ثمرات الثورات التكنولوجية لذلك إبتغاء تطوير الكلمة ـ التي هي مخ الرسالة الإسلامية و الدعوة الإسلامية ـ لتعانق أبعادها الفنية التي لأجلها كانت. أما الحفاظ على الصورة الوحيدة للكلمة التي عدت من لدن الوحي الكريم (أفضل الجهاد : كلمة حق عند سلطان جائر) فذلك الجمود عينه والجمود لا يصنع حضارة ولا حداثة ولا ثقافة ولكن يصنع الإجترار.

7 ـ إيلاء التحديات الحقيقية العظمى التي تواجه الأمة الإهتمام الأكبر وذلك من مثل وحدة الأمة مع تنوعها الشديد وتحديد مقاصدها في الشهادة على الناس وتحديد شروط تلك الشهادة وتحديد الوسائل إليها. ومن مثل حق الأمة في المقاومة بتكافل وتعاون وتضامن. ومن مثل حق الأمة في إستعادة أمرها الذي كلفها الوحي به أي الأمر السياسي والإداري والمالي لتقرير مصيرها تحت سقف قيادة واحدة لطي جراحات التجزئة والتبعية

والإنحطاط والتخلف ومن ذلك كذلك بيان الطرق الموصلة إلى ذلك من مثل الحرية والكرامة والعزة والحق في التعدد تحت سقف الوحدة الضابط. ومن مثل قضايا التنمية والإستثمار وإستعمار الأرض لتحقيق الإكتفاء الذاتي والنزوع إلى التصنيع الفلاحي والتصدير والخروج من مربعات المديونية المخزية والمذلة ومن مثل قدسية مؤسسة الأسرة المنصوص عليها بالتفصيل في الوحي الكريم المعصوم وعمدتها المرأة الصالحة الواعية المؤمنة وتأهيل الدعاة والرواحل والعدول لبث الدعوة إلى الخير والحق والصبر والمرحمة وتحقيق التوازن الإجتماعي ومحاصرة أسباب الجريمة وتجفيف منابع الرذيلة وتعزيز الأمة بجهاز دفاعي ذاتي متين قوامه القيم الإسلامية وبث ثقافة الوسطية والإعتدال والتعارف والحوار بالتي هي أحسن وقبول التعدد الإسلامي والديني والمذهبي والفكري وغير ذلك مما يرتقي إلى درجة واجب الوقت في الخطاب الإسلامي المعاصر.

8 ـ إنتاج خطاب إسلامي معاصر يمكنه التسلل إلى الإنسان من كل منافذه : خطاب للقلب يزكيه بالموعظة الهادئة البليغة ولكن بالنص الصحيح وليس بالمرويات المفعمة مبالغات كاذبة. وخطاب للعقل يعلمه على أسس المقارنة والمقاصدية والسننية والسببية والعلمية وغير ذلك. وخطاب للفرد ينمي فيه الثقة في النفس دون غرور ويخصب فيه الإنتماء إلى الجماعة دون ذوبان. وخطاب إلى الجماعة يعزز فيها التكافل دون سحق التعدديات الفردية. وخطاب إلى المرأة عنوانه : إنما النساء شقائق الرجال. لهن ما عليهن بالمعروف في الأسرة وفي المجتمع. وخطاب إلى غير المتدينين وغير المسلمين قوامه : الناس سواسية كأسنان المشط. خطاب جامع متعدد يراعي الضرورات والحاجات والواقعيات والنوازل وواجبات الوقت كما يراعي المكان والحال والأعذار. خطاب يوازن بين الواجب وبين الممكن ويوازن بين الفوري وبين المؤجل ويوازن بين الكفائي وبين العيني ويوازن

المطلوب إنتاج خطاب إسلامي معاصر يمكنه التسلل إلى الإنسان من كل منافذه: خطاب للقلب يزكيه بالموعظة الهادئة البليغة ولكن بالنص الصحيح وليس بالمرويات المفعمة مبالغات كاذبة. وخطاب للعقل يعلمه على أسس المقارنة والمقاصدية والسننية والسببية والعلمية وغير ذلك.

بين العزيمة وبين الرخصة. خطاب قوامه التبشير لا التنفير والإئتلاف لا الشقاق واليسر لا العسر ويقدم عمل القلب على عمل الجارحة تقديم أولوية فحسب. خطاب قوامه غرس اليقين في النفوس والأمل والرجاء في الله وفي عباد الله وليس الجدل العقدي الكلامي الفارغ ولا اليأس والقنوط لا في الله ولا في الناس. خطاب يجمع ولا يفرق مهما بدت الإختلافات كبيرة وعميقة. إنتاج خطاب إسلامي معاصر يؤسس لحياة فوق الأرض حقيقية تترجم فيها تلك المعاني والقيم قدر الإمكان إذ لا يصنع الخطاب وحده أي شيء ولكن تعززه التجربة الناجحة.

الخطاب الإسلامي أسه الأول المسؤول هو الوحي الصحيح الصريح المعصوم وعليه ينشأ الخطاب الإسلامي التفسيري والتأويلي والعلمي والدعوي أي ما أنجزه التراث ومازال ينجزه ولا عصمة لما ينشأ عن الخطاب الإسلامي المؤسس الأول إلا بما يشهد له ذلك الخطاب.

خلاصة مركزة.

1 ـ الخطاب الإسلامي أسه الأول المسؤول هو الوحي الصحيح الصريح المعصوم وعليه ينشأ الخطاب الإسلامي التفسيري والتأويلي والعلمي والدعوي أي ما أنجزه التراث ومازال ينجزه ولا عصمة لما ينشأ عن الخطاب الإسلامي المؤسس الأول إلا بما يشهد له ذلك الخطاب.

2 ـ الخطاب الإسلامي الأساس الأول فيه مساحتان : قطعية وظنية. أما القطعي منه فلا يخضع للتبدل ولكن يعمق لحسن فقهه وحسن فهمه وإستنباط مقاصده ومعرفة معانيه وتحقيق أيلولاته وبلوغ محاله وتبينها وهو يستخدم مادة علمية ومادة دعوية والصراط المستقيم في العلم والدعوة إنما هو في التكافل حول أس تلك المساحة القطعية. وأما المساحة الظنية فهي محل الإختلاف والتعدد والتنوع لخدمة الأس الأول الضابط من جهة وللحث على الإجتهاد والتحديث والتجديد وهو خاضع للتبدل بحسب الأزمنة والأمكنة والأحوال والأعراف ومؤهلات الناس من جهة أخرى ولو ثبت على تأويل واحد لتجمدت الحياة وأسنت وتعطلت مصالح الناس.

3 ـ يمكن تقسيم الخطاب الإسلامي تقسيمات أخرى من مثل الخطاب العلمي والخطاب الدعوي والخطاب الحكمي والخطاب الترغيبي والخطاب الترهيبي والخطاب القصصي والخطاب التمثيلي والخطاب المباشر والخطاب غير المباشر والخطاب المناظر والخطاب الواعظ والخطاب المجادل والخطاب السياسي والخطاب الخاص والخطاب العام وأنواع أخرى كثيرة ولكن لا نلج ذلك هنا للحيولة دون الإسهاب والإطناب.

4 ـ كلمة الفصل في تبدل الخطاب الإسلامي هي : يثبت الخطاب الإسلامي القطعي في متنه وأصله وحكمه ولكن تعمق معانيه لخدمة الدعوة والعلم و يجتهد في الخطاب الإسلامي الظني والغرض من كل ذلك هو : مراعاة الزمان والمكان والحال والعرف وما عرف عند طلبة العلم بموجبات تغير الفتوى والأحكام الظنية أو ذات الأساس الظني إبتغاء خدمة مصلحة الناس إذ تلك هي رسالة الإسلام الأولى وذلك هو مقصده الأسنى وذلك وفق شروط العمل بالمصلحة من تضييقات الغزالي [توفي 505 هجري] إلى توسيعات المستدركين عليه من مثل الشاطبي وغيره.

5 ـ أساس ذلك هو أن الكلمة التي هي مخ الخطاب تصنع العقول وتسوق الناس وتبين لهم الطريق الأرشد بل تسبق العمل الذي يؤسس لمحاضن مجتمعية تترجم فيها معاني تلك الكلمة وقيم ذلك الخطاب.

6 ـ إذا كان الخطاب الإسلامي في أي صورة من صوره خادما لمقاصد الإسلام ولو بصور حديثة غير مألوفة فهو خطاب إسلامي نافع ووفي لمعينه أما إذا كان الخطاب الإسلامي غريبا عن أصله النصي أو المقصدي أو غريبا عن تحقيق المناطات بالتعبير الأصولي أو غريبا عن حمل آلام الناس ونقل آمالهم فهو خطاب إلى التمسيح أدنى وإلى التكنيس أقرب

إذا كان الخطاب الإسلامي خادما لمقاصد الإسلام ولو بصور حديثة غير مألوفة فهو خطاب إسلامي نافع ووفي لمعينه أما إذا كان غريبا عن أصله النصي أو المقصدي أو غريبا عن تحقيق المناطات بالتعبير الأصولي أو غريبا عن حمل آلام الناس ونقل آمالهم فهو خطاب إلى التمسيح أدنى وإلى التكنيس أقرب.

فقهنا السياسي بين المراجعة وبين التحديث[1]

[1] صدر هذا المقال بمجلّة «الإصلاح» بالعددين 25 و26 - 08 و 22 مارس2013

لم تكن الحاجة إلى معالجة كثير من مفردات فقهنا السياسي قبل ثورات الربيع العربي المنداحة إلا حاجة فكرية نظرية بسبب ما فرض على الأقلام والألسنة من إكراهات ألجأت أصحابها في أحيان كثيرة إلى التورط فيما تورط فيه بعض ممن سبقهم من مثل القول بأن الشورى للحاكم معلمة غير ملزمة. أما اليوم فإنه لا مناص لنا من معالجات نابعة من رحم الحاجة الواقعية الماسة تلبية لخيارات الثورة وضرورات مراحلها الإنتقالية على درب طي الأمة لقرون كئيبة وطويلة من الخنوع للتجزئة والتبعية والحكم الفرعوني.

لن نزال أسرى للحظة الإنقلاب الأموي الشنيع ضد قيمة الشورى أساسا ركنيا من أسس فقه السياسة الشرعية في الإسلام في زمن مبكر جدا من التجربة السياسية الإسلامية حتى تستعيد الأمة حقها الدستوري المشروع في أمرها السياسي العام.

من هنا نبدأ

أليست العلاقة بين الفقه وبين السياسة علاقة زنيم بأبيه[2]. أجل. تفرض علينا المعالجة أن نبدأ من هناك بسبب مخلفات الإنقلاب الأموي الشنيع ضد قيمة الشورى أساسا ركنيا من أسس فقه السياسة الشرعية في الإسلام في زمن مبكر جدا من التجربة السياسية الإسلامية. لن نزال أسرى لتلك اللحظة التأسيسية الخاطئة حتى تستعيد الأمة حقها الدستوري المشروع في أمرها السياسي العام. لست أحمّل ذلك الإنقلاب أكثر مما يتحمل

---

[2] الزنيم : إبن الزنى (عتل بعد ذلك زنيم) من سورة المدثر

بمثل ما يتوهم بعضنا ولكني أعدّ ذلك طعنة أولى أثخنت الخاصرة ثم توالت الطعنات حتى أفضت المعركة إلى إحتلال العاصمة العباسية (بغداد) التي لا تكاد تشرق الشمس ولا تغرب إلا على إقليم من أقاليمها المبثوثة في الأرض ثم توالت السقطات لتجمع إليها عاصمة إسلامية أروبية أخرى لن يزال الأروبيون مدينين لحضارتها (أي غرناطة). وما كان قطارنا المتهالك سياسيا إلا ليفيئ إلى مصيره البائس فكان الطلاق البائن بينونة كبرى بين شريعتنا السياسية وبين الدولة التي تسوسنا. أجل. بدأ التراجع بإنقلاب ضد الشورى فحسب فآل مع كرّ الأيام إلى طلاق بائن بين الإسلام وبين الدولة وشؤونها. لا أكره قلمي ليكتب الخلاصة التقليدية المريحة : تولى مصطفى كمال كبر ذلك الوزر. لا. بل أختار الأخرى لأنها تجمع بين الحقيقة وبين كونها مؤلمة لنا لعل الألم يحدث الصدمة فتولد النهضة. الأخرى المؤلمة هي : نحن هم الذين إستسلمنا للسيف في البداية حتى حصد أرقابنا السيف ذاته الذي إستسلمنا له في النهاية.ذلك هو الطلاق البائن الذي فتح للوافد الغربي ذراعيه مرحبا ولم يتردد الوافد بالإغداق علينا بكرم غزوه الفكري متدثرا بضرورات التطور والتقدم واللحاق بركب الأمم على حد تعبير الراحل بورقيبة. فلما إستحكمت مفاعيل تلك الحقنة الفكرية في نخبتنا أغدق علينا الوافد بكرم الدبابة العسكرية تدكّ الأرض. ولم تكن النتيجة من تلك المسيرة الطويلة سوى أن العلاقة بين الشريعة والفقه والإسلام من جهة وبين شؤون السياسة والدولة والحكم والمال العام من جهة أخرى هي علاقة حكمت عليها معطيات المعاصرة الجديدة بالإعدام.

نحن هم الذين إستسلمنا للسيف في البداية حتى حصد أرقابنا السيف ذاته الذي إستسلمنا له في النهاية. ذلك هو الطلاق البائن الذي فتح للوافد الغربي ذراعيه مرحبا ولم يتردد الوافد بالإغداق علينا بكرم غزوه الفكري متدثرا بضرورات التطور والتقدم واللحاق بركب الأمم على حد تعبير الراحل بورقيبة.

إليك المشكلة محررة مبسوطة.

المشكلة الأم التي يعالجها هذا المقال هي أن أكثر ما ورد في مختلف الإجتهادات الفكرية فيما يتعلق بشؤون الدولة والحكم والسياسة

والتنظيمات الإدارية الداخلية والعلاقات الخارجية والقضايا المالية العامة والعلاقات بين الحاكم وبين المحكوم ووظائف الدولة والدور المجتمعي وشؤون المعارضة معالجة بالسيف أم قبولا ضمن المشهد السياسي العام.. أكثر ما ورد من ذلك في تراثنا القديم والجديد سواء بسواء ليس وفيا للشريعة الإسلامية وفاء مرضيا. عليك أن تطالبني بالأسباب التي شرعت لذلك من جهة. ومن جهة أخرى علي أن أشرح المصطلحات التي يتوقف فقه معانيها عليها. ومن جهة ثالثة فإنك لاف هنا ـ إن شاء الله تعالى ـ ما يكفي خدمة للغرض من مظاهر ذلك العقوق الذي أنشأته كثير من الإجتهادات. فإذا توصلنا إلى حسن القول بأن ذلك كان مسؤولا مسؤولية مباشرة عما إنتهت إليه الحالة العامة الجامعة للأمة ـ إلا فيما يعدّ إستثناء ثوريا نرقب ثمرته ونخشى الإنقلاب عليه ـ فإننا نكون قد عالجنا الموضوع معالجة جامعة. ولن تعدم المعالجة بحوله سبحانه مقاربات بديلة مختصرة جدا جامعة بين الأصل التشريعي وبين الحاجة المعاصرة لأكثر ما يشكو منه فقهنا السياسي. وإنه لمن نافلة القول أن الإطار العام الجامع لتلك المشكلة المبسوطة هو السؤال النهضوي الكبير ذاته الذي طرحته الصحوة الإسلامية المعاصرة أي : أنّى للإسلام أن يعدنا ـ في مصدريه الأوليين الثابتين اللذين يحتكران الحديث بإسمه[3] ـ بالغلبة والقوة والوحدة والإعتصام ورغد الحياة والحال غير الحال بالتمام والكمال. إذ الحال فينا هي حال المغلوبية والدونية والضعف والتجزئة والتبعية والإحتلال والفقر والجوع. والحال في غيرنا ـ الآخر غير المسلم ـ هي الحال ذاتها التي وعدها الإسلام إيانا سيما في جانبها المدني والعسكري والدنيوي بصفة عامة. ذلك هو سؤال النهضة

إن الإطار العام الجامع لمشاكلنا المبسوطة هو السؤال النهضوي الكبير ذاته الذي طرحته الصحوة الإسلامية المعاصرة أي : أنى للإسلام أن يعدنا ـ في مصدريه الأوليين الثابتين اللذين يحتكران الحديث بإسمه ـ بالغلبة والقوة والوحدة والإعتصام ورغد الحياة والحال غير الحال بالتمام والكمال.

---

[3] إحتكار الكتاب والسنة هنا للحديث بإسم الإسلام هو إحتكار إيجابي وهو الحائل دون التيوقراطية من جهة ودون إسلام عالماني ليبرالي لا لون له ولا طعم من جهة أخرى.

القديم المتجدد. سؤال ظل معلقا وظني أن الثورة العربية المناحة جولة أولى من جولات كثيرة وطويلة كفيلة بفضّ السؤال الحضاري الإشكالي الكبير. ذلك هو الإطار العام للمشكلة محلّ المعالجة ولكن المعالجة التي نحن بصددها ستركز على جانبها السياسي الأوسع من جهة ومن جهة أخرى وصلا بين الفقه السياسي التقليدي ليتحمل مسؤوليته كاملة عن الحال السيئة الموروثة وبين تجديد الدعوات الحارة إلى مراجعته بحسبان أن ذلك خطوة من خطوات تحقيق أهداف الثورة العربية المناحة.

المطلب الأول : تحديد المصطلحات.

بين الشريعة وبين الفقه

بين الشريعة وبين الفقه مساحات إتصال ومساحات إنفصال. يتصلان في مساحة الإعتماد على الوحي من قرآن وسنة من حيث أنهما يصدران عنه ويكتسبان المشروعية منه. وينفصلان في مساحة الإرتباط بالوحي إذ الشريعة هي الوحي نفسه عندما يسطر القوانين والقواعد والمقاصد والنصوص التي تجتمع لتكون للإنسان عنوانا لحياته فهي مساحة متلبّسة بالوحي نفسه. ومن ذا فهي ثابتة الورود لا خلاف عليها ـ إلا قليلا جدا منها في الحديث ـ بمثل كونها قطعية الدلالة سيما عندما تكون مفصلة ولكن ورودها مفصلة نادر جدا. أما الفقه فهو مختلف الإجتهادات والآراء والإستنباطات والمذاهب والأقوال التي تستخدم حقل الوحي أي حقل الشريعة حقلا تنطلق منه في التفكير الفقهي وبذا تكون حركة الفقه معصومة في مجموعها العام وبمختلف مدارسها الثمانية[4]

بين الشريعة وبين الفقه مساحات إتصال ومساحات إنفصال. يتصلان في مساحة الإعتماد على الوحي من قرآن وسنة من حيث أنهما يصدران عنه ويكتسبان المشروعية منه. وينفصلان في مساحة الإرتباط بالوحي إذ الشريعة هي الوحي نفسه.

[4] المدارس الفقهية الثمانية المعاصرة اليوم ـ أو المذاهب ـ هي : المالكية والحنفية والشافعية والحنبلية والظاهرية والأباضية والزيدية والإثناعشرية.

التي تتديّن بها الأمة اليوم ولكنها غير كذلك في تفاصيلها إذ هي تتعرض للصواب والخطإ بحسب إلتزامها بالمعايير التشريعية في الإجتهاد أو بحسب بعدها عن تلك المعايير. الشريعة إذن هي الوحي المعصوم عندما يفصح عن جانبه القانوني الإلزامي العملي في شتى حقول الحياة. أما الفقه فهو حركة الإجتهاد البشرية التي يمارسها أهلها في محالها المعروفة عند طلبة العلم بغرض تهيئة الأوضاع القانونية للتنزيل من جهة ولتوسيع الإجتهاد وتجديده كلما دعت الحاجة إلى ذلك من جهة أخرى. الشريعة تنزيل إلهي معصوم حتى وهو يجمع إليه القطعي مع الظني. أما الفقه فهو عمل بشري يعتريه الخطأ بمثل ما تعتريه الصحة. الشريعة وحي والفقه ـ في كل حقوله وكائنا من كان صاحبه إلا محمدا عليه الصلاة والسلام ـ تراث.

الفقه السياسي أو فقه السياسة الشرعية

التعبيران سيّان. سوى أن الأول منهما حديث الإستخدام في حين أن ثانيهما عبارة تراثية قديمة عند الغزالي والعز والقرافي والجويني وإبن تيمية وإبن القيم ومن بحث في الفقه السياسي الدستوري من مثل الماوردي وصاحب الخراج أي أحد صاحبي أبي حنيفة. المقصود هو التفكير الفقهي الذي يدرس الكتاب والسنة (والتجربة الراشدية الأولى) ليستنبط القواعد ويفصلها وينزلها ولكن في الجانب السياسي والحكومي والدولي داخليا وخارجيا وعلاقة قانونية ومالية. مثله في ذلك مثل فقه العبادات أو فقه العقائد أو فقه الأحوال الشخصية. سمّيت في القديم سياسة شرعية بسبب إرتباط تلك المباحث بالشرع الإسلامي ولم يكن ذلك منكورا لأنه جدّ قبل إقتلاع آخر شريان يصل السياسة بالعقيدة أي الخلافة التركية. إذ من يومها فحسب أصبحت العلاقة ـ دوليا وعربيا سيما في النخبة المثقفة

المقصود من الفقه السياسي أو فقه السياسة الشرعية هو التفكير الفقهي الذي يدرس الكتاب والسنة (والتجربة الراشدية الأولى) ليستنبط القواعد ويفصلها وينزلها ولكن في الجانب السياسي والحكومي والدولي داخليا وخارجيا وعلاقة قانونية ومالية.

والحاكمة ـ علاقة هجينة لا يرى لها أي محل من الإعراب سوى محل التسلل الذي حقّه المحو وليس التثبيت.

المطلب الثاني : أسباب العقوق ومستوياته.

السبب الأول

رضى الأمة بطلائعها الفقهية بغلبة السيف الأموي رضى إكراهيا ومنحى إجتهاديا بأن الوحدة القيادية والسياسية للأمة مقدمة في مثل هذه الحالات على تنازع ليس من المستبعد أن يكون مسلحا وليس من المستبعد كذلك أن يجرّ إلى فتنة الإنقسامات الداخلية التي تبعثر الصفّ وتغري العدو فينهار الإسلام جملة. ذلك هو السبب الأول والأخطر ـ في تقديري ـ الذي مهّد المناخات لنشوء عقوق بين الشريعة وبين الفقه في الحقل السياسي العام. أجل. نعته بالعقوق هو نعت قاس وهي قسوة أقصدها وسيتبين القارئ الكريم وطأة تلك القسوة عند الحديث عن مظاهر ذلك العقوق وآثاره المدمرة. كان ذلك الرضى المكره مفضيا بالضرورة إلى نحت عالمين شبه مستقلين في البداية ـ ليكونا من بعد ذلك بقرون مختصمين ـ لأول مرة في تاريخ الأمة وهما : عالم الحكم والسياسة والتدبير العام وجباية الأموال وتوزيعها وهو العالم الذي إحتكرته العائلات الأموية ثم العباسية ثم المملوكية ثم التركية وعلى هامش تلك العائلات عائلات أخرى في المشرق والمغرب وجدت لها إمارات وصولجانات بعدما تعرضت الوحدة المفروضة بحد السيف ـ في أواخر العهد العباسي ـ إلى الإنهيار. إذ السيف الذي أطاح بالخلافة الراشدية الشرعية الأولى هو نفسه الذي أطاح بتلك العائلات عائلة في إثر عائلة. العالم الثاني هو عالم المجتمع وفعالياته الفقهية والفكرية والأدبية والفنية والإجتماعية والإقتصادية الأهلية. وهو العالم الذي فرّ

السبب الأول والأخطر الذي مهّد المناخات لنشوء عقوق بين الشريعة وبين الفقه في الحقل السياسي العام هو رضاء الأمة بطلائعها الفقهية بغلبة السيف الأموي رضى إكراهيا ومنحى إجتهاديا اتقاء لفتنة الإنقسامات الداخلية التي تبعثر الصفّ وتغري العدو فينهار الإسلام جملة.

إليه الفقهاء يعكفون على تثبيت ولائه للإسلام بالتعليم والدعوة والقضاء والفتوى وغير ذلك. فرّت حركة الفقه من السيف المتغلب إلى المجتمع الأهلي. ولكن السيف المتغلب الباحث عن مشروعية دينية لم يدع تلك الحركة حرة طليقة حتى بعدما هادنته وصمتت عن جريمته السياسية أي الدوس على قيمة الشورى دستورا أعلى في التعاقد السياسي. وهنا بدأت المعركة حامية الوطيس بين السيف المتغلب وبين الفقهاء الذين ظلوا متمترسين وراء الشريعة فلم يسلم الإمام مالك من الضرب والعدوان حين أفتى ببطلان طلاق المكره إيماء منه إلى بطلان التعاقد السياسي المكره بين العباسيين وبين الأمة. وهو الذي عزر حركة المقاومة التي قادها النفس الزكية [5]. وبمثله لم يسلم الإمام الشافعي من الحكم عليه بالإعدام مع مجموعة من تلاميذه الذين أعدموا بحضرته ونجا هو بجلده لحكمة أجراها سبحانه على لسانه. أما قصة الإمام أحمد في قضية خلق القرآن فهي معروفة لا تحتاج إلى إثارة إذ سجن الرجل وعذب وأشرف على الموت بسبب تأبّيه عن خطّ صكّ شرعي بإسم أهل السنة والجماعة لفائدة العباسيين الذين شعروا بأن الصك المعتزلي ليس كافيا لإضفاء الشرعية على خلافتهم. المقصود من هذا السوق (بتسكين الواو) هو أن الطلائع الفقهية ـ وهي في تلك الأيام بمثابة الطلائع السياسية والفكرية التي توجه الحياة العامة في زماننا هذا ـ لم يكن تقديرها آنف الذكر حكيما حكمة كبيرة. معنى ذلك هو أن تلك الطلائع أخطأت لما حشرت نفسها في النظرية السياسية التي توارثها فقهنا السياسي حتى أودت بنا نحن اليوم أي نظرية : شرعية

فرّت حركة الفقه من السيف المتغلّب إلى المجتمع الأهلي. ولكن السيف المتغلب الباحث عن مشروعية دينية لم يدع تلك الحركة حرة طليقة حتى بعدما هادنته وصمتت عن جريمته السياسية أي الدوس على قيمة الشورى دستورا أعلى في التعاقد السياسي.

[5] النفس الزكية : هو محمد إبن عبد الله إبن الحسن إبن علي إبن أبي طالب عليه الرضوان وذلك عام 145 هجرية ضد الخليفة العباسي المشهور جعفر المنصور.

المتغلب أو شرعية الشوكة [6] أو شرعية السيف. وكلها أوعية سياسية لمحلول واحد. كان أولئك الطلائع بين نارين متأجّجتين . هذا صحيح. نار الفتنة السياسية التي يؤججها الإنقسام في إثر غلبة السيف. ونار الصمت حيال الفتنة التي أوراها الأمويون أي فتنة إلغاء الشورى وحق الأمة في الأمر العام. فإذا قلنا بأن صحة التقديرات أو خطئها يحكم عليه بالنهايات فإننا لا نتردد اليوم في القول بأن تلك الطلائع الفقهية سلمت رقابها ـ ورقاب الأمة من ورائها ـ إلى السيف المتغلب على طبق من ورد لأنها ستظل ملاحقة من لدن ذلك السيف سواء عارضته أو فرّت بعيدا عنه كما فعلت. لما فرّت تلك الطلائع لاحقها السيف يطلب تزكيتها فتأبّت فإضطهدها فتحركت ثورات من هنا ومن هناك. والحق يقال أن أغلب تلك الثورات كانت خارجية ثم شيعية[7]. أغلبها كذلك وليس كلها. ولذلك لم تنجح حتى في المطامنة من غلواء السيف المتغلب الذي إستخدمه السفاح الحجاج إبن يوسف الثقفي وذبح به التابعي الفقيه الكبير والمقاوم المغوار سعيدا إبن جبير. أما الطلائع الفقهية التي لها حضورها الكبير في المجتمع فلم تكن لها مشاركة في تلك الثورات إلا من وراء ستار كما مرّ بنا مع الأئمة الكبار. أظن أن النار الثانية (نار الصمت) ظلت مستعرة حتى اليوم ـ إلا حيث إشتعلت الثورات ـ ولكن لم تبلغ النار الأولى (نار الإنقسام) مداها الأكبر إذ لم تتشظّ الأمة إلا نسبيا ولم تتفرق إلا في المستوى السياسي الرسمي وليس ذلك تهوينا منه ولكنها مقارنة فحسب. أنا اليوم عند هذه

كانت الطلائع الفقهية ـ وهي في تلك الأيام بمثابة الطلائع السياسية والفكرية التي توجه الحياة العامة في زماننا هذا ـ بين نارين متأجّجتين. نار الفتنة السياسية التي يؤججها الإنقسام في إثر غلبة السيف. ونار الصمت حيال الفتنة التي أوراها الأمويون أي فتنة إلغاء الشورى وحق الأمة في الأمر العام.

---

[6] شرعية الشوكة : نظرية قوامها أن من تغلب بسيفه فصار على الناس حاكما فإن بيعته فريضة شرعية وهي بيعة صحيحة حسما لأدواء الفتنة ولعل الإمام الجويني هو أكثر من أحاط بتلك النظرية في كتابه المسمى بين طلبة العلم (الغياثي) وإسمه الكامل : غياث الأمم في إلتياث الظلم.

[7] ثورات خارجية وشيعية : الخارجية نسبة إلى فرقة الخوارج. والشيعة أمرها معروف.

الخلاصة: ضحايا المقاومة مهما كثروا هم أقل عددا بكثير جدا من ضحايا الصمت بذريعة الخشية من فتنة الإنقسام. ولكن مادام الأمر إجتهاديا فالقاعدة الشرعية هي (وكلاّ وعد الله الحسنى).

السبب الثاني

إنحياز جزء غير يسير من المحدثين والمصنفين في علم الحديث بصفة عامة إلى سلبية علمية فيما يتعلق بالحديث السياسي [8] وهي سلبية تمثلت في ضربين : الضرب الأول هو التعويل على الجمع والتجميع والتكديس وباء بذلك أصحاب المنهج الإسنادي [9] دون تحسّب لما قد يؤجّجه ذلك المنهج التكديسي من كوارث في الفقه السياسي من بعد ذلك بعقود وقرون وهو الأمر الذي حدث بالفعل. ومن أسبابه الكبرى دخول شعوب وأقوام غير عربية لم تجد المحاضن العلمية المناسبة والكافية لحسن فقه الحديث السياسي. الضرب الثاني هو تقديم الحديث السياسي الحاضّ على الطاعة للأمير والتسليم بالأمر الواقع حتى لو وقع أكبر محظور شرعي يسخطه الله سبحانه أيما سخط وهو جلد الظهر والإستيلاء على المال.. تقديم ذلك على الحديث السياسي الذي يسير في الإتجاه المعاكس بالتمام والكمال أي حضّا على الثورة وتحريضا على المقاومة وحثّا على رعاية الحياة والأموال والحرمات والكرامات. إنك لو نخلت صحيح البخاري ـ مثلا ـ وهو المعدود في الأمة قاطبة ـ إلا الشيعة ـ أصح كتاب بعد الكتاب المحفوظ لما عثرت

من أسباب نشوء العقوق بين الشريعة وبين الفقه في الحقل السياسي العام، إنحياز جزء غير يسير من المحدثين والمصنفين في علم الحديث السياسي بصفة عامة إلى سلبية علمية تمثلت في التعويل على الجمع والتجميع والتكديس من جهة وتقديم الحديث السياسي الحاضّ على الطاعة والتسليم بالأمر الواقع على الحديث السياسي الذي يحرض على الثورة

---

[8] الحديث السياسي : المقصود به هنا الحديث النبوي في الحقل السياسي بتعبيرنا المعاصر.

[9] أصحاب المنهج الإسنادي : كتب الحديث مقسمة من حيث منهج التأليف إلى قسمين كبيرين: قسم التأليف الإسنادي ـ مثل مسند أحمد وغيره ـ الذي يعتمد على الإسناد إلى صحابي بعينه فيذكر الحديث المروي عنه. وقسم التأليف الفقهي ـ مثل الصحيحين وغيرهما ـ الذي يعتمد على تقسيم الحديث بحسب حقله (حقل الطهارة مثلا أو الصلاة أو الإمارة أو غير ذلك).

فيه على عشر معشار شيء من الحديث السياسي الذي يتجه في الإتجاه المعاكس لنصوص الإسلام القطعية ومقاصده الثابتة بله السيرة الراشدية المعصومة في أدائها العام وليس في تفصيلاتها ولذلك أمرنا بعدّها مصدرا ثالثا من مصادر التشريع في حديث لم يسلم من الضعف في الحقيقة. في حين أنك لاف من ذلك قناطير مقنطرة في صحيح مسلم بله غيره. والحق يقال أن صحيح مسلم كان متوازنا جدا مقارنة بغيره في إيراد الحديث السياسي في الإتجاهين المتضادين .على أن أمرا آخر لا بد من إيراده حتى لو ضاق عنه هذا المجال وهو أن الضمور الذي أصاب حركة الفقه من بعد ذلك ـ وسنتحدث عنه لاحقا بإذنه سبحانه ـ إهتبل ورود مثل ذلك في ثاني أصح كتاب بعد الكتاب المحفوظ ليجعل من الحديث السياسي غير المنسجم مع محكمات الكتاب هو الأصل ليكون الحديث السياسي المنسجم مع محكمات القرآن السياسية هو الإستثناء. ولولا أن الموازين الإعتبارية للصنفين من الحديث السياسي ـ في الجملة ـ متعادلة ورودا لمالت طبقة الفقه السياسي في تراثنا إلى تجريم الخارجين[10] عن السلطان الجائر وعدّهم مارقين عن الدين أو زنادقة وهراطقة أو بغاة بل عدّوا كذلك في القديم وفي عصرنا.

إن الضمور الذي أصاب حركة الفقه من بعد ذلك ـ وسنتحدث عنه لاحقا بإذنه سبحانه ـ إهتبل ورود مثل ذلك في ثاني أصح كتاب بعد الكتاب المحفوظ ليجعل من الحديث السياسي غير المنسجم مع محكمات الكتاب هو الأصل ليكون الحديث السياسي المنسجم مع محكمات القرآن السياسية هو الإستثناء.

أما عن مستويات ذلك الفصام النكد بين الشريعة الإسلامية في دستورها السياسي وبين الإنتاج الفقهي في الحقل السياسي فهما مستويان إثنان : مستوى عقوق ظاهر بين الشريعة وبين الفقه بصفة عامة. إذ لم يخل قرن من فقيه ثائر مقاوم لا يلوذ بالصمت بله إضفاء الشرعية على الحكم

---

[10] الخارجين : كانت الثورة تسمى في القديم : خروجا. نسبة إلى الخوارج الذين عرفوا بذلك.

العضوض أو التورط في القول بشرعية السيف المتغلب وأحقية الشوكة التي نظر لها الإمام الجويني على جلالة قدره ولا يشفع لهم ـ في رأيي ـ تخوفهم من فتنة الإنقسام ولا من فتنة أخذ أبشار الأحرار بالجلد وسلب المال بسبب أن الدنيا مبناها التدافع والمقاومة والجهاد وليست هي دار ركون إلى القهر بل هي دار إمتحان ولولا أن المقاومة السلمية مشروعة بل مفروضة لما أخبرنا عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح بأن (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر) وأن (سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقلته). ومستوى عقوق آخر ظاهر بين الشريعة وبين الواقع وهو مستوى يقتضيه المستوى الأول بالضرورة. ألم يصل الحال بنا إلى تبرج القول بخلو الإسلام من الشريعة جملة وتفصيلا فإذا وقع الحديث عن الشريعة السياسية فيه والمالية جنّ جنون أعدائه وهم فينا ومنا كثر؟ هو تبرج وصل حدا تبرأت فيه الدساتير العربية والإسلامية في الجملة لا في التفصيل من الشريعة الإسلامية إما إلتواء أو تصريحا جاهرا. هل لك من بعد ذلك أن تقنعني أنه ليس هناك مشكلة شريعة في الأمة؟ من أين تتأتى إذن كل هذه الأدخنة السوداء المدلهمّة التي تحيط بحياتنا السياسية والإعلامية والفكرية؟ من فراغ!.

من مظاهر العقوق بين الشريعة وبين الفقه في الحقل السياسي العام ضمور مدقع في الإنتاج الفقهي السياسي. وهو أمر عانى منه الباحثون المعاصرون كثيرا إذ في السياسة المالية مثلا لا تجد سوى كتاب واحد هو خراج أبي يوسف ومثل ذلك تقريبا في الفقه الدستوري.

المطلب الثالث : مظاهر ذلك العقوق ومآلاته.

المظاهر كثيرة مما يقتضي ذكرها دون إنبساط خشية الإطناب والإسهاب.

1 ـ ضمور مدقع في الإنتاج الفقهي السياسي. وهو أمر عانى منه الباحثون المعاصرون كثيرا إذ في السياسة المالية مثلا لا تجد سوى كتاب واحد هو خراج أبي يوسف ومثل ذلك تقريبا في الفقه الدستوري. هذا

عن حجم الإنتاج الذي ظل منتفخا متورما لفائدة الفقه الكلامي (فقه العقيدة والتوحيد) والفقه التعبدي الذي خضع من بعد ذلك للتحشية (أي الشروح بطريق الحواشي) ثم إنغلق ذلك التراث الثّرّ الخصيب كله في المدونات والمتون حتى أضحى أحجيات وطلاسم سرعان ما لفظها الفقه المعاصر. أما عن مضمون الفقه السياسي فهو يسير في الأعم الأغلب في الإتجاه المعاكس للشريعة كما سنتبيّن ذلك. ذلك الضمور المدقع أثمر ثقافة عامة في الأمة قوامها أن الشأن السياسي في الإسلام نافلة أو قريبا من ذلك بل ربما بدعة. وفي كل الأحوال فإن العلاقة بينه وبين العقيدة علاقة واهية لا شأن للمتدينين المخلصين المتقين بها وحسبه بذلك شرا ومقتا وسوء سبيل.

أثمر الضمور المدقع في الفقه السياسي ثقافة عامة في الأمة قوامها أن الشأن السياسي في الإسلام نافلة أو قريبا من ذلك بل ربما بدعة. وفي كل الأحوال فإن العلاقة بينه وبين العقيدة علاقة واهية لا شأن للمتدينين المخلصين المتقين بها وحسبه بذلك شرا ومقتا وسوء سبيل.

2 ـ الشورى معلمة للحاكم وليس ملزمة. وحسبها بذلك تشريعا للقهر والسلب والإستبداد والدكتاتورية. ألا ترى معي حجم المأساة؟ المأساة أن التراث ينقل لنا المشهدين : مشهد النبي الأكرم محمد عليه الصلاة والسلام وهو يلتزم بالشورى في الخروج إلى أحد من بعدما عبّر عن رأيه الخاص والقاضي بعدم الخروج. فلما نظم التصويت لذلك رجحت كفة القائلين بالخروج فلبس لامته وخرج ولما حاول بعضهم إثناءه بسبب عدم رضاه قال كلمته الشهيرة : «ما كان لنبي إذا لبس لامته أن يضعها». أي ما كان لنبي أن يستشير قومه ثم يخالفهم. والمشهد الآخر المنقول إلينا هو قول الفقهاء بأن الشورى غير ملزمة بل هي معلمة! عجب عجاب ورب الكعبة. أنى لحاكم ولو كان في وزن الفاروق عمر ألا يلتزم برأي الأمة وقد إلتزام برأيها المعصوم المؤيد بالوحي؟

3 ـ ما يشبه الإجماع على القول بشرعية السيف المتغلب. أي من إغتصب السلطة السياسية في الأمة بقوته وسيفه وعصبيته القبلية فبيعته بيعة

شرعية والخروج عليها بغي. أجل. تعدم الأمة ويصوّب الحاكم. لم يبق ذلك رأيا شاذا بل أصبح نظرية هي نظرية الشوكة كما نظر لها الإمام الجويني في كتابه المعروف بـ(الغياثي).

4 ـ إحتواء القضاء والتنكيل بالمعارضة السلمية. قصص التنكيل الصحيحة كثيرة وليس هنا مجال لبسطها وليس صحيحا أن السفاح الحجاج هو الوحيد في ذلك التنكيل ولكنه إشتهر فيه أكثر من غيره. ألم يحمل رأس السّبط الحسين عليه الرضوان إلى يزيد؟ ألم يقع التنكيل في الحادثة ذاتها بأهل البيت؟ بنساء أهل البيت؟ أم تعدّون اليوم المنتصر للحسين عليه الرضوان ـ حتى لو كان يخالف تقديره السياسي ـ شيعيا؟ ألم يكن الإلتزام بالإسلام يقتضي من أولئك تقديم المعارضين إلى القضاء المستقل كما فعل بعليّ نفسه ـ عليه الرضوان ـ في خصومة له مع اليهودي حول درع. وعليّ يومها الخليفة الراشد الرابع؟ أم أن إستقلال القضاء نافلة من نوافل الإسلام؟

5 ـ ترسيخ الإنقسام الطائفي في الأمة. ظهر ذلك جليا عند العباسيين الذين تحالفوا مع المعتزلة إنتقاما من الأشاعرة ولو في صورتهم الأصولية الفقهية أي أهل السنة والجماعة. وفي العموم لم تخل مملكة إسلامية من التأيّد بمدرسة كلامية لضرب أخرى. أي أن السلطان كان عاملا حاسما في ترسيخ الإنقسام الطائفي وليس جامعا لتعدديات الأمة. أي أن الأمر الذي لأجله إعتزل الفقهاء السياسة والسياسيين ـ أي وحدة الأمة ـ لم يبق سليما مضمونا بل شتته الأمراء وبددوه. مظاهر التأجيج الطائفي كثيرة ومنها الحملات الشرسة جدا التي تعرض لها الشيعة والخوارج سيما على إمتداد العهدين الأموي والعباسي. لست خارجيا ولا شيعيا ولكني أقرّ بحق

كان السلطان عاملا حاسما في ترسيخ الإنقسام الطائفي وليس جامعا لتعدديات الأمة. أي أن الأمر الذي لأجله إعتزل الفقهاء السياسة والسياسيين ـ أي وحدة الأمة ـ لم يبق سليما مضمونا بل شتته الأمراء وبددوه.

أولئك وغيرهم في الحياة والتعدد والإختلاف إذ لا معنى للإقرار بذلك للمخالف الديني من مثل اليهودي والمسيحي بل وحتى الملحد في زماننا دون الإقرار به للمخالفين تحت السقف الإسلامي. الحقيقة التاريخية التي لاريب فيه عندي هي أن الثارات الشيعية التي نراها اليوم هي ثمرة من ثمرات تلك المراحل من الإضطهاد. الأمر لا ينطبق على الشيعة فحسب كما يتوهم بعضنا بل ينطبق على الخوارج كذلك. خوارج العصر حسب ما يسميهم بعضنا. للتاريخ ثارات لا بد من ظهورها فلنحسب لذلك ألف ألف حساب.

تولى الأمويون بثّ عقيدة الإرجاء في الأمة ومقتضاها عقيدة جبرية إكراهية تعيد صياغة العقل الإسلامي على أساس أن الظلم الواقع في الأرض قضاء اللّه وقدره سبحانه ولا فرار من قضاء اللّه وقدره وليس أمامنا إلا الرضى. أما العمل وخاصة في إتجاه التغيير والإصلاح فليس لنا به أرب.

6 ـ إفشاء العقائد الإرجائية. تولى وزر ذلك الأمويون الذين بثوا في الأمة عقيدة الإرجاء ومقتضاها عقيدة جبرية إكراهية تعيد صياغة العقل الإسلامي على أساس أن الظلم الواقع في الأرض قضاء الله وقدره سبحانه ولا فرار من قضاء الله وقدره وليس أمامنا إلا الرضى. أما العمل وخاصة في إتجاه التغيير والإصلاح فليس لنا به أرب. إذ العنوان هو : لا تضر مع الإيمان معصية ولا تنفع مع الكفر طاعة. تلك العقيدة الإرجائية هي المسؤولة اليوم عن جزء كبير من معدلات البطالة والعطالة والتخلف والقعود والتواكل وتطليق الدنيا عملا وكسبا وأسبابا أما تعلقا للقلوب بها فما حصل طلاق بل الذي حصل هيام وود وجنون يفوق جنون مجنون ليلى بليلى.

7 ـ تسلل اللهو والترف والعبث إلى القصور السلطانية. وهل إندكت حصوننا في غرناطة إلا بعد أن تسللت إليها تلك السرطانات الخبيثة التي أخبرنا الذكر الحكيم بأنها هي المسؤولة الأولى عن إنحطاط الأمم وإنهيار الحضارات وأفول المجتمعات؟ لست من هواة القول بأن تاريخنا مفترى عليه ولست في مقابل ذلك من نفاة المؤامرة بالكلية. ولكني في منزلة وسطى

هي منزلة : قل هو من عند أنفسكم. وهي التي ترجم لها المفكر الجزائري مالك بن نبي عليه رحمة الله سبحانه بالقابلية. إفترى المستشرقون وغيرهم على تاريخنا ولكن تاريخنا نفسه ليس كسبا أبيض ناصعا يعج بالمناقب وخاصة في جانبه السياسي. لكن المشكلة منهاجية : إذا إعتمدنا المقارنة فلا ريب في أن تاريخنا هو أدنى التجارب إلى العدل ولكن إذا إعتمدنا محاكمته إلى الإسلام ـ وذلك هو المنهاج الأعدل في رأيي ـ فإن تجربتنا السياسية سوادها أكثر من بياضها.

يعلمنا الإسلام درسا بليغا عندما يقر بالتعدد الديني إقرارا واقعيا فيمنح المخالفين في الدين حق الحياة وحق التدين حتى وهو يعتبرهم أهل كتاب أو كفارا ويتوعدهم بالنار؟ لا أجد درسا أبلغ من ذاك في الإعتراف بالتعدد. لكن السلطان أنكر ذلك وعمل على فرض الأحادية الفكرية والفقهية.

8 ـ فرض الأحادية الفكرية والفقهية ومنع التعدد. لك مثال واحد ثابت عن ذلك وهو طلب المنصور الخليفة العباسي المعروف من الإمام مالك وضع كتاب فقهي يحسم التعدد الفقهي سوى أن الإمام العظيم تأبّى بلطف وحنكة وحكمة وذكاء فجعل الموطأ المبسوط اليوم بيننا. تلك حادثة منقولة ولكنها لم تكن إستثناء بالتأكيد. فرض الأحادية وقتل التعدد هو أول أبواب السقوط. ألا يعلمنا الإسلام درسا بليغا عندما يقر بالتعدد الديني إقرارا واقعيا فيمنح المخالفين في الدين حق الحياة وحق التدين حتى وهو يعتبرهم أهل كتاب أو كفارا ويتوعدهم بالنار؟ لا أجد درسا أبلغ من ذاك في الإعتراف بالتعدد. الحديث عن التعدد الديني فما بالك بما دونه.

9 ـ إكتناز السلطات لتكون دولة (بواو المد) بين العائلة الحاكمة فحسب. هيمنت تلك العائلات الحاكمة من بعد الإنقلاب الأموي الشنيع ضد الخلافة الراشدة المهدية الأولى على السلطات كلها إذ بيدها السلطة السياسية التي بها تورث الأمة كما يرث متاع الهالك أهله بالتمام والكمال. وبمثلها السلطة المالية جباية وتوزيعا والسلطة القضائية التي رفضها عدد كبير من الفقهاء من مثل أبي حنيفة وغيره تقديرا منهم بأنه قضاء

إنتقامي من المعارضين السياسيين في جزء كبير منه. حتى السلطة الإدارية المحلية لم تفوّت فيها تلك العائلات لأهلها لإختيار العمال والولاة وغيرهم. بل عملت تلك العائلات ـ كما مرّ بنا ـ على تأميم السلطة الدينية والفقهية من خلال محاولات لشراء ذمم الفقهاء.

10 ـ إنتاج ثقافة دينية بئيسة قوامها تسطيح الفقه الإسلامي لتكون الشريعة بذلك تطبيقات في الحقل الجنائي الجزائي العقابي وليس نظاما حضاريا ثقافيا سياسيا جامعا يقدم الحرية على الشريعة بل على العقيدة بمثل ما قدم الإسلام كرامة الإنسان على كل شيء تقديرا منه أن الإنسان الحرّ المكرّم المعلّم هو خير من يستأمن على تطبيق العقيدة والشريعة على نفسه إبتداء. ولتكون الخلافة ـ بأثر من ذلك التسطيح الفقهي ـ نظاما سياسيا أوحد للفقه السياسي وبذا لا يتصور مسلم اليوم ـ إلا قليلا جدا ـ نظاما إسلاميا سياسيا إلا ورسمه الخلافة ورأسه الخليفة حتى غدا ذلك حاضرا في اللاوعي حضور المسلمات العقدية أو المعلوم من الدين بالضرورة. تلك ثقافة بئيسة مسؤولة اليوم عن كثير من أعمال الجماعات الإسلامية القائمة على التكفير والتفجير بإسم إقامة الخلافة وتطبيق الشريعة وكأن الخليفة جاهز بخلافته وشريعته لا ينتظر سوى الإذن له ليرفع الصولجان ويحكم بإسم الله. أي تسطيح جنى على الفقه السياسي الأصيل؟

أثمر الضمور المدقع في الفقه السياسي ثقافة عامة إنتاج ثقافة دينية بئيسة قوامها تسطيح الفقه الإسلامي لتكون الشريعة بذلك تطبيقات في الحقل الجنائي الجزائي العقابي وليس نظاما حضاريا ثقافيا سياسيا جامعا يقدم الحرية على الشريعة بل على العقيدة بمثل ما قدم الإسلام كرامة الإنسان على كل شيء.

11 ـ إهالة التراب على نظام التغطية الإجتماعية الذي أرساه الفاروق عمر. لم ينقل إلينا التاريخ أن خلافة إسلامية من بعد ذلك عملت بنظام التغطيات الإجتماعية إلا قليلا جدا من مثل ما ينقل إلينا من حفيد الفاروق (الفاروق الحفيد أي الخليفة الراشد الخامس إبن عبد العزيز). أصل ذلك النظام الإجتماعي هو الكتاب الكريم ذاته وهو ما عرف في الخلافة الراشدة

بنظام العطاء الذي إختلف في إدارته ـ وليس في أصله ـ الخليفتان الأوليان (أبوبكر وعمر). ألم يقتبس الأروبيون إبان نهضتهم ذلك النظام الفاروقي العظيم وهم اليوم يحققون به إستقرارا إجتماعيا وسياسيا وإقتصاديا لمجتمعاتهم وشعوبهم؟

المطلب الرابع : مقاربات نظرية وعملية في فقه السياسة الشرعية أو الفقه السياسي.

1 ـ شرعية الأمة هي أصل الإجتماع السياسي الأول. لم يقتصر ورود ذلك صحيحا صريحا في الكتاب الكريم فحسب (وأمرهم شورى بينهم) بل تعزز ذلك بالفعل النبوي الكريم الذي ما إتخذ إجراء دنيويا في حياته إلا من بعد إرجاع الأمر إلى أهله (الخروج إلى غزوة أحد + إعطاء قبيلة غطفان ثلث تمر المدينة لتفريق الحلف العسكري المحشود حول المدينة في غزوة الخندق + أمثلة أخرى كثيرة ليس المجال هنا لإحصائها). أدقق القول : كان يلتزم الشورى في الدنيا وليس في الدين لأنه نبي مرسل معصوم وإنما الشورى محلها الدنيا التي تختلف حولها التقديرات أما الدين فهو وضع إلهي موضوع للناس الذين منحهم ربهم سبحانه حرية الإيمان بمثل ما منحهم حرية الكفر وإنما حملهم المسؤولية يوم القيامة كاملة. كان يلتزم الشورى حتى أنه لم يسمّ خليفة من بعده ولو كان يخشى فتنة ـ بمثل ما عميت المسألة على الفقهاء من بعده كما أنف ذكره ـ لسمّى للناس خليفة ولكنه عهد بالأمر إلى صاحبها وليس صاحبها إلا الأمة ولذلك لم يتردد الصحابة في الهروع إلى سقيفة بني ساعدة لإنتخاب أول خليفة له (خلافة دنيوية وليس خلافة دينية). كان الأمر واضحا عندهم أتمّ الوضوح. فلم نتلعثم فيه نحن اليوم؟ الحاصل من ذلك هو أنه لا شرعية لأي حاكم إلا شرعية الأمة أي الإنتخاب المعروف عندنا اليوم. بل الحاصل من ذلك هو أن

شرعية الأمة هي أصل الإجتماع السياسي الأول. لم يقتصر ورود ذلك صحيحا صريحا في الكتاب الكريم فحسب (وأمرهم شورى بينهم) بل تعزز ذلك بالفعل النبوي الكريم الذي ما إتخذ إجراء دنيويا في حياته إلا من بعد إرجاع الأمر إلى أهله.

أي حاكم منتخب من الأمة يعزل في حال عدم إلتزامه الشورى. الصمت عن ذلك لا يعدّ من الفقهاء إلا كتمانا للشهادة إذ هم المستأمنون على بثّ العلم وبيانه للناس وحراسة القطعيات والمحكمات.

2 ـ مشروعية الإسلام هي الأصل الثاني لذلك الإجتماع. أجل. هي الأصل الثاني وليس الأول لأن الحاكم يستمد شرعيته من الأمة ومشروعيته من الإسلام. تمييز لا بد منه بين الشرعية الإنتخابية وبين المشروعية العملية التي كلفته الأمة لحراستها وخدمتها وهي تنفيذ الإسلام وليس الشريعة فحسب. وبذا يعزل الحاكم الذي لا يعمل على تنفيذ الإسلام قدر الإمكان. فما بالك بحاكم لا يعترف بمشروعية للإسلام أو يعترف بمشروعيته العقدية دون التشريعية أو يتنكر له جملة أو تفصيلا أو يتخذ خطة لتجفيف منابعه من البلاد؟؟؟ عندما يحتدم بيننا الجدال في عزل مثل ذلك نكون قد تدحرجنا إلى وهدات سحيقة.

3 ـ السلطة المطلقة مفسدة مطلقة كما يقول دهاقنة التجربة والمعارف. ولذا شرع الإسلام منذ البداية ما يعرف اليوم عندنا بالفصل بين السلطات لئلا تحتكر من لدن جهة واحدة. ولذلك ظل حبر الأمة إبن عباس حتى موته يخالف جمعا كبيرا من الصحابة ويقول بأن أولي الأمر المعطوفين في الطاعة على الكتاب والسنة هم العلماء وليس الأمراء. قال ذلك في زمان كان فيه الأمراء علماء. ماذا لو كان اليوم حيا بيننا؟ ثم سارت الخلافة الراشدة على الفصل بين السلطات بقدر ما كانت تسمح به طبيعة المجتمعات بسيطة التركيب. وخاصة السلطة القضائية التي فصلت من أول يوم. وبمثلها السلطة التشريعية التي إتخذ لها الفاروق مجلسا حبسه في المدينة لا يخرجون منها إلا بإذن ليسهل جمعهم وعرض الأمر الحادث عليهم. وبمثل ذلك كانت السلطة المالية في علاقات وصل وفصل معا بين

السلطة المطلقة مفسدة مطلقة ولذا شرع الإسلام منذ البداية ما يعرف اليوم عندنا بالفصل بين السلطات لئلا تحتكر من لدن جهة واحدة. ولذلك ظل حبر الأمة إبن عباس حتى موته يخالف جمعا كبيرا من الصحابة ويقول بأن أولي الأمر المعطوفين في الطاعة على الكتاب والسنة هم العلماء وليس الأمراء.

المجتمع الأهلي وبين الدولة. أما السلطة الإعلامية فكانت بيد المجتمع الأهلي بالكامل ولم تكن السلطة الإعلامية يومها سوى بيد الشعراء والأدباء والخطباء والفقهاء والعلماء وربما كان مربطها الأساس هو المسجد. آلية فصل السلطات إذن هي آلية إسلامية قحة لم تتخلف الخلافة الراشدة عن الإلتزام بها وليست هي فكرة غربية أوربية ناشئة عن العقد الإجتماعي كما يردد عبيد الفكر الغربي.

4 ـ المعارضة السلمية ـ منزوعة السلاح ـ مكون أساسي من مكونات المشهد الإسلامي العام. تجلى ذلك خاصة في خلافة علي عليه الرضوان وذلك بمناسبة معالجته للمعارضة الخارجية (نسبة إلى الخوارج) التي نشأت في إثر صفين. أرسل إليهم حبر الأمة الذي إستعاد منهم بالحوار زهاء الثلثين. ثم حدد الخليفة الرابع السياسة العامة في العلاقة مع المعارضة فقال كلمته المشهورة : لهم ما لنا وعليهم ما علينا فلا نمنعهم جهادا ولا فيئا. ثم قال : هم من الكفر فرّوا. معنى ذلك هو أنه إعترف بالمعارضة السياسية حتى لو كانت خارجية وقد أثبتت الأيام من بعد ذلك أن المعارضة الخارجية هي ألدّ المعارضات وأقساها ومعلوم أن فيهم غلوا كبيرا يذهب إلى حد تكفير مرتكب الكبيرة في حركة ردّ فعلية على الإرجاء الأموي إذ أن المدارس الكلامية إنما نشأت نشآت سياسية ولا علاقة للفقه بذلك في أول الأمر ولكن كان لا بد لتلك الفرق أن تتدثر بالفقه وهو موضوع مهم جدا سوى أنه يخرج الآن عن إهتمامنا. معنى ذلك كذلك أن المعارضة السلمية لا سبيل معها سوى الحوار كما فعل الخليفة الراشد الرابع. ومعنى ذلك كذلك هو تجنّب الهروع إلى التكفير والتفسيق والتبديع والتخوين رغم أنه يتحدث عن الخوارج (هم من الكفر فروا). كيف هو تعاملنا اليوم مع المعارضات؟ لا أظن أن مواطنا عربيا واحدا يجهل حقيقة ذلك التعامل ولا

آلية فصل السلطات إذن هي آلية إسلامية قحة لم تتخلف الخلافة الراشدة عن الإلتزام بها وليست هي فكرة غربية أوربية ناشئة عن العقد الإجتماعي كما يردد عبيد الفكر الغربي.

أظن أن مواطنا عربيا واحدا يتشرف بالإنتساب إلى ذلك التعامل. لم يتسع المجتمع الإسلامي في تاريخه الطويل الثّرّ إلى المعارضة السياسية فحسب بل إتسع إلى كل أنواع المعارضات الكلامية والمذهبية والفكرية والسياسية بل وحتى الدينية. أليس لنا في ذلك درس بليغ؟ ألم تزدهر العلوم والمعارف وحركة الإختراع والإكتشاف في كل حقل علمي كوني وديني إلا يوم تشبّع المجتمع بمثل ذلك التعدد والتنوع والإختلاف؟

5 ـ أبرز فرائض الدولة هي : الحرية الكفيلة بتحقيق الكرامة للإنسان المكرم والعدالة إقتصاديا وإجتماعيا وتوحيد الصف الداخلي مع رعاية تنوعاته مهما كانت بعيدة دينيا وعرقيا ومذهبيا وفكريا ولغويا وتحقيق علويات القانون والدستور والمساواة لمحاسبة الحكام والمسؤولين ولتكون الأمة هي مصدر الشرعية والإسلام هو مصدر المشروعية وبناء علاقات خارجية أساسها حماية البيضة وتحقيق الندية والإنتصار للمستضعفين والمقهورين وتأمين حق الدعوة السلمية. تلك هي أبرز الفرائض العظمى ولكن وسائلها كثيرة ومنها ما هو منصوص عليها في الكتاب الكريم ذاته من مثل السعي لإمتلاك قوة الحديد وإحلال الشورى نظام إداريا وسياسيا وبث العلم والتشجيع على الإجتهاد والإبتكار والتحديث والتجديد وغير ذلك. أين واقعنا اليومي المعيش من تلك الفرائض الشرعية؟ ألسنا نسير في الإتجاه المعاكس بالتمام والكمال سيما في البلاد التي لمّا تنفذ إليها «عدوى» الربيع العربي؟

أبرز فرائض الدولة هي : الحرية الكفيلة بتحقيق الكرامة للإنسان المكرم والعدالة إقتصاديا وإجتماعيا وتوحيد الصف الداخلي مع رعاية تنوعاته مهما كانت بعيدة دينيا وعرقيا ومذهبيا وفكريا ولغويا وتحقيق علويات القانون والدستور والمساواة لمحاسبة الحكام والمسؤولين.

ربما يحسن أن يقع الإقتصار على ذلك القدر خشية الإسهاب والإطناب. ولكن لا بدّ من ذكر مقاربات جزئية أخرى مهمة من مثل : ضرورة تحديد عدد الولايات التي يحق للحاكم أن يشغلها وكذا تحديد سن دنيا وأخرى قصوى لتحمله المسؤولية. ومن مثل أن تكون القيادة جامعة بين الفردية

والجماعية في آن واحد وفي كل الأحوال فإن ذلك لا يمس بالأصل المقدس في الفقه السياسي الإسلامي أي الشورى الملزمة بالضرورة. ومن مثل الموازنة بين حسنات وسيئات النظام الجمهوري الرئاسي والنظام الجمهوري البرلماني وضرورة خضوع الدولة لدستور معلن مكتوب محل توافق بين الناس لا علوية فيه لأحد سوى للأمة مصدرا للشرعية وللإسلام مصدرا للمشروعية. ومن مثل الفصل بين السلطات وليست هي ثلاث فحسب إذ السلطات اليوم : سياسية وعسكرية ومالية وإعلامية وقضائية وعلمية وغير ذلك. ومن مثل اللجوء إلى النظام الفدرالي أو ربما الكنفدرالي في بعض الحالات لضمان أكثر ما يمكن من الحريات في تصريف الشؤون المحلية وتفرغ الدولة لأعبائها الخارجية والعسكرية ولمزيد من تحمل المجتمع لمسؤولياته في النماء والعدالة والكرامة والمشاريع الإقتصادية الإستثمارية المباشرة. وإجراءات إدارية سياسية أخرى كثيرة ينفتح لها الفقه السياسي أو فقه السياسة الشرعية القائم أساسا على جلب المصالح ودرإ المفاسد وعلى نشدان العدل ونبذ الظلم .. إجراءات سياسية وإدارية أخرى كثيرة يضيق عنها هذا المجال ولكن لا بد من الإشارة إلى فلسفتها العامة التي هي : إنتاج فقه سياسي رشيد يكون أدنى إلى مقاصد الإسلام العظمى إذ أن ذلك هو الطريق الآمن للوفاء للعقيدة والعبادة والعمارة وليس هناك طريق أقصر لإنتاج فقه سياسي أرشد إلا طريق حسن فقه مقاصد الإسلام العظمى لضمان حسن تنزيلها على الواقع السياسي.

إنتاج فقه سياسي رشيد يكون أدنى إلى مقاصد الإسلام العظمى إذ أن ذلك هو الطريق الآمن للوفاء للعقيدة والعبادة والعمارة وليس هناك طريق أقصر لإنتاج فقه سياسي أرشد إلا طريق حسن فقه مقاصد الإسلام العظمى لضمان حسن تنزيلها على الواقع السياسي.

خلاصات مركزة عامة

1 ـ فقهنا السياسي أو فقه السياسة الشرعية ـ بحسب التعبير القديم ـ يحتاج منا اليوم إلى مراجعة مزدوجة الميزان : كفة من ذلك الميزان تراجع ذلك الفقه ـ الذي هو غير الشريعة كما تبين آنفا ـ بمحاكمته إلى محكمات

الكتاب والسنة والأداء العام للخلافة الراشدية المهدية الأولى وخاصة في الحقل السياسي. والكفة الأخرى من ذلك الميزان تراجع ذلك الفقه ببيان توافقه وخصومته مع التطورات المعاصرة بقصد تحقق مقاصد الإسلام السياسية على أرض الواقع قدر الإمكان ولا بأس من إجتياز مرحلة إنتقالية (هي مرحلة الفقه الإنتقالي) كلما دعت الضرورة إلى ذلك إيمانا بقانون التدرج وسنة الإصلاح الهادئ.

2 ـ لا بد لتلك المراجعة الجادة والهادئة أن تركز على الحديث السياسي (أي الحديث النبوي في الحقل السياسي) وذلك بسبب أن القرآن الكريم تكفل من الفقه السياسي ـ على عادته في التشريع في الحقول الكلية ـ ببيان الأصول والمبادئ والمقاصد والكليات. بما يعني أن المراجعة هنا لا تعدو أن تكون تجديدا للفهم وتعميقا للفقه. أما الحديث السياسي المشتمل على مئات من النصوص المتفاوتة جدا وروودا ودلالة من جهة ومقاما (نسبة إلى مقامات التشريع) من جهة أخرى فإن الحاجة إلى مراجعته تبدو ماسة جدا وذلك على أساس قيم منها : حاكمية القرآن على السنة طرا مطلقا وفي كل الأحوال ودون أي إستثناء وليس حاكمية السنة على القرآن بأي قدر من الأقدار ولا حتى التسوية بينهما في الإعتبار. ومن تلك الأسس كذلك: التمييز بين مقامات المشرع[11] إذ يكون مجرد ناصح في حين ويكون مشيرا في حين آخر وقد يكون متنبئا أو محذرا في أحيان أخرى وفي مواضع أخرى يكون

فقهنا السياسي أو فقه السياسة الشرعية ـ بحسب التعبير القديم ـ يحتاج منا اليوم إلى مراجعة جادة وهادئة تركز على الحديث السياسي (أي الحديث النبوي في الحقل السياسي) وذلك بسبب أن القرآن الكريم تكفل من الفقه السياسي ـ على عادته في التشريع في الحقول الكلية ـ ببيان الأصول والمبادئ والمقاصد والكليات.

[11] مقامات المشرع : ضرب من ضروب الفقه كتب فيه فقهاء المقاصد قبل الإمام إبن عاشور أشياء قليلة ولكن الإمام إبن عاشور هو أكثر من كتب في ذلك في كتابه مقاصد الشريعة وهو علم يريد الإستقلال عن علم مقاصد الشريعة بمثل ما إستقل هذا بدوره عن علم أصول الفقه على يد الإمام الشاطبي. مقامات المشرع معناها الصفة التي يتكلم بها النبي محمد عليه الصلاة والسلام إذ يتحدث أحيانا بوصفه نبيا مبلغا وأحيانا بوصفه بشرا وأحيانا بوصفه إماما وأحيانا بوصفه محاربا وهكذا. والتمييز بين تلك المقامات مهم جدا لحسن الفقه وتعميقه وصحة تعديته بالقياس

حديثه خاصا بواقعة أو بشخص أو بزمان أو بمكان. ومن تلك الأسس كذلك : التمييز بين مؤسسة الإمارة التي يستخدمها عليه الصلاة والسلام في كثير من حديثه السياسي. إذ أن مؤسسة الإمارة كثيرا ما يقصد بها المؤسسة العسكرية وليس تعني دوما مؤسسة الإمامة السياسية. ومن تلك الأسس كذلك : وصل الحديث السياسي بمقصده وقد تبين من خلال ذلك في مواضع كثيرة جدا أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ إنما يريد التأكيد على وحدة الجماعة ورص صفها لضمان وحدتها السياسية وبما أن ذلك لا يتم إلا عبر المؤسسة السياسية فإنه يحذر أيما تحذير من هدم تلك المؤسسة الجامعة ولكنه لا يقر بحال من الأحوال أن تكون تلك المؤسسة حاميها حراميها كما يقال بالتعبير الشعبي أو شبه الشعبي. ومن تلك الأسس كذلك : لقد تبين لي أنه عليه الصلاة والسلام كان يتحدث في الشأن السياسي بكثرة كاثرة جدا بمناسبة نبوءته بالفتنة الكبرى التي شقت صفوف الجيل الأول في المرحلة الثانية من الخلافة الراشدة أي من الجمل وصفين والنهراوين حتى أواخر العهد العباسي. ليس معنى ذلك أنه يقصر حديثه عن تلك الفتنة التي لنا فيها أحاديث صحيحة منها خطابة لعمار إبن ياسر (تقتلك الفئة الباغية) ومنها كذلك (لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة : أولها الحكم وآخرها الصلاة).. ولكن معنى ذلك أنه لما علم بالنبوءة أن تلك الفتنة قريبة وآثارها ستكون مدمرة على قرون أخرى طويلة من التاريخ الإسلامي فإنه ركز الحديث عليها وبذا يكون تعدية ذلك إلى غيرها قياسا فاسدا سيما أن أكثر من يفعلون ذلك اليوم خاصة لسان حالهم يقول : لا بديل عن الملك القائم اليوم إلا بديل الإحتلال أو الإقتتال. ولا حق لأحد أن يثور ضد الملك. والثورة ضد كفران وخروج عن الإسلام جملة وتفصيلا. وأسس أخرى يضيق عنها هذا المجال.

يريد النبي صلى الله عليه وسلم التأكيد على وحدة الجماعة ورص صفها لضمان وحدتها السياسية وبما أن ذلك لا يتم إلا عبر المؤسسة السياسية فإنه يحذر أيما تحذير من هدم تلك المؤسسة الجامعة ولكنه لا يقر بحال من الأحوال أن تكون تلك المؤسسة حاميها حراميها كما يقال بالتعبير الشعبي أو شبه الشعبي.

3 ـ كما يحتاج فقهنا السياسي إلى تحديث من بعد مراجعة. دور المراجعة هو دور تأصيلي أما الدور التحديثي التالي فهو يراعي المتغيرات المعاصرة إقتباسا للحكمة من أي وعاء خرجت إذ المؤمن أحق بها وأولى كما ورد في الحديث الصحيح. المعركة الناشبة اليوم بين الشورى والديمقراطية هي معركة خاطئة منهاجيا. أما المتمترسون خلف الشورى رفضا للديمقراطية فإنهم لا ينفكون عن جهل بالغ إما بالإسلام أو بالديمقراطية أو بهما معا. إنما يسعنا الفقه الإنتقالي ومنه أن نستورد حسنات الديمقراطية الكثيرة آلية إدارية سياسية لحسم الخلافات وتجفيف منابع التفرد والإستبداد والقهر وليست فلسفة أخلاقية أو نظرية فكرية أو مذهبا ماديا. لو أسلم ألماني على يديك هل تقول له : لا بد لك أن تستورد العادات العربية والتقاليد الإسلامية ليكتمل إسلامك أو تغير إسمك؟ طبعا لا. لم؟ لأنه ضمن الإسلام ولا حاجة له بالتقاليد العربية والعادات الإسلامية ـ وليس العبادات والفرق بينهما شاسع ـ ولا حتى بتغيير إسمه. أي أنه إستورد الإسلام منزوعة منه تقاليد أهله. ذلك هو شأننا مع الديمقراطية في مرحلة إنتقالية على الأقل : نستوردها منهاجا إداريا وسياسيا وليس فلسفة ولا دينا. حقول التحديث كثيرة منها ما يتعلق بالمرأة ومسؤولياتها السياسية والأقليات من كل جنس وليس غرضنا هنا الإحصاء ولكن غرضنا بيان إمكانيات التحديث.

المعركة الناشبة اليوم بين الشورى والديمقراطية هي معركة خاطئة منهاجيا. أما المتمترسون خلف الشورى رفضا للديمقراطية فإنهم لا ينفكون عن جهل بالغ إما بالإسلام أو بالديمقراطية أو بهما معا. إنما يسعنا الفقه الإنتقالي ومنه أن نستورد حسنات الديمقراطية الكثيرة آلية إدارية سياسية لحسم الخلافات وتجفيف منابع التفرد والإستبداد والقهر وليست فلسفة أخلاقية أو نظرية فكرية أو مذهبا ماديا.

4 ـ لا بد من الإقرار بتواضع الكبار أن فقهنا السياسي ـ بحسب ما ألّفته الفتنة الكبرى بدء من الجمل وصفين وتداعياتهما إلى يوم الناس هذا ـ مسؤول عن تردي أوضاعنا السياسية ولعل عنوانها الأبرز : بلوغ مناسيب تغوّل الدولة العربية ضد شعوبها ومجتمعاتها شأوا من القهر والنهب والسلب كان سببا مباشرا في الإحتلال العسكري والإختراق الثقافي والإغتراب

الفكري والإستلاب الحضاري والتفكك والتجزئة والتبعية والمديونية والفقر والجوع والمرض والتخلف والجهل والأمية. ذلك هو تقديري. كانت البداية حزينة كئيبة فظلت كذلك بل إزداد الطين بلة. هذا السؤال الكبير والخطير لا بد من طرحه : بأي شيء نفسر السرعة القياسية التي أغتيلت بها الخلافة الراشدة المهدية الأولى؟ ولم أخفقت محاولات الإصلاح كلها ـ دون إستثناء إلا الإستثناء الثوري الحاصل قبل عامين فحسب بدء من تونس حتى سوريا ـ في إستعادة الحكم الإسلامي الصحيح أي المبني على الأسس ذاتها التي إنبنت عليها الخلافة الراشدة المهدية الأولى؟ محاولات الإصلاح قديمة قدم الإغتيال نفسه. لو تركنا تلك المحاولات القديمة فإن المحاولات النهضوية المعاصرة عمرها اليوم زهاء ثلاثة قرون كاملة. لماذا نمضي دون طرح السؤال؟ أليس السؤال هو الذي هدى الله به خليله إبراهيم عليه السلام إلى الحق؟ أليس السؤال هو الذي رفع الله به يقين كليمه موسى عليه السلام؟ أليس إمام الثائرين ضد القهر ـ محمد عليه الصلاة والسلام ـ هو القائل في الحديث الصحيح : نحن أولى بالشك من إبراهيم؟

النهضة المنشودة تمر حتما من هنا : مراجعة فقهنا السياسي وتحديثه كفيل بإقترابنا من قيم الحق والعدل والكرامة والحرية والوحدة والتنوع والتعارف والتراحم ورص الصف والإعتصام والشهادة على الناس والقوة والخير. وكذا تحقيق أهداف الثورة لا بد لها أن تمر من هنا كذلك.

إن إنتاج فقه سياسي رشيد يكون أدنى إلى مقاصد الإسلام العظمى لهو الطريق الآمن للوفاء للعقيدة والعبادة والعمارة وليس هناك طريق أقصر لإنتاج فقه سياسي أرشد إلا طريق حسن فقه مقاصد الإسلام العظمى لضمان حسن تنزيلها على الواقع السياسي.

هذا الكتاب تلوناه وذاك الميزان أهملناه[1]

[1] صدر هذا المقال بمجلّة «الإصلاح» العدد 29 - 03 ماي2013

مقدمة

جئت يوما أتلو الكتاب العزيز وأنا أحمل نفسي على التدبّر حتى وصلت إلى سورة الحديد التي قرأت في آخرها : «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ* وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ * إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ»[2]. ما إن خرقت الحجب التي تحول بين المرء وبين التدبّر حتى أينع في نفسي شوق حار وشديد إلى إستنطاق هذا السياق القرآني. سألت نفسي : هذا الكتاب المنزل من الله تعالى إلينا وجدناه (وهو القرآن الكريم المحفوظ اليوم في مصاحف معلومة) ولكن أين الميزان الذي أنزل مع الكتاب العزيز جنبا إلى جنب بحسب المنطوق القرآني نفسه؟ ألا ترى معي أن الله أخبرنا أنه أنزل إلينا الكتاب (أي القرآن الكريم) بمثل ما أنزل إلينا (الميزان)؟ تدبر معي (واو العطف التي تفيد المغايرة هنا). ألا ترى معي أن الكتاب شيء وأن الميزان شيء آخر؟ ألا ترى معي أن كلاهما منزل منه سبحانه؟ ألا تنخرط معي في هذا السؤال : هذا الكتاب ألفيناه وتلوناه وحفظناه ولكن أين

عندما نستنطق الآية 25 من سورة الحديد نكتشف أنّ الله سبحانه وتعالى أنزل إلينا القرآن والميزان. هذا الكتاب المنزل من الله تعالى إلينا وجدناه (وهو القرآن الكريم المحفوظ اليوم في مصاحف معلومة) ولكن أين الميزان الذي أنزل مع الكتاب العزيز جنبا إلى جنب بحسب المنطوق القرآني نفسه؟

---

[2] سورة الحديد - الآية 25..

الميزان؟ صبرا. لا تعجل عليّ. سأطرح على نفسي وعليك أسئلة. هل أخفي هذا الميزان المنزل جنبا إلى جنب مع الكتاب؟ هل وصل إلينا ولكن أضعناه؟ لا شك في أنك تؤمن معي بأن الميزان موجود وما علينا سوى البحث عنه. ألا تسل نفسك معي : وأي حاجة لنا بهذا الميزان؟ أليس القرآن بكاف المؤمن وزيادة؟ ألا يكفي أننا ظفرنا بالكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟ ألا تؤمن معي بأنه لو كان القرآن الكريم بكاف الإنسان لما أنزل الميزان معه؟ ألا تؤمن معي بأن الكتاب الكريم وحده لا يكفي ولا بد له من الميزان ـ أو بالأحرى لا بد لنا نحن من الميزان ـ وأن الميزان وحده لا يكفي ولا بد له من الكتاب ـ أو بالأحرى لا بد لنا نحن من الكتاب ـ؟ ألا تخلص معي إلى هذه الحصيلة : لا يتم تديّننا الذي به نؤدي رسالتنا التي من أجلها خلقنا إلا بتكافل الكتاب والميزان معا؟ ألا تخلص معي إلى هذه الحصيلة: لا مكان للأمة اليوم إلا في ذيل القافلة البشرية سوى بسبب تفريطها في الميزان إذ لم يشفع لها الكتاب حتى لو تشبثت به. ألا تتواضع معي على أن مفارقة الأمة لمنزلة الخيرية المطلقة ليس سوى لإهمالها لشقيق الكتاب أي الميزان؟ ألا تشاطرني هذه القالة : القرآن والميزان صنوان لا يفترقان فلا يغني أحدهما عن الآخر ولا يكون له بديلا؟ ألا تستصرخ معي : إنما الميزان شقيق القرآن وإنما القرآن شقيق الميزان فلا تؤدى الرسالة التي من أجلها خلقنا إلا بهما معا.

لا مكان للأمة اليوم إلا في ذيل القافلة البشرية سوى بسبب تفريطها في الميزان إذ لم يشفع لها الكتاب حتى لو تشبثت به. ألا تتواضع معي على أن مفارقة الأمة لمنزلة الخيرية المطلقة ليس سوى لإهمالها لشقيق الكتاب أي الميزان؟ ألا تشاطرني هذه القالة: القرآن والميزان صنوان لا يفترقان فلا يغني أحدهما عن الآخر ولا يكون له بديلا؟

إذا تواضعت معي على ذاك فلنرتحل إلى نفير إسمه : نفير البحث عن الميزان. لن يضنينا البحث لأن الميزان ما ضاع وما ينبغي له أن يضيع ولكن تاه منا بين الآيات والسياقات والسور بسبب حبس أنفسنا على التلاوة فحسب. أما التدبر المنشود بقوة فلا يقبل عليه إلا قليل من قليل. ألا ترى معي أن المنزلات من السماء ثلاث : القرآن والميزان والحديد. ألا

ترى معي أننا ظفرنا بثلث المنزل فحسب أي بالقرآن فحسب. أما الميزان ـ أو قل جزء كبير منه ـ وكذلك الحديد فقد ظفر به البطشة الذين ما آمنوا بكتاب جاء بالميزان والحديد ولا تلوه ولا تدبروه. ماذا بقي لأمة حبست نفسها على القرآن فحسب؟ هل يشفع لها القرآن يوم القيامة وهي ما سألت يوما لا عن الميزان ولا عن الحديد؟ ألا تقول معي : أين الميزان يا أمة الميزان؟ ألا تقول معي : أين الحديد يا أمة الحديد؟

ما هو الميزان وأين نجده

الميزان صيغة مبالغة وهو من فعل : وزن يزن وزنا. هو إسم الآلة من الفعل ذاته. وزن في اللغة العربية معناه : أضاف إلى الشيء الموزون قدرا محددا معينا وبذا يكون قدره كذا إن كان مكيلا وقدره كذا إن كان موزونا وقدره كذا إن كان مؤقتا إلخ .. ويكون الوزن ماديا للماديات ومعنويا للمعنويات. ورد الميزان بمعناه المادي في القرآن الكريم :«فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم»[3]. كما ورد بمعناه الروحي :«الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان» [4].

لا ريب في أن الميزان المنزل جنبا إلى جنب مع القرآن الكريم (الكتاب) هو الميزان الروحي وليس الميزان المادي لأن الميزان المادي يصنعه الإنسان بتجربته. الميزان ـ كما مرّ معنا ـ هو آلة الوزن أي آلة التقدير التي تنسب إلى الشيء الذي يوضع فوقها قدره الحقيقي دون إخسار ولا طغيان. ذلك هو المعنى اللغوي للميزان.

يقول سبحانه وتعالى «الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان» فلا ريب في أن الميزان المنزل جنبا إلى جنب مع القرآن الكريم (الكتاب) هو الميزان الروحي وليس الميزان المادي لأن الميزان المادي يصنعه الإنسان بتجربته.

---

[3] سورة الأعراف - الآية 85..

[4] سورة الشورى - الآية 17..

أما المعنى الإصطلاحي الدلالي للميزان فهو : الآلة المعنوية الأخلاقية الروحية التي نستخدمها لحسن تقدير المواقف من معتقدات ومقولات وأعمال وأفعال وصنائع في حقول الحياة كلها نشدانا للعدل والقسط والوسطية قدر الإمكان.

طريقان للكشف عن الميزان

الطريق الأول هو تتبع القرآن الكريم نفسه. أما الطريق الثاني فهو ما يوحي به إليك عقلك في أثناء تدبرك للقرآن الكريم ومن خلال معافستك للحياة. هناك طريق ثالث وهو النظر في خير من بيّن القرآن الكريم بيانا عمليا أي سيرة محمد عليه الصلاة والسلام. وكذا النظر في السيرة السياسية العامة للخلافة الراشدة المهدية الأولى بصفة خاصة. لو جمعنا تلك الطرق كلها لما وسعنا إلا أن نقول : طريقة الكشف عن الميزان هي طريقة عقلية تدبرية. إذ لا ينبئك القرآن الكريم نفسه أن الميزان المقصود هو كذا وكذا على وجه التعيين ولكنك كلما تقدمت في فقهه عرفت الميزان المقصود. أي أن الكشف عن الميزان المقصود لا بد له من نظر وفهم وتدبر وفقه وتقليب وحوار بينك وبين الكتاب وبينك وبين الحياة وبينك وبين الناس.

الطريق الأول للكشف عن الميزان هو تتبع القرآن الكريم نفسه. أما الطريق الثاني فهو ما يوحي به إليك عقلك في أثناء تدبرك للقرآن الكريم ومن خلال معافستك للحياة. هناك طريق ثالث وهو النظر في خير من بيّن القرآن الكريم بيانا عمليا أي سيرة محمد عليه الصلاة والسلام.

قد تسأل سؤالا مهما : أي حكمة في إخفاء الميزان الذي لا بد منه لإستقامة الحياة وأداء الإنسان للرسالة التي لأجلها خلق؟ الحكمة هي في إبتلاء الإنسان المعلم هل يستثمر مداركه العقلية في البحث والإجتهاد والتجديد والتحديث أم يجمّد رساميله الفكرية والعقلية في البيوت المثلجة. ألا ترى أن الجيل القرآني الفريد الأول ـ جيل الصحابة ومن بعدهم بقليل ـ عرفوا الميزان المقصود معرفة صحيحة دون جدال ثم تكافلوا على العمل به بمثل ما يعملون بالقرآن الكريم وبذلك ظفروا بالعزّ والسؤدد والغلبة والشهادة على الناس التي مكنتهم من هدايتهم إليه سبحانه بإذنه.

خذ إليك هذا المثال الذي يحيّرني ولا بد له أن يحيّرك ويحيّر كل باحث عاقل. هو مثال إمرأة إسمها (سمية أم عمار من آل ياسر). هذه إمرأة لها زوج وبيت وبنون. هذه إمرأة لا يطوح شقيّ بنا بعيدا لينزع عنها الغرائز والجبلاّت التي أودعها الباري سبحانه في كل أنثى. تحب ما يحب النساء وتكره ما يكره النساء. إمرأة لم تسمع من القرآن الكريم بالتأكيد أكثر من آيات معدودات وسور معدودات ربما لا يتجاوز عددهن عدد أصابع اليد الواحدة أو اليدين في أقصى تقدير. إمرأة لا أظن أنها سمعت حديثا نبويا واحدا سوى الحديث الذي تسمعه كل يوم :«صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة». لم يكن ذلك متاحا لها لأنها تعرضت للتعذيب والتغييب عن لقيا محمد عليه الصلاة والسلام من أول يوم أسلمت فيه. حتى الرجال الأحرار ـ غير العبيد ـ لم يكن متاحا لهم أن يستمعوا إلى كل ما ينزل من القرآن الكريم في تلك الأيام المضنيات فما بالك بالنساء والعبيد. سيما الذين يتعرضون منهم إلى التنكيل بسبب « وضاعتهم» القبلية أو بسبب ضعفهم البدني أو بسبب وضعهم الإجتماعي والمالي. لا أظن أن تلك المرأة إستمعت إلى أكثر من صفحتين من صفحات الكتاب العزيز بمثل ما إستقر عليه المصحف من بعد ذلك. أما القراءة فلا سبيل إليها إذ لم يكن هناك شيء مكتوب أبدا حتى القرآن نفسه ولا الحديث. إمرأة ذاك وضعها الذي لم يكن أمامها عائقا البتة لتحسن فقه الرسالة الإسلامية ثم لتقرر أن تظل صامدة مقاومة مجاهدة بثباتها وعصيانها وتأبّيها وبأمعائها الخاوية ثم لتقرر أن تضع روحها فوق راحتها لتكون أول شهيد (وليس أول شهيدة) في الإسلام. ألا تسل نفسك معي : ألا نحتاج نحن اليوم إلى مكتبات ممتلئة بالكتب والمجلدات وإلى المصحف مخطوطا بأربعة عشر قراءة ومثلها تقريبا من الروايات وتفاسير بالمأثور وأخرى بالرأي وكتب في الحديث

قد تسأل سؤالا مهما : أي حكمة في إخفاء الميزان الذي لا بد منه لإستقامة الحياة وأداء الإنسان للرسالة التي لأجلها خلق؟ الحكمة هي في إبتلاء الإنسان المعلم هل يستثمر مداركه العقلية في البحث والإجتهاد والتجديد والتحديث أم يجمّد رساميله الفكرية والعقلية في البيوت المثلجة.

وفي تفسيره وأخرى في الفقه وأصوله وفي السيرة والتاريخ الإسلامي .. ألا نحتاج نحن اليوم إلى ذلك وأضعاف أضعافه وقد يلتحق الواحد منا بحسن فقه الرسالة لتكون واضحة جلية في صدره بكتابها وميزانها وقد لا يلتحق بعشر معشار ذلك؟ كيف أدركت (سمية) ذلك وهي لا تملك شيئا أبدا مما نملك نحن اليوم من «علوم» و«معارف» وتفاصيل التفاصيل التي نظل نتجادل فيها حتى يقتل بعضنا بعضا بالنيران الصديقة.. كيف أدركت هي ذلك ولم ندرك نحن من ذلك إلا قليلا وقد توفر لنا كل شيء.

أظن أن ذلك المثال (مثال سمية) كفيل بأن يجعل طرح السؤال عن الميزان طرحا جادا لا لهو فيه. مثال (سمية) ينبئنا أن قليلا جدا من القرآن كفيل بالهداية التامة على الصراط المستقيم إلى حد الجود بالروح طوعا. أي كفيل بالهداية إلى الميزان. مثال (سمية) ينبئنا أن الظفر بالميزان لا يحتاج علوما كثيرة ولا معارف وفيرة ولا حتى إحاطة كمية ظاهرة بالقرآن الكريم. أثر عن حبر الأمة وترجمان القرآن إبن عباس قوله :«ثوّروا القرآن» بل أسنده بعضهم إلى طبقة الحديث النبوي. تثوير القرآن معناه تدبره. التثوير والتدبر كلاهما ينفذ إلى الأعماق والبطون والمقاصد والمفهومات. ألا ترى أن التدبر معناه لغة الإتيان من الدبر. دبر الشيء خلفه وظهره. دبر الشيء هو الجهة التي لا تنكشف حتى تعمل على كشفها. ألا ترى أننا نحفل اليوم بالقراءات والروايات إلى حد المغالاة في تفاصيل فروعها الجزئية الصغيرة جدا محل الإختلاف بين أهلها في حين يكون حفلنا بالتدبر والتأمل والتفكر والتثوير والفهم والفقه حفلا صغيرا. ألا ترى أن من يتحدث اليوم عن السنن الإجتماعية لنشوء الحضارات والدول والثقافات ولتقهقرها إنطلاقا من الآي القرآني لا يعدّ في زمرة العلماء ولا الفقهاء بل ربما عدّ في زمرة المتفيهقين. ومثله من يتحدث عن مقاصد الوحدة والإعتصام ونبذ

إنّ مثال سمية أم عمار من آل ياسر كفيل بأن يجعل طرح السؤال عن الميزان طرحا جادا لا لهو فيه. مثال سمية ينبئنا أن قليلا جدا من القرآن كفيل بالهداية التامة على الصراط المستقيم إلى حد الجود بالروح طوعا. أي كفيل بالهداية إلى الميزان.

التفرق والمقاومة والظفر بالعلم. ومثله من يتحدث عن العلوم الكونية التي بها تحتل أرضنا ويهتك عرضنا.

لنكشف عن الميزان من طريق القرآن

قبل ذلك لا بد لنا من التواضع على حقيقتين. الحقيقة الأولى هي أن القرآن يفسر بعضه بعضا. الحقيقة الثانية هي أن النظم القرآني منسجم إنسجاما لا مزيد عنه فهو منسجم عندما يستخدم هذا هنا وليس هناك وهو منسجم عندما يستخدم هذا هنا وهناك. ذلك الطريق من النظم المنسجم إنسجاما محيّرا يراد منه ـ مما يراد ـ إيقاظ العقول إلى حقائق كبيرة لا يستهدفها بالعبارة ولا حتى بالإشارة أحيانا ولكن بالإقتضاء. الذين يستقرؤون الكتاب العزيز يدركون ذلك جيدا. إذ ليس هناك طريق أوفى من طريق الإستقراء الجامع ـ وليس الإستقراء العشوائي الذي يقوم به الناس اليوم في الأسواق مثلا ثم يطبقونه على القرآن ـ لحسن فقه أي قضية تعرض لها الكتاب العزيز. الإستقراء لا بد منه لأن النظم القرآني مبثوث بثا عجيبا فهو يتعرض لهذا هنا بكلمة واحدة عابرة ثم يفصل تلك الكلمة منبسطا هناك. ليس هناك قضية واحدة ـ تقريبا ـ تعرض لها الكتاب العزيز في موضع واحد فوفاها هناك ما يلزمها. وبذا جمع بين خلّتين هما في الأصل متعارضتان : الحكمة والتشابه.

الإستقراء لا بد منه لأن النظم القرآني مبثوث بثا عجيبا فهو يتعرض لهذا هنا بكلمة واحدة عابرة ثم يفصل تلك الكلمة منبسطا هناك. ليس هناك قضية واحدة ـ تقريبا ـ تعرض لها الكتاب العزيز في موضع واحد فوفاها هناك ما يلزمها. وبذا جمع بين الحكمة والتشابه.

الميزان في القرآن دلالات ثلاث

الميزان هو الشورى

وذلك بسبب ذكره في سورة الشورى لأول مرة بحسب الترتيب النهائي للسور في الكتاب العزيز. ذكر الميزان في القرآن المكي مرة (الشورى) وذكر في القرآن المدني مرتين (الرحمان والحديد). ذلك يعني أن الميزان لا بد

له لإعداد الجماعة أولا. أي جماعة واحدة متشاورة رغم ضعفها ورغم تعددها. لا بد من ذلك في القرآن المكي الذي يستهدف التأهيل والإعداد والتكوين في مرحلة إنتقالية لا بد من حقنها بالأمصال الواقية بمثل ما يحقن الطفل أو الرضيع بذلك ليقاوم الأمراض التي قد تداهمه في قابل حياته. فلما تحرر الناس في المدينة بالهجرة كان لا بد من إتمام ثلثي الميزان أي : العلم المفضي إلى الإيمان الصحيح والحديد المفضي إلى القوة ولكنها قوة العدل والخير والرحمة وليست قوة الصلف والجبروت. لم يكن ذلك ممكنا في القرآن المكي. لم يكن مطروحا عليهم عمارة مكة حتى يكتسبوا العلم ولم يكن مطروحا عليهم قتال أهل مكة حتى يصنعوا الحديد. كانوا ضحايا الحديد في مكة فلما قويت شوكتهم أمروا بإكمال الميزان ليكون الحديد حاميا للميزان.

ذكر الميزان في القرآن المكي مرة (الشورى) وذكر في القرآن المدني مرتين (الرحمان والحديد). ذلك يعني أن الميزان لا بد له لإعداد الجماعة أولا. أي جماعة واحدة متشاورة رغم ضعفها ورغم تعددها، فلما تحرر الناس في المدينة بالهجرة كان لا بد من إتمام ثلثي الميزان أي: العلم المفضي إلى الإيمان الصحيح والحديد المفضي إلى القوة.

ورد في سورة الشورى : «الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب»[5]. أصل الجملة هو : الله الذي أنزل الكتاب والميزان كلاهما بالحق. المتفق عليه هو أن الله أنزل الكتاب والميزان وهو التعبير نفسه الوارد في سورة الحديد. والمختلف فيه هو أن الإنزال بالحق مقتصر على الكتاب أم يشمل الميزان كذلك. مفعولات الإختلاف هنا ليس لها مدى بعيدا.

وورود ذلك في سورة الشورى يعني ـ من جملة ما يعني ـ أن الميزان نظفر به ـ أو نظفر بجزء منه ـ عندما نتخذ الشورى آلة نحسم بها الآراء والخلافات ونكرم بها الإنسان ونجعله شريكا في الأسرة وفي المؤسسة وفي الحزب وفي المنظمة وفي المصنع وفي الحكم ومؤسساته. ولا شك في أن

---

[5] سورة الشورى - الآية 17..

الشورى رمز إلى وحدة الجماعة. الشورى آلة من أكبر آلات رص الصف الداخلي ولمقاومة العداوات الخارجية.

الميزان هو التوحيد الصافي ثمرة للعلم

وذلك بسبب ورود الميزان ـ في ثاني سورة من بعد الشورى بحسب الترتيب النهائي للسور ـ في سورة الرحمان. سورة الرحمان رمز إلى الله الذي يطلب منا القيام بحقه كاملا أي التوحيد الصافي من كل شائبة شرك وتلك هي الرسالة التي نرددها بالألسنة بمعدل أربع ساعات ونيف على مدار الحياة (إياك نعبد وإياك نستعين). الميزان هنا في الحقيقة مزدوج. هو مزدوج لأن التوحيد الصافي لا سبيل إليه إلا ذلك السبيل الذي إفتتحت به سورة الرحمان. «الرحمان. علم القرآن. خلق الإنسان. علمه البيان»[6]. ألا ترى أن النظم القرآني خالف الترتيب الزمني لوقوع الأحداث. كيف ذاك؟ ذكر أنه علم القرآن ثم ذكر أنه خلق الإنسان. والترتيب الزمني لوقوع الأحداث ينبئنا دون ريب أنه خلق الإنسان أولا ثم علمه القرآن وعلمه البيان. ما هي الرسالة من ذلك؟ الرسالة هي : قيمة الإنسان في أسواق القيم الإنسانية هي بقدر علمه القرآن وبقدر علمه البيان. ذلك هو حظه وذلك هو قدره وتلك هي قيمته. إذ لا قيمة لخلقه (بفتح الخاء) إلا بقيمة خلقه (بضم الخاء). الميزان إذن هنا مزدوج فهو التوحيد الصافي ولكن المفضى إليه بطريق العلم وليس بطريق الجهل أو التقليد أو أي طريق آخر غير طريق العلم. الميزان هو إذن ـ هنا ـ العلم في الحقيقة. وليس التوحيد إلا أثرا من آثار العلم. العلم يسبق التوحيد وهو ينجبه. ولذلك قال سبحانه : «إنما يخشى الله من عباده العلماء»[7].العلاقة هنا طردية.

قيمة الإنسان في أسواق القيم الإنسانية هي بقدر علمه القرآن وبقدر علمه البيان. ذلك هو حظه وذلك هو قدره وتلك هي قيمته. إذ لا قيمة لخلقه (بفتح الخاء) إلا بقيمة خلقه (بضم الخاء). الميزان إذن هنا مزدوج فهو التوحيد الصافي ولكن المفضى إليه بطريق العلم وليس بطريق الجهل أو التقليد أو أي طريق آخر غير طريق العلم.

---

[6] سورة الرحمان – من الآية 1 إلى الآية 4.

[7] سورة فاطر – الآية 28.

لنتوقف قليلا لأن الميزان هنا يعلمنا أشياء أخرى. الميزان هنا هو:«والسماء رفعها ووضع الميزان. ألا تطغوا في الميزان. وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان. والأرض وضعها للأنام»[8]. ذكر الميزان في هذا السياق الصغير جدا ثلاث مرات بالإسم ورابعها بفعل الوزن. ولم ينفك هذا السياق الصغير جدا عن ذكر المقصد الأسنى من الميزان وهو : القسط. ألا ترى معي أن هذا السياق الصغير جدا نفسه قد حمل إلينا قصة الميزان «الفقيد» كلها. وبذلك يكون ذكر الميزان في الكتاب كله : 5 مرات. (مرة في الشورى ومرة في الحديد وثلاث مرات هنا في الرحمان). وبذلك يكون الميزان مرتبطا بالحق مرة (في الشورى) وبالقسط مرتين (مرة هنا في الرحمان ومرة هناك في الحديد). ألا ترى معي من موافقات الكتاب العجيبة أن عدد ورود الميزان هو عدد إقامة الصلوات نفسه؟ كأنه يقول لنا : أقيموا الميزان بقدر إقامة الصلاة. كأنه يقول : العلاقة معي في معراج الصلاة لا تقبل إلا بالعلاقة مع الميزان لإقامة القسط. ليس ذلك بعجيب ولا بغريب بسبب أن الوحي الكريم كثف رسالته وركز مقصده في آيتين أخريين ولكن حقهما الجمع من لدنّا نشدانا للفهم الموضوعي وهجرانا للفهم الموضعي إذ قال في الأولى :«يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله» [9]. وقال في الثانية :«يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط» [10]. ألا ترى أنهما مقصدان أسنيان مكثفان مركزان لا يسبقان ولا يتقدمان: قوّامية جماعية لله وقوامية جماعية بالقسط وشهادة جماعية لله وشهادة جماعية بالقسط. أي لله القوامية والشهادة. وللناس القوامية

يكون الميزان مرتبطا بالحق مرة (في الشورى) وبالقسط مرتين (مرة في الرحمان ومرة في الحديد). ألا ترى معي من موافقات الكتاب العجيبة أن عدد ورود الميزان هو عدد إقامة الصلوات نفسه؟ كأنه يقول لنا : أقيموا الميزان بقدر إقامة الصلاة.

[8] سورة الرحمان - من الآية 7 إلى الآية 10.
[9] سورة النساء - الآية 135.
[10] سورة المائدة - الآية 8.

بالقسط والشهادة بالقسط. أي التكافل لإخلاص الشهادة لله والتكافل لإخلاص القسط للناس. هما إتجاهان متعاكسان في الجغرافيا ومتحدان في الغرض.

رسالة أخرى لا بد من الكشف عنها : الميزان خمسة أخماس. ثلاثة أخماس منها في الرحمان أي في العلم الصحيح المفضي إلى التوحيد الصافي. خمسان آخران أحدهما في الشورى والآخر في الحديد. ذلك يعني أن العلم هو ثلاثة أخماس الميزان. إذ بالعلم تتوفر الشورى بما هي علوم إدارية وسياسية وإجتماعية وبالعلم كذلك يتوفر الحديد. تقسيم عجيب. العلم هو أسّ الميزان. العلم هو الذي ينشئ التوحيد الصافي والإيمان الذي يكسب منه صاحبه خيرا. العلم هو أبو الحديد وهو أبو الشورى. تلك هي أعمدة الأمة المفلحة : علم + شورى + حديد. تلك هي حصيلة الميزان.

العلم هو ثلاثة أخماس الميزان. إذ بالعلم تتوفر الشورى بما هي علوم إدارية وسياسية وإجتماعية وبالعلم كذلك يتوفر الحديد. تقسيم عجيب. العلم هو أسّ الميزان. العلم هو الذي ينشئ التوحيد الصافي والإيمان الذي يكسب منه صاحبه خيرا.

دعنا نخلص إلى الخلاصة متعجلين : الميزان «الفقيد» هو الحق وهو القسط وهو شقيق الكتاب أي شقيق القرآن. ومقصده الأسنى : إقامة القسط بين الناس وللناس. وسنتبيّن من بعد قليل أن ذلك المقصد الأسنى للميزان لا بد من (الحديد) لتحققه. أي لا بد من القوة المدنية والقوة العسكرية.

الميزان رمز للعدل والقسط. الدلالة الإصطلاحية للميزان هي العدل. الميزان رمز العدل وكفى.

الميزان هو الحديد :

وذلك بسبب وروده ـ كما رأينا في مقدمة هذا المقال ـ في سورة الحديد. الحديد هو رمز القوة وهي قوتان. قوة مدنية توفر رغد العيش وذلك في قوله سبحانه في هذا السياق :«ومنافع للناس». أي أن الحديد يوفر المنافع

المادية الدنيوية للناس. وقوة عسكرية توفر الحماية لنا وللمستضعفين من حولنا. وذلك في السياق ذاته الذي يقول فيه :«فيه بأس شديد». المقصود بالحديد إذن هو القوة بمعنييها. ولكن يعلمنا الميزان هنا في سياق (الحديد) أمرا آخر. يعلمنا أن الميزان إنما مقصده الأسنى هو :«ليقوم الناس بالقسط». أي أن الميزان يبحث عنه ويظفر به لإقامة القسط بين الناس والقسط هو مطلق العدل وهو دقة العدل.

حصيلة الإستقراء هي : الميزان هو الشورى. وهو العلم (المفضي بالضرورة إلى التوحيد). وهو الحديد.

الميزان هو إذن بالضرورة : الجماعة الواحدة المتكافلة على مبادئها والتي تدير الشورى بينها. وهو بالضرورة كذلك : العلم الذي يحمل معه دليله إذ لا حجر على البحث العلمي ولا يفضي مثل ذلك البحث إلا إلى الإسلام. وهو بالضرورة كذلك : القوة المدنية والعسكرية التي توفر للجماعة رغد العيش وتنبذ نكده بمثل ما توفر الحماية الأمنية للجماعة ولمن حولها من المستضعفين.

الميزان هو إذن بالضرورة : إقامة القسط بين الناس. ولأن إقامة القسط بين الناس لا بد لها من جماعة موحدة بالشورى .. ولا بد لها من العلم في حقول الإدارة السياسية والمالية .. ولا بد لها من القوة بمعنييها الواردين.. لأن إقامة القسط بين الناس لا بد لها من كل ذلك كان توفير ذلك مقدما. إقامة القسط بين الناس هو الميزان وهو المقصد الأسنى لرسالة الإسلام لمن يستقرئ الإسلام في مصدريه. وذلك المقصد الأسنى يحتاج إلى وسائل مقاصدية كبرى وهي ثلاث : الجماعة الشورية و العلم المؤسس للإيمان وللحضارة والقوة التي تبث الخير والرحمة.

الميزان هو الجماعة الواحدة المتكافلة على مبادئها والتي تدير الشورى بينها. وهو كذلك العلم الذي يحمل معه دليله إذ لا حجر على البحث العلمي ولا يفضي مثل ذلك البحث إلا إلى الإسلام. وهو كذلك: القوة المدنية والعسكرية التي توفر للجماعة رغد العيش.

حصيلة الإستقراء في الكتاب العزيز إذن نتيجتها هي أن الميزان هو : إقامة القسط بين الناس وللناس وذلك يتوسل إليه بالجماعة والعلم والقوة.

الميزان شقيق القرآن.

تلك هي الخلاصة الراسخة. لا نهضة تؤشر لها السنن الماضية لغشيان أرضنا إلا بإعادة نسج حبال الودّ بين الشقيقين : الكتاب والميزان. الكتاب هو الدستور النظري والميزان هو التنفيذ العملي لذلك الدستور النظري.

لا نهضة تؤشر لها السنن الماضية لغشيان أرضنا إلا بإعادة نسج حبال الودّ بين الشقيقين: الكتاب والميزان. الكتاب هو الدستور النظري والميزان هو التنفيذ العملي لذلك الدستور النظري

الكتب المنزلة ثلاثة وليس إثنين فحسب.

نقرأ في الكتب منذ عهود أن الله أنزل إلينا كتابين : أحدهما مسطور وهو القرآن والآخر منظور وهو الكون. هذا صحيح. ولكن لفرط غشمتنا أنسينا الكتاب الثالث أي الكتاب المعمور وهو الميزان. الكتاب المسطور هو النظرية الدستورية العامة والكتاب المنظور هو المعرض الواسع الكبير الذي يصدق الكتاب المسطور في عقائده وتاريخه بما يفتح على الكون والتضاريس والتاريخ وما يعتمل في النفس البشرية. أما الكتاب المعمور فهو الميزان الذي لا يستغني عنه لا الكتاب المسطور ولا الكتاب المنظور. إذا آمنا بالكتاب المسطور وصدقنا ثم عمقنا ذلك الإيمان وذلك التصديق بالنظر في الكتاب المنظور نظل مؤمنين دون ريب. ولكن دون عمل صالح. العمل الصالح الذي هو ثمرة الإيمان بالضرورة لا يمكن له أن يتسلل إلينا إلا بعد تنفيذ الكتاب المعمور أي الميزان. الميزان هو الكتاب المعمور الذي يفتح لنا حقول الإستثمار لرساميل الكتابين السابقين أي : الكتاب المسطور والكتاب المنظور.

أسس المنهاج التفكيري الأرشد

مقدمة

الإنسان كائن مفكر من نوع خاص ذلك أن العجماوات تفكر كذلك ولكنها تفكر تفكيرا غريزيا من مثل إدراكها أن السقوط في بئر يفضي بها إلى الموت فتتجنبه. هناك إذن تفكيران : تفكير غريزي تشترك فيه العجماوات مع الإنسان وتفكير عقلي أكثر تركيبا يختص به الإنسان. التفكير العقلي المركب هو أن يعتقد الإنسان في وجود عوالم غيبية عن حسه لا يدركها سوى بفؤاده ولذلك يكون الإيمان بالغيب بعدا فكريا عقلانيا رشيدا ينمّ عن حصافة وإربة وليس كما تردد ببغاوات الفلسفة الغربية المادية أن الإيمان بالماورائيات اللامحسوسة هو إرتداد بالبشرية إلى الشعوذة والصنمية والوثنية. أنا مفكر فأنا إذن موجود ـ بمثل ما قال الفليسوف الكبير ديكارت ـ يمكن أن تترجم إسلاميا : أنا أفكر فأنا إذن مجدد. ذلك أن التفكير لا يهب الوجود فحسب بل يهب التجديد. إنما وهب الله سبحانه الإنسان تلك الملكات الفكرية الكبيرة تأهيلا له للقيام بفرائض الخلافة والعبادة والعمارة وإقامة العدل ولذلك علق سبحانه الإيمان على العقل حتى قال :«إنما يخشى الله من عباده العلماء» [1]. العلم ثمرة من ثمرات التفكير دون ريب. هناك علم مجرد تلتقطه حواسنا المادية من سمع وبصر كمن يعلم أن طارقا بالباب عندما يسمع طرقا. وهناك علم مركب تلتقطه أفئدتنا عندما تحتاج إلى تحليل ما ينتهي إليها من علوم مجردة أو ما تلتقطه الخيالات والتصورات. ولا ريب في أن الإنسان يفكر لضمان

التفكير العقلي المركب هو أن يعتقد الإنسان في وجود عوالم غيبية عن حسه لا يدركها سوى بفؤاده ولذلك يكون الإيمان بالغيب بعدا فكريا عقلانيا رشيدا ينمّ عن حصافة وإربة.

---

[1] سورة فاطر - الآية 28..

سعادته وإكتشاف الكون من حوله لتسخيره ومعلوم أن حب الإطلاع جبلّة بشرية والمقصد منه إطلاق العنان للكشف والإختراع والتدبر. كما أن الإنسان صنيعة بيئات وأحداث في مختلف أطوار حياته مما حفر أخاديد غائرة في ذاكرته. ولكنه صنيعة أمرين آخرين من جانب آخر : مخلفات الوراثة التي لا ينفك عنها مولود بحدود محدودة وكسوبه التي صنعها بيديه من تجارب ومعايش ومعافسات. الإنسان صنيعة أغذية مادية في بدنه وصنيعة أغذية عقلية في فكره. ما نريد الإنتهاء إليه هو أن التفكير نطفة الصناعة في حياة الإنسان فلا يكسب المرء شيئا إلا من بعد الإمتلاء بالتفكير فيه. ألا ترى أن علاقة الإيمان بالعمل الصالح ـ في الكتاب العزيز الهادي وفي الواقع سواء بسواء ـ هي دوما علاقة تابع بمتبوع وأم بولد. لذلك تقدم الإيمان العمل دوما. الإيمان هنا هو التفكير الذي يعمر العقل والقلب والفؤاد. تلك مسلمات بدهية لا تحتاج إلى بسط. فإذا كانت تلك هي منزلة التفكير في الحياة أفلا يجدر بنا أن نراجع منهاجنا التفكيري لننظر في أسسه ومقوماته لعلنا نجددها أو نرعاها أو نعمقها.

أن التفكير نطفة الصناعة في حياة الإنسان فلا يكسب المرء شيئا إلا من بعد الإمتلاء بالتفكير فيه. ألا ترى أن علاقة الإيمان بالعمل الصالح ـ في الكتاب العزيز الهادي وفي الواقع سواء بسواء ـ هي دوما علاقة تابع بمتبوع وأم بولد. لذلك تقدم الإيمان العمل دوما.

مصادر العلم وعلاقتها بحقول المعرفة

هذا موضوع مهم بسبب أن كثيرا من الناس اليوم يقعون في خطإ إسمه: وضع الشيء في غير موضعه. لنضرب على ذلك مثلا. إذا جاءك ملحد يريد تحديك فيقول لك : لن أؤمن بالله حتى أراه بعيني هاتين أو ألمسه بأنملي هذا أو أسمع صوته. هل تظن أنك عاجز بسبب أنك لا تقدر على تلبية رغبته حرصا منك على إيمانه. لا. قطعا. لم؟ لأن الأمر الذي يريد هذا الملحد أن يبسط عليه حواسه المادية لا يقع تحت دائرة الحواس المادية. معنى ذلك هو أن الملحد خلط بين أمرين : أمر لا بد له فيه من الحس المادي وأمر لا بد له فيه من الإدراك العقلي. وجود الله سبحانه ينتمي إلى الحقل العقلي

وليس إلى الوجود المادي الذي يتسنى لنا اليوم معاينته. العجز إذن عجزه هو وليس عجزك أنت. وقس على ذلك كل من يريد معرفة شيء من غير موضعه المناسب. شأن أولئك هو بالتمام والكمال شأن من يبتغي عسلا من دبور. البحث في الأمورالعقلية المعرفية العلمية مثله مثل البحث في الأمور المادية أي أن لكل موضوع حقله المناسب فإن ضللت الحقل ضللت الحق دون ريب.

مصادر المعرفة أربعة

مصدر الإخباريات عن الغيب المطلق وهذا المصدر لا بد من البحث فيه بوسيلة العقل تفكرا وتدبرا وتأملا فإذا تعزر ذلك التفكر بتوجيه من الوحي أصيبت الحقيقة كاملة صحيحة.

ومصدر المحسوسات وحقلها الماديات والتجريبيات وهذا المصدر لا بد من البحث فيه بوسيلة الحواس المادية المعروفة إذ لو ظللت تحدث عنّينا (مجبوب الذكر) عن اللذة الجنسية قرنا كاملا بالصوت والصورة الحية لما أدرك عشر معشار ما تريد إبلاغه إياه.

ومصدر الأثريات التاريخية وحقلها النقل الصحيح ولذلك لا يتساءل الناس اليوم عن أحداث تاريخية غابرة جدا وسحيقة جدا أسبق حتى من بعثة الرسل الأخيرة من مثل موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام جميعا. لا يتعرضون لذلك بالمساءلة لأنه إستقر في روعهم أن النقل التاريخي الصحيح أتى بها. أنى لتلك النقول التاريخية ألا تأتي بما هو بعدها وأشهر منها من مثل بعثة محمد عليه الصلاة والسلام. الذنب هنا ليس ذنب التاريخ ولكن الذنب ذنب أجهزة التلقي عند الإنسان وذلك عندما يتلزم التعصب الأعمى أو يكيل بمكيالين.

مصادر المعرفة أربعة: مصدر الإخباريات عن الغيب المطلق وهذا المصدر لا بد من البحث فيه بوسيلة العقل تفكرا وتدبرا وتأملا ومصدر المحسوسات وحقلها الماديات والتجريبيات ومصدر الأثريات التاريخية وحقلها النقل الصحيح والمصدر الرابع الأخير هو مصدر الإلهامات وحقلها الأرواح والرؤى وغير ذلك من الأحاديث النفسية.

والمصدر الرابع الأخير هو مصدر الإلهامات وحقلها الأرواح والرؤى وغير ذلك من الأحاديث النفسية وقد حفل بهذا المصدر جموع من الناس فمنهم من لزم به الحد المعقول الذي لا يشغب على المصادر الثلاثة الأخرى ومنهم من جعله حكما لا معقب لحكمه يخصم به إخباريات الوحي وتفكرات العقل ونقول التاريخ.

المقصود هنا هو معرفة تلك الحقول المعرفية لأجل البحث فيها عما يمكن أن نجده في كل منها إذ لو حدث منا خلط لكتب علينا التيه. لو طلب منك دليل على حدوث معركة داحس والغبراء العربية الشهيرة فما عليك سوى أن تعرف أين هو مقطن ذلك العلم وأين هو مسكنه. مسكنه هو التاريخ. التاريخ تعتمد فيه على النقول إثباتا ونفيا. أما لو ظللت تبحث عن دليل إثبات لتلك المعركة في العقليات أو في الإلهامات أو في المحسوسات فلن تجني شيئا.

التخصص المعرفي لا ينفي التخصص الفكري وبالتالي ليس على المرء أن يلزم حقلا واحدا من المعرفة لا يبرحه ولكن عليه أن يميز بين تلك الحقول المعرفية تمييزا صحيحا لينسب إلى كل حقل علومه ومعارفه.

التخصص المعرفي لا ينفي التخصص الفكري

ليس معنى ما تقدم آنفا أنه على المرء أن يلزم حقلا واحدا من المعرفة لا يبرحه ولكن عليه أن يميز بين تلك الحقول المعرفية تمييزا صحيحا لينسب إلى كل حقل علومه ومعارفه. شهد تاريخنا أزهى فتراته الفكرية إجتهادا وتجديدا وتحديثا في العصر العباسي وما بعده قليلا. في تلك المدة نشأت مدارس تفكيرية إسلامية كثيرة إستصحبت القاعدة المذكورة آنفا أي نسبة كل علم إلى حقله المناسب ثم تخصصت تلك المدارس بحسب ما تسنى لأهلها. فكانت المدرسة الكلامية التي نافحت عن العقيدة الإسلامية بالأسلحة ذاتها التي هوجمت بها تلك العقيدة من لدن الحضارة الرومانية ومن لدن طوائف نصرانية ويهودية وحضارات مشرقية (تعرف في التاريخ

بالثقافة الغنوصية). أسست تلك المدرسة لقواعد فكرية عظيمة فكانت منها المدرسة الأشعرية التي عدت الغطاء الكلامي لفقه أهل السنة بسبب إعتدالها مقارنة مع غيرها من المدارس فيما يتعلق بالموضوعات المبحوثة من مثل فعل الإنسان ومسؤوليته وغير ذلك. وكانت منها المدرسة الماتريدية التي لا تختلف إلا قليلا جدا عن الأشاعرة. وكانت المدرسة الإعتزالية التي عولت على العقل كثيرا. وكانت المدرسة الخارجية (نسبة إلى الخوارج) من قبل ذلك بكثير إذ أنها أول تلك المدارس ظهورا في التاريخ الإسلامي وكان ظهورها ـ بمثل بقية المدارس تقريبا ـ لأسباب سياسية وبذا تلقح البحث الكلامي منذ البداية بنشأة سياسية واضحة سوى أن بعض الولاءات السياسية لم تكن موفقة كثيرا لما شابها من إستخدام للإقصاء والعنف ضد الخصوم الكلاميين بمثل ما جرى للخوارج والشيعة بوجه خاص من لدن المعتزلة الذين تحالفوا مع العباسيين. وكانت المدرسة الشيعية المعروفة. وكانت مدرسة المرجئة ومدرسة القدرية ومدرسة الجبرية وغير ذلك. كل ذلك كان تحت سقف المدرسة الكلامية التي نشأت بالأساس للمنافحة عن العقيدة الإسلامية. وتوجهت معارف أخرى في إتجاه المدرسة الأصولية عاكفة على إستخلاص الأصول الفقهية الكلية من الأدلة الجزئية حينا ومن الإستقراء الجامع العام في نصوص الوحي ومن ذا نشأ علم أصول الفقه الناظر في فلسفة الإستدلال والإستنباط. تأثرت التدوينات الأصولية في جزء مهم منها بالمدرسة الكلامية فنشأت المدرسة الفقهية الفروعية التي مثلها تاريخيا الأئمة الخمسة المعروفون ثم آل الأمر بنا اليوم إلى التدين من لدن غالبية الأمة بثمانية مذاهب فقهية معلومة سوى أن عدد المذاهب الفقهية المندرسة كان أكثر من ذلك بكثير. تقاسم المدرسة الفقهية إتجاهان كبيران هما الإتجاه الأثري الذي يقدم الأثر المنقول

تأثرت التدوينات الأصولية في جزء مهم منها بالمدرسة الكلامية فنشأت المدرسة الفقهية الفروعية التي مثلها تاريخيا الأئمة الخمسة المعروفون ثم آل الأمر بنا اليوم إلى التدين من لدن غالبية الأمة بثمانية مذاهب فقهية معلومة سوى أن عدد المذاهب الفقهية المندرسة كان أكثر من ذلك بكثير

حتى عن الصحابة أو حتى فيمن جاء بعدهم أحيانا وفي حالات خاصة على إستخدام الأقيسة العقلية وإستعمال الإجتهاد بصفة عامة. والإتجاه العقلي إلى جانب الإتجاه الأثري النقلي. مما يلاحظ هنا أن كثيرا من تلك التطورات والتنوعات كان منشؤها ردفعلي ولكنه رد فعل إيجابي مقصده تعديل الميزان التفكيري في الأمة أن ينخرم لفائدة هذا الإتجاه أو ذاك. من ذلك أن الإتجاه الأصولي الذي توخى الإستنباط من أعلى إلى أسفل أي من إستقراء كلي جامع إلى نحت قواعد أصولية قابله إتجاه الفقهاء الذين رأوا في ذلك الإتجاه الأصولي إنخراما قد يهون من شأن النص الجزئي فبادروا إلى سلوك الإتجاه المعاكس أي الإعتماد على النص الجزئي لإستنباط قاعدة أصولية. والشأن نفسه تقريبا بين الإتجاهين الأثري والعقلي. كما يمكن لك أن تعد في المدرسة الفقهية إتجاهين آخرين : إتجاه ظاهري وإتجاه إستقرائي تحليلي. كل ذلك تحت سقف المدرستين الأصولية والفقهية. كما نشأت المدرسة المقاصدية سيما مع الجهابذة الذين أسسوا السلم الأولي لعلم المقاصد أي السلم الثلاثي الذي لم يجد حتى اليوم من يراجعه لمتانته وتوافقه مع السياسة التشريعية الإسلامية أي : الضرورات والحاجات والتحسينات. جد إجتهاد معاصر في الضرورات وهو إجتهاد وجيه ولكن أصل السلم الثلاثي ذاك لم يجد من يراجعه. ثم إستقل العلم مع العلامة الشاطبي ثم مع إبن عاشور ثم آل إلى الموت مرة أخرى. الإتجاه المقاصدي نشأ كذلك رد فعل على ما إعتبر إيغالا في الجمود على النصوص وحروفها ومبانيها بما يعطل عطاء الشريعة بمصالحها التي جاءت بها إلى الإنسان. كما نشأت المدرسة المنطقية التي إشتبكت كثيرا مع المنطق اليوناني بمثل ما إشتبك الكلام مع الفلسفة اليونانية. ونشأت المدرسة اللغوية البيانية وبزغت فيها نجوم كبيرة عالية حفظت وعاء الإسلام وخصبت التفسير

نشأت المدرسة المقاصدية مع الجهابذة الذين أسسوا السلم الأولي لعلم المقاصد أي السلم الثلاثي الذي لم يجد حتى اليوم من يراجعه لمتانته وتوافقه مع السياسة التشريعية الإسلامية أي: الضرورات والحاجات والتحسينات.

الذي نشأ هو الآخر مدرسة ثرية ذات إتجاهات معلومة فهذا تفسير بالمأثور وذاك بالرأي وذاك جامع بينهما وذلك تفسير فقهي والآخر تفسير لغوي بياني وتفسير موضعي ـ وهو الغالب الأعم ـ وتفسير موضوعي على مستوى الوحدة السورية فيما يطمح معاصرون إلى تفسير موضوعي عام جامع يشق الكتاب العزيز الهادي كله لإستخراج ما يتعلق بالأسرة مثلا في سفر واحد وهو عمل لو تصدى له الرجال في مؤسسات علمية راسخة لكان إضافة لم يسبقنا إليها أحد من قبل. كما نشأت المدرسة الصوفية بشقيها المعتدل والمغالي ولم يكن مشروع الإمام الغزالي[2]. في الإحياء سوى صدى لذلك المشروع الصوفي التربوي المعتدل وكان هو الآخر رد فعل إيجابي على ما رآه إستحالة آلية من الأحكام الفقهية إلى حركات لا أثر فيها للحياة الروحية. لا يهمنا هنا إحصاء المعتدلين ولا المغالين في أي مدرسة من المدارس التي أثمرها التراث بتاريخه الثر الخصيب. ذلك أمر يخرج عن دائرة الإهتمام هنا. الذي يهمنا تقريره هنا هو أن تلك المدارس المتنوعة حتى تحت سقف الإتجاه الواحد لم تكن سوى أثرا من آثار خصوبة المنهاج التفكيري في الأمة. الذي يهمنا هنا تقريره هو أن تلك المدارس إلتزمت قاعدتين في التفكير لا بد منها : قاعدة البحث عن الشيء في حقله المناسب كما مر بنا آنفا. وقاعدة الحرية الفكرية في ذلك الحقل إذ لم يكن المرجع دوما لتلك المدارس سوى الوحي السماوي وبذلك ظلت تلك المدارس في الأعم الأغلب مدارس سنية بالتعبير المعاصر أي مدارس ذات إجتهادات لا تبرح السقف الإسلامي في الجملة. ذلك هو الشرط المشروط

لم تكن المدارس المتنوعة حتى تحت سقف الإتجاه الواحد سوى أثرا من آثار خصوبة المنهاج التفكيري في الأمة. وقد التزمت تلك المدارس قاعدتين في التفكير لا بد منها : قاعدة البحث عن الشيء في حقله المناسب كما مر بنا آنفا. وقاعدة الحرية الفكرية في ذلك الحقل إذ لم يكن المرجع دوما لتلك المدارس سوى الوحي السماوي.

---

[2] أبو حامد محمد الغزّالي الطوسي النيسابوري الصوفي الشافعي الأشعري، أحد أعلام عصره وأحد أشهر علماء المسلمين في القرن الخامس الهجري،(450 هـ - 505 هـ / 1058م - 1111م). كان فقيهاً وأصولياً وفيلسوفاً

وهو أن أي إجتهاد في أي حقل معرفي عندما يظل مرتبطا بأصله أي وحي السماء من جهة وباحثا عن تغيير الواقع ومصلحة الناس من جهة أخرى فإنه لن يبرح ذلك السقف ولا ذلك الأديم الثابت الراسخ. وتظل في مقابل ذلك إمكانيات القرب والبعد دوما واردة. لا يهمنا هنا سوى تقرير أن تلك المدارس هي ثمرة من ثمرات تفعيل المنهاج التفكيري بحسب ما فهمته من الإسلام ومن معطيات الواقع ومن ذلك كذلك ما أثرت به وتأثرت به تفاعلا مع ثقافات أخرى وحضارات أخرى.

إن أي إجتهاد في أي حقل معرفي عندما يظل مرتبطا بأصله أي وحي السماء من جهة وباحثا عن تغيير الواقع ومصلحة الناس من جهة أخرى فإنه لن يبرح ذلك السقف ولا ذلك الأديم الثابت الراسخ.

آفات التفكير

التفكير جهاز حي وكائن نشيط وهو معرض للإصابة بالآفات بمثل ما تتعرض لذلك أجسامنا. ويجدر بنا أن نتعرض إلى آفات التفكير وأمراضه قبل التعرض إلى أسس المنهاج التفكيري الأرشد.

فكر المحنة

فكر المحنة معناه أن يظل الإنسان ـ فردا أو جماعة ـ متقوقعا على جانبه السلبي لا ينظر إلا إلى النصف الفارغ من الكوب. والكوب هنا هو كوبه هو نفسه أي كوب جهازه الفكري وشخصيته المعنوية التي تصنع حياته بالتأكيد إذ الإنسان إنسان بجهازه الروحي وليس بجهازه المادي فحسب.

فكر المحنة معناه أن يظل المرء لابثا حيث أصابته المحنة فيتوقف الزمان عنده وتجمد عقارب الساعة. ثم يضحى هو جزء من المشكلة ثم يضحى هو المشكلة وذلك بدل أن يتسلح بجهاز تفكيري واسع رحب يستطيع أن يستوعب الضربات ويحتضن الأزمات والكدمات ليجعل من كل ذلك

جزء من الحل. نجد ذلك في سيرة سيد الخلق محمد عليه الصلاة والسلام وذلك عندما أوذي بشدة في مكة حتى وضع سلا الجزور فوق رأسه وهو ساجد يصلي بين الأصنام المحيطة بالكعبة المشرفة ثم إضطر صحابته إلى الهجرة مرتين إلى الحبشة وإضطر هو بنفسه إلى الهجرة إلى الطائف حيث إستقبل أسوأ إستقبال وماتت زوجه وعمه وظل مع المسلمين وبني هاشم محاصرا في شعب أبي طالب يتضورون جوعا. تمثل نبذه لفكر المحنة في أمرين : أولهما هو أن لم يشك ذلك لغير ربه سبحانه وثانيهما أنه لم ينقطع عن أداء مهمته التي لأجلها إنتدب. غيره يظل يندب حظه العاثر ويتعلل بالأقدار وسوء الأوقات وعسر الظروف كما يفعل كثير منا نحن اليوم. نبذ فكر المحنة يستمد مشروعيته من فكرة مركزية في الإسلام إسمها حتمية الإبتلاء والإختبار. ذلك أننا لم نخلق طرا مطلقا إلا لنمتحن ونبتلى ونختبر. فالمحنة إذن مادة أساسية من مواد الوجود وهي مادة من مواد التجديد كذلك. المحنة مادة للترقية والتأهيل. وهي كذلك قنطرة أساسية في الحياة تفضي إما إلى موت الممتحن وذلك عندما ينغمس في إنتاج تفكير محنوي يظن أن الليل الذي أقبل لن يتلوه فجر أبدا بما يعمق اليأس والقنوط في النفس وليس هناك أشد على المرء طرا مطلقا من ذئاب اليأس والقنوط ونبذ الثقة في النفس وفي الناس في المحيط القريب والبعيد. وإما أن تفضي المحنة إلى تجدد الخلايا الدفاعية ومقومات المقاومة بمثل ما يحدث لبعض أعضائنا البدنية سواء بسواء. فكر المحنة يشل التفكير ومؤهلات المقاومة والإبداع أو أنه يجعل من المقاومة إنتقاما وثارات فوضوية كما أن فكر المحنة يجعل الفكر مركزا على عدوه الذي كان سببا في محنته وذلك يجعل من فكر المحنة فكرا إرتداديا ماضويا لا فكرا رحبا ينظر إلى قادمات الليالي وقابلات الأيام. هاك مثلا لفكر المحنة. الخوارج كان يغلب عليهم فكر المحنة سيما في بداية عهدهم أي قبل أن ينخرطوا بقوة في تنظيم الثورات

فكر المحنة يشل التفكير ومؤهلات المقاومة والإبداع أو أنه يجعل من المقاومة إنتقاما وثارات فوضوية كما أن فكر المحنة يجعل الفكر مركزا على عدوه الذي كان سببا في محنته وذلك يجعل من فكر المحنة فكرا إرتداديا ماضويا لا فكرا رحبا ينظر إلى قادمات الليالي وقابلات الأيام.

ضد الحكم الأموي والعباسي وبذلك إنخرطوا في البداية في تكفير المسلمين بالجملة أو بما يشبه الجملة لفرط ضيقهم بالدنيا الرحبة من حولهم وضيقهم بعدوهم ضيقا تجاوز الحدود.

فكر الخرافة والأسطورة

فكر الخرافة والأسطورة معناه الإستبداد الوهمي الذي يحيط بالمرء من كل جانب وقوامه أن الدنيا من حوله صدف عجيبة وغريبة لا تخضع أحداثها إلى منطق سليم مبناه القانون والسنة والسبب والأثر وغير ذلك مما ركبت عليه عقولنا تركيبا. هو فكر سائد عند المؤمنين وعند الكافرين سواء بسواء. الأصل أن الإيمان بالله سبحانه هو ترياق مضاد بفعالية كبيرة جدا لذلك الضرب من التفكير الأسطوري الخرافي ولكن عندما تكون أجهزة التلقي عندنا معطوبة فلن يشفع لها إيمان لا يجد فيها محضنا دافئا يناسبة. أكبر العاهات التي يخلفها فكر الخرافة والأسطورة هو القضاء على الثقة في النفس وفي الناس بما يحطم المؤهلات الفكرية والنفسية عند الإنسان ليضحى لعبة بين أيدي الأحداث أو لقمة سائغة في أفواه الجائعين والطامحين والمغامرين. ولا غرابة اليوم بصفة خاصة أن تجد أن الإيمان بالخرافة والأسطورة منحسر في الفئات المثقفة والطبقات المتعلمة حتى لو لم تكن مؤمنة أو مسلمة ولكن عند دراسة هذه الظاهرة الصحيحة فإن الدارس يقف على حقيقة أخرى ليست أدنى شأنا وهي أن تلك الفئات المتعلمة لا تنتشر فيها مثل تلك الأفكار ليس لعدم قابليتها لذلك ولكن لعدم إهتمامها بها أصلا كما يعزى ذلك نسبيا وجزئيا إلى ما تلبي به تلك الفئات في العادة مرافقها الإجتماعية بشيء من الرفاه والمتعة والسعادة. أما إذا إجتمعت الأسطورة مع الفقر والخصاصة فإن الوضع يختلف بطبيعة الحال. التفكير الأسطوري الخرافي هو المخصب المناسب

أكبر العاهات التي يخلفها فكر الخرافة والأسطورة هو القضاء على الثقة في النفس وفي الناس بما يحطم المؤهلات الفكرية والنفسية عند الإنسان ليضحى لعبة بين أيدي الأحداث أو لقمة سائغة في أفواه الجائعين و ا لطا محين والمغامرين.

جدا لإنتشار العقائد الجبرية التي تقوم على أن الإنسان ريشة في مهب الريح فلا فعالية له ولا كسب له ولا مسؤولية له وهو مسير دوما وأبدا وفي كل الحقول شأنه شأن العجماوات والبكماوات والجمادات. وقريب من ذلك العقائد الإرجائية التي إعتمدها الأمويون لبسط نفوذهم. أؤكد أن الأمر ليس متطابقا ولكنه قريب. الإرجاء لا يتطابق مع الإيمان بالخرافة ولكنه بالنتيجة والثمرة لا يبتعد عن ذلك كثيرا.

فكر التعصب المذموم

التعصب منه تعصب إيجابي محمود وذلك عندما يحتفظ بقدر أدنى من الإلتزام والوفاء لمنظومته الفكرية التي إنخرط فيها بوعي ومسؤولية لا إكراه فيه. ولكن التعصب كثيرا ما يخرج عن تلك الدائرة ليتحول إلى تعصب أعمى مذموم وهو كثير الإنتشار كذلك في الفئات الأقل حظا من التثقف والتعلم والتحضر والترقي الفكري. التعصب ليس حكرا على الفكر الديني كما يتوهم كثير منا بل إن التعصب الأعمى للأبطال القوميين ولغيرهم من الفاعلين في أممهم ومجتمعاتهم هو الأكثر رواجا وإنتشارا وتأثيرا. أخطر ما تصاب به المجتمعات هو التعصب الأعمى لأبطالها القوميين إذ أن ذلك هو مدخل طبيعي للإستبداد السياسي والقهر الإجتماعي ثم ما يلبث أن يتحول ذلك إلى تفكير أسطوري خرافي. لقد قص علينا سبحانه قصة نوح وذكر أن بعض الصالحين ممن مات إتخذوا من لدن قومه آلهة يعبدون :«وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرون ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا»[3]. ما حمل الناس على عبادتهم إلا إنبهارهم بهم فأصبحوا في نظرهم أبطالا

أخطر ما تصاب به المجتمعات هو التعصب الأعمى لأبطالها القوميين إذ أن ذلك هو مدخل طبيعي للإستبداد السياسي والقهر الإجتماعي ثم ما يلبث أن يتحول ذلك إلى تفكير أسطوري خرافي.

---

[3] سورة نوح - الآية 23..

قوميين سيما بعد موتهم حتى لو كانت تلك البطولة بطولة دينية. ينشأ التعصب عادة من بعد تعرض الأمم والشعوب والمجتمعات إلى نكسات ونكبات ثم ينبعث بعض من أفرادها مقاومين ومخلصين فيحالفهم الحظ وينجحوا في مخططهم وعندها ينقسم الناس فيهم قسمين : قسم يعرف لهم حقهم ولا يرفعهم فوق منزلتهم البشرية وقسم ينبهر بهم إنبهارا عجيبا ليرفعهم إلى ما فوق منزلتهم البشرية وعادة ما يكون أهل هذا القسم من الفئات المقلدة التي لم تنل نصيبها من التعلم فإذا عنّ لذلك البطل القومي أن يسترق الناس إليه لكان ذلك له يسيرا جدا لأن فريقا من الناس ـ ربما يكون هو الأكبر ـ يعتقد أنه ما إستطاع المقاومة والنجاح إلا لأنه يتوفر على خصال فوق بشرية. كما إن التعصب قد ينشأ من الغرور والعجب وإتباع الهوى وذلك عندما تستبد تلك الآفات بأهلها فيظلون يعبدون أنفسهم ويعكفون عليها عكوف العبيد على آلهتهم. والحقيقة أنا ما دعينا من لدن الإسلام إلى الإجتهاد والتجديد والتحديث إلا لنفي التعصب المذموم عن أنفسنا إذ الإجتهاد يحتمل المراجعة والنقد والمحاسبة وإعمال المقارنة والإنفتاح على العصر والمكان والزمان وغير ذلك. فلا تجد مجتهدا متعصبا في العادة ولكن تجد مقلدا متعصبا في العادة. كما أن التعصب عادة ما ينشأ عن نقص فادح في الإطلاع على ما عند الآخرين كسلا ذهنيا أو لأي سبب آخر. ومن لا يطلع على ما عند الآخرين يظل حبيسا لما عنده هو فلا يتأثر بما عند الناس ولا يؤثر فيهم ويحرم نفسه من الإقتباس. ماذا يعني لك إقتباس آلية الخندق في الأحزاب إذا لم يكن ذلك يعني نفي التعصب والإقبال على الإقتباس بروح منفتحة ورغبة في التأثر بالناس والتأثير فيهم. ومثل ذلك أحداث أخرى كثيرة منها الخاتم في مراسلات الملوك والأمراء والأباطرة. بقيت فكرة أخرى في مستوى معالجة

الحقيقة أنا ما دعينا من لدن الإسلام إلى الإجتهاد والتجديد والتحديث إلا لنفي التعصب المذموم عن أنفسنا إذ الإجتهاد يحتمل المراجعة والنقد والمحاسبة وإعمال المقارنة والإنفتاح على العصر والمكان والزمان وغير ذلك. فلا تجد مجتهدا متعصبا في العادة ولكن تجد مقلدا متعصبا في العادة

آفة التعصب الفكري وقوام تلك الفكرة هو أن التعصب عادة ما يكون مبناه التفكير الأحدي أو الأحادي أي الذي لا يستوعب تفكيره سوى نفسه أو طائفته وحزبه وجماعته ومذهبه ودينه. أي أنه ينبذ التفكير الجماعي إذ وجد الإنسان لإسعاد البشرية جمعاء قاطبة وبذلك نزل الإسلام وجاء رسوله الهادي :«رحمة للعالمين» [4].

فكر الجهل بالأبجديات العلمية الأولى

هناك أبجديات علمية معرفية أولية لا يستقيم أي تفكير دون معانقتها ولا تجد على رأس القائمة في ذلك أجدر من قانون التعدد وناموس التنوع وسنة الإختلاف. ذلك قانون لم يسطره الوحي الكريم فحسب ولكنه لما سطره عقب عليه بأن ذلك هو العلم الحقيقي أو هو رأس العلم وبابه الطبيعي المناسب الذي لا يلج منه والج إلا أوتي من الحكمة قناطيرة مقنطرة. قال ذلك في الذكر الحكيم :«إنما يخشى الله من عباده العلماء»[5]. لم يقل ذلك في أي موضع آخر ولكنه جعله تعقيبا مناسبا جدا على قوله سبحانه :«ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها من الجبال جدد بيض وحمر مختلفا ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك. إنما يخشى الله من عباده العلماء» [6]. ليس هناك أي معنى لذلك سوى أن أعرف الناس بالله سبحانه وأتقاهم له وأثبتهم على صراطه هم العلماء فحسب. ولكن من هم العلماء. السياق كفيل بذلك. هم العلماء الذين يدركون ما دلت عليه الآية

أن أعرف الناس بالله سبحانه وأتقاهم له وأثبتهم على صراطه هم العلماء الذين يدركون قانون التعدد وناموس التنوع وسنة الإختلاف التي هي إرادة إلهية مرادة. وليست صدفة. هي محط العلم وبابه ومنفذه.

---

[4] سورة الأنبياء - الآية 107.
[5] سورة فاطر - الآية 28.
[6] سورة فاطر - الآية 28.

محل التعقيب أي العلماء بقانون التعدد وناموس التنوع وسنة الإختلاف التي هي إرادة إلهية مرادة :«ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم» [7]. هي إرادة إذن مرادة وليست صدفة. هي محط العلم وبابه ومنفذه. ولكن لم كان ذلك كذلك؟ أولا لخدمة أقدس قضية في الإسلام أي قضية التوحيد التنزيهية العظمى إذ لفرط العلم بقانون التعدد يدرك المرء أن الله وحده سبحانه هو الذي لا تجري عليه تلك السنة وذلك من خلال النظر في كل شيء إذ كل شيء متنوع متعدد مختلف. كل شيء طرا مطلقا. كل شيء له زوج إلا هو سبحانه. ولذلك كان أول قانون متفرع عن تلك السنة هو قانون الزوجية الذي قال فيه سبحانه :«ومن كل شيء خلقنا زوجين» [8]. قانون الزوجية ـ أو الإزدواج ـ قانون عام مطلق لا يتخلف البتة وهو فرع عن قانون التعدد وكل ذلك في خدمة أقدس قضية إسلامية عقدية أي قضية التوحيد بالتنزيه المطلوب المعروف الذي قال فيه سبحانه في موضع آخر :«ليس كمثلة شيء وهو السميع البصير» [9]. تلك هي أبجدية العلم الأولى وهي أم العلوم كلها والمعارف كلها. هما إذن مقصدان منها : مقصد التنزيه الإلهي كما مر بنا ومقصد الإقبال منا على الكون والوجود بعقل منفتح مزدوج مستوعب لقانون التعدد وذلك لأجل الفهم الصحيح والتسخير الصحيح لتتم الخلافة والعمارة والعبادة والعدل بأحسن ما يكون الإتمام والإنجاز.

لأبجدية العلم الأولى مقصدان: مقصد التنزيه الإلهي ومقصد الإقبال منا على الكون والوجود بعقل منفتح مزدوج مستوعب لقانون التعدد وذلك لأجل الفهم الصحيح والتسخير الصحيح لتتم الخلافة والعمارة والعبادة والعدل بأحسن ما يكون الإتمام والإنجاز.

الجهل بتلك الأبجدية العلمية المعرفية الأولى يقتضي جهلا بفروع كبيرة أخرى من مثل : الجهل بالتمييز. الجهل بالتمييز معناه عدم القدرة على

---

[7] سورة هود - الآية 119.

[8] سورة الذاريات - الآية 49.

[9] سورة الشورى - الآية 11.

رؤية الأشياء والأمور والأحداث مختلفة متنوعة متعددة حتى لو كانت من مشكاة واحدة. فمن لم يميز بين المرأة والرجل ـ مثلا ـ يعييه أن يكون معتدلا متوازنا وذلك لأنه سيفيء إلى أحد مطبين كلاهما مر: إما أنه سيعتقد أن كلاهما له وظيفة مغايرة للآخر بالتمام والكمال. أو أنه سيعتقد أن كلاهما يشترك مع الآخر في الوظيفة نفسها دون أي تمييز ولا إختلاف. والحقيقة أنهما يشتركان في شيء ويختلفان في شيء آخر ومن ذا وجب التكامل. وعيوب أخرى لا نحصيها هنا لخروجها عن دائرة عملنا منها الجهل بالتنسيب فرعا آخر من فروع الجهل بقانون التعدد وبذلك يظل المرء يعتقد بإطلاقية عجيبة في كل شيء. وكثير من الأمور حقها نبذ الإطلاقية وتقمص التنسيب إذ كثيرا ما يتلبس الحق بالباطل في قضية ما أو الخير والشر في قضية أخرى أو الفضيلة والرذيلة في مسألة ثالثة. نادرة جدا هي القضايا التي يتمحض فيها الحق أبلج لا يتلجلج أو الباطل أفلج يتلجلج. هي المساحة العقدية الصحيحة الصريحة فحسب وما دون ذلك يختلط فيه الخير بالشر فيجب التنسيب. ومن فقد القدرة على التنسيب فقد القدرة على الترجيح والموازنة من باب أولى وأحرى ثم فقد القدرة على إدخال عوامل الزمان والمكان والحال والعرف والمتغيرات بصفة عامة .. عجر عن إدخال تلك المتغيرات إلى أي معادلة لحل طلاسمها فيلجأ إلى أيسر حل : التخوين أو التكفير أو التفسيق أي الإلغاء والنفي والمحق والسحق. لا أرى معنى لقوله سبحانه :«يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ..» [10]. لا أرى لذلك أي معنى سوى معنى التنسيب والترجيح والتمييز أي معنى الإزدواج المطلوب ومعنى التعدد المراد.

من فقد القدرة على التنسيب فقد القدرة على الترجيح والموازنة من باب أولى وأحرى ثم فقد القدرة على إدخال عوامل الزمان والمكان والحال والعرف والمتغيرات بصفة عامة .. عجر عن إدخال تلك المتغيرات إلى أي معادلة لحل طلاسمها فيلجأ إلى أيسر حل : التخوين أو التكفير أو التفسيق.

---

[10] سورة البقرة - الآية 219.

تلك هي آفات التفكير عندنا بصفة عامة دون تفصيل كبير. فما هي أسس المنهاج التفكيري الأرشد. ذلك ما سنعالجه في الفقرة التالية بإذنه سبحانه.

أسس المنهاج التفكيري الأرشد

المقاصدية

التفكير المقاصدي معناه أن يرسم المرء لنفسه مقاصد كبرى وغايات عظمى في الحياة هي بمثابة رسالة وجوده ومشروعية فعله وتجدده. ثم عليه أن يصوب النظر إلى تلك الآفاق البعيدة دوما دون أن تشغله الجزئيات والفرعيات والذيول.

لا تكون المقاصدية هنا ـ من حيث أنها أول وأكبر أسس المنهاج التفكيري الأرشد عندي ـ في مقابل النصية أو الحرفية كما يحلو لبعضهم تعدية ذلك من علمي أصول الفقه ومقاصد الشريعة إلى ما نحن بصدده الآن. الذي نحن بصدده أعم وأجمل (نسبة إلى الإجمال وليس إلى الجمال). ما نحن بصدده حلقات منهاجية في التفكير وهي الحاكمة في الأصل على العلوم الفرعية الأخرى.

المعني بالمقاصدية هنا ـ أي بحسبانها أول وأكبر أساس من أسس المنهاج التفكيري الأرشد ـ هو توفير ضامن فكري يقود تفكيرنا إلى غاياته وأهدافه لتحقيق مقاصده ومصالحه في واقع الإنسان وعلى أديم الأرض. التفكير المقاصدي معناه أن يرسم المرء لنفسه مقاصد كبرى وغايات عظمى في الحياة هي بمثابة رسالة وجوده ومشروعية فعله وتجدده. ثم عليه أن يصوب النظر إلى تلك الآفاق البعيدة دوما دون أن تشغله الجزئيات والفرعيات والذيول. المقاصدية هنا تعني أن أضع نفسي أولا وأثبتها على الطريق السريع السيار المستقيم فإذا إطمأننت على وجودي هناك فوق ذلك الطريق فلا علي من بعد ذلك أن أسرع المضي أو أبطئ أو أن أستريح هنا أو هناك. تلك المقاصدية هي التي تضمن لي عدم الردة حتى لو تأخرت

عن بلوغ هدفي بقليل أو بكثير. الحياة كما يعلم الناس كلهم متركبة من أمور كبيرة وخطيرة ومحددة وأمور أخرى صغيرة. ليس معنى ذلك لزوم الميكافيلية القائمة على القالة الغربية المنحطة : الغايات تبرر الوسائل. أي للوصول إلى غايتي ـ حتى لو كانت غاية مشروعة نبيلة ـ فلا علي أن ألتحف بأي وسيلة حتى لو كانت جثث الناس الأبرياء أو الولغ في أموالهم وأعراضهم أو الإفساد في الأرض. المقاصدية الفكرية لا شأن لها بذلك البتة. حديثنا متأطر ضمن الإلتزام الإسلامي فكريا وقيميا. لا أظن سوى أن جزء كبيرا من أسباب النجاح الذي يحرزه المتفوقون في أي حقل مرجعه إلى هذا العامل أي المقاصدية. أولئك لم تشغلهم الصغائر في الطريق فمضوا مسرعين صابرين محتسبين لا يبرح أنظارهم ذلك الهدف البعيد والغاية الكبيرة. المقاصدية هي هنا في الحياة وهل يقود الحياة سوى تفكيرنا. أضرب لك مثلا. تقوم حكومة هنا في أعقاب ثورة فتضطرم في وجهها حربان شرستان : حرب من أدعياء السلفية العربية الجامدة ودخانها ليس سوى المطالبة بتطبيق الشريعة. وحرب من أدعياء العالمانية ـ أقول أدعياء العالمانية لأن العالمانية الحقيقية الصحيحة هي الحياد حيال الدين أولا وهي الحرية ثانيا فإذا حادت العالمانية العربية عن ذينك الأمرين بسبب ضيقها من صعود أرصدة الصحوة الإسلامية النامية فلم تعد تلك عالمانية ولكنها إستبداد مقنع ـ ودخانها تعويق حركة الثورة أن تحقق أهدافها بما يؤدي إلى العودة إلى المربع الأول أو قريبا منه. إذا قصرت الحكومة نظرها على ذينك الموضعين فراحت تجري لاهثة وراء الأدخنة العالمانية فإنها تقع في المطب المحفور لها وتفقد ثقة الناس فيها وبمثل ذلك إذا هي تأثمت من عدم الخضوع لهذا المطلب الإسلامي أي تطبيق الشريعة وهي تدرك أن تطبيق الشريعة حق لمّا يجد محله وكل حق لا يجد محله المناسب فإنه يبقى حقا دون ريب ولكنه حق معلق ومؤجل حتى يتوفر محله.

إن جزء كبيرا من أسباب النجاح الذي يحرزه المتفوقون في أي حقل مرجعه إلى هذا العامل أي المقاصدية. أولئك لم تشغلهم الصغائر في الطريق فمضوا مسرعين صابرين محتسبين لا يبرح أنظارهم ذلك الهدف البعيد والغاية الكبيرة. المقاصدية هي هنا في الحياة وهل يقود الحياة سوى تفكيرنا.

المقاصدية في هذا المثال التوضيحي يقتضي من الحكومة ـ أي حكومة وأي ثورة وأي وضع وليس المقصود تونس بالذات أو مصر أو غيرهما فحسب ـ أن تسعى جاهدة لبلوغ مقصدها الأسنى وهو : تثبيت الأمن بين الناس وتوفير السلام والطمأنينة أولا ثم إشباع الجوعى ومن في حكمهم ثانيا ومن بعد ذلك يكون لكل حادث حديث. لو تفرست من حولك لأفيت أمثلة كثيرة لمشاريع نهضوية كبيرة لم يعوق نجاحها ويثبت فشلها سوى تردد أهلها حول الصغائر المنصوبة في طريقهم فيعكفون عليها فتكون لهم حبائل لا يخرجون منها إلا منهكين فلا يقدرون على مواصلة المشوار ولا على تحقيق أهدافهم المقاصدية الكبرى التي رسموها في البداية بدقة وعناية وصحة وعزم. المقاصدية هي التخطيط الإستراتيجي المتوسط والبعيد وهو الثبات على ذلك حتى النهاية بل حتى لو أدى الأمر إلى تسلم الجيل اللاحق ذلك لإتمام العمل المنشود. ألم يكن أمل محمد عليه الصلاة والسلام أن يصل الأرض كلها بدعوته ولكنه مات قبل ذلك ولذلك خلف من بعده رجالا ونساء واصلوا مسيرة الدعوة التي بدأها حتى لم يدع الإسلام بيت وبر ولا مدر إلا عرض نفسه عليه. لو لم يع الصحابة تلك المقاصدية في التفكير لظلوا مترددين مضطربين غير قادرين حتى على تنظيم إجتماع السقيفة لخلافته. المقاصدية هي تدبر الحياة بدل لزوم القشرية والظاهرية وما يرشح على السطوح. المقاصدية هي التي جعلت ذلك النبي الكريم يقضي بقضاء عجيب غريب يرفضه كل من يقف عند ظاهره لأول وهلة. عرضت عليه ـ عليه السلام ـ حادثة إمرأتين إختصمتا في صبي صغير تدعي كل منهما أنه إبنها. إستمع إليهما مليا ثم أمر بمدية وأخذ بتشطير الصبي إلى نصفين وقال لهما : أنصفه بينكما لتأخذ كل واحدة منكما شطرا. ولما رأتاه جادا في حديثه قالت إحداهن : لا تقتله فهو لها وحدها. عندها سلم الصبي إليها إذ أدرك بتلك الحيلة أن الأم الحقيقية هي التي لم تطق قتل

المقاصدية هي التخطيط الإستراتيجي المتوسط والبعيد وهو الثبات على ذلك حتى النهاية بل حتى لو أدى الأمر إلى تسلم الجيل اللاحق ذلك لإتمام العمل المنشود.

إبنها أمام ناظريها. المقاصدية هنا هي أن تبتكر الوسائل المشروعة لبلوغ الهدف الكبير. تلك الوسائل التي يعدها الصغار فسقا أو كفرا أو خروجا عن الملة أو ردة. دعهم يعدون ذلك كذلك.

الموضوعية

الموضوعية معناها الإحاطة بالموضوع المعالج من كل زواياه وجوانبه وهي ضد الموضعية وضد التجزيئية. الموضوعية هي إستقراء الموضوع المعالج من أوله إلى آخره إستقراء جامعا صحيحا للوقوف على رسالة ذلك الموضوع. هذا أساس يغفل عنه الناس كثيرا بسبب أن الإنسان خلق من عجل كما أخبر سبحانه. الموضوعية خلة يجب أن يتعلمها تالي القرآن الكريم وذلك بسبب أن القرآن الكريم نادرا جدا ما يذكر مسألة ثم يختم فيها القول حيث ذكرها. خذ إليك أي قضية شئت. الله سبحانه أو البعث أو الكون أو الإنسان أو الإبتلاء أو الأسرة والمرأة أو أي قضية أخرى سيما في القضايا التي يعم بها البلاء بالتعبير القديم أي القضايا الكبيرة والخطيرة التي تحدد خارطة طريق الإنسان في الحياة. مثل تلك القضايا عادة ما يعالجها في مواضع عديدة مبثوثة فيه بثا عجيبا. الدرس من ذلك دون ريب هو أنه يجعلنا نبحث وننقب فلا نمل ولا نكل حتى نتعلم الموضوعية ونجفى الموضعية التجزيئية التي تبتسر الأمور وتجتزئ الأشياء. الموضوعية في الأمور الروحية والفكرية شأنها شأن الموضوعية في الأشياء المادية. ألست تقلب الشيء الذي تريد شراءه مرات ومرات من كل جوانبه وزواياه وربما تسأل عن أصله وفصله وما يتعلق به من قريب ومن بعيد. لم تفعل ذلك؟ لأنك تريد إلتزام الموضوعية الكاملة الكفيلة بجعلك تستوعب ذلك المقتنى. يحدث معنا ذلك في الحياة المادية. أما في الحياة الفكرية والروحية فقليلا ما يحدث معنا ذلك. ليس كالقرآن الكريم يعلمنا الأمرين معا : المقاصدية ولذلك

الموضوعية هي إستقراء الموضوع المعالج من أوله إلى آخره إستقراء جامعا صحيحا للوقوف على رسالة ذلك الموضوع. الموضوعية خلة يجب أن يتعلمها تالي القرآن الكريم وذلك بسبب أن القرآن الكريم نادرا جدا ما يذكر مسألة ثم يختم فيها القول حيث ذكرها.

لم يحفل بالصغائر لا في العبادات ولا في المعاملات ولا في القصة والتمثيل. ما نختلف فيه نحن اليوم ونختصم محله كله تقريبا تلك الصغائر التي لك فيها ألف رأي ورأي فلم الخلاف ولم الخصام حول أمر لك فيه سعة. وفي مقابل ذلك لا تجتمع قلوبنا ـ إلا قليلا ـ على المحكمات والقطعيات الكفيلة بتوحيد الصف. لم يرو لنا القصص القرآني ولو مرة واحدة مكان القصة وأبطالها بالأسماء وأزمانها وغير ذلك مما تكثر المعارك حولها اليوم من لدن الصغار الذين لم ينضجوا بعد. عندما جاء الكتاب العزيز الهادي كتابا عاما كليا جامعا لا يتطرق إلى التفاصيل إلا في قضايا محددة (الأسرة وما يتعلق بها عرضا ومالا) فإن ذلك يعلمني أنه يدربنا على المقاصدية. والأمر الثاني هو الموضوعية. بمثل ما شرحت آنفا أي أن القرآن الكريم لا يعالج قضية في موضع واحد في الغالب ولكن يبث ذلك فيه بثا لحملنا على عقلية الجمع والفهم والإستيعاب الكلي فإذا حدث تشابه فالترجيح كفيل بالفصل في ذلك. من الموضوعية في التفكير ألا تحكم على إنسان قبل أن يوشك على إستكمال حياته ولذلك يعاب على الشيخ الطاعن في السن ما لا يعاب على الشاب المتوقد حيوية. ومن الموضوعية في التفكير ألا تحشر أهل دين واحد في سلة واحدة وكفى بهذا التعليم معلما : „ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما» [11]. أمثلة الموضوعية لا حصر لها. وليس غرضنا التمثيل هنا إلا بقصد حصول الفهم الصحيح لهذا الأساس المهم والكبير من أسس المنهاج التفكيري الأرشد.

إن القرآن الكريم لا يعالج قضية في موضع واحد في الغالب ولكن يبث ذلك فيه بثا لحملنا على عقلية الجمع والفهم والإستيعاب الكلي فإذا حدث تشابه فالترجيح كفيل بالفصل في ذلك.

[11] سورة آل عمران – الآية 75.

العلمية

الأساس العلمي للمنهاج التفكيري الأرشد معناه أن يبنى التفكير على أسس مقطوع بثباتها. تلك الأسس ليست كثيرة وهي تحديدا : السنن والأسباب من جهة والفطرة البشرية من جهة ثانية وقطعيات الوحي المعصوم من جهة ثالثة. منشأ المشكلة هو أن الإنسان يستقي علمه إما من الحواس السمعية والبصرية وغيرها من الحواس المادية أو من فؤاده ـ أي عقله ـ الذي يفهم به العقليات ومنها الوحي والأخبار الشبيهة بالوحي من مثل نقول التاريخ.

الأساس العلمي للمنهاج التفكيري الأرشد معناه أن يبنى التفكير على أسس مقطوع بثباتها. تلك الأسس ليست كثيرة وهي تحديدا: السنن والأسباب من جهة والفطرة البشرية من جهة ثانية وقطعيات الوحي المعصوم من جهة ثالثة.

يتحصل لنا هنا أشياء ثابتة وأخرى غير ثابتة ومن ذا تنشأ مشكلة التبين لفرز ما هو صحيح مما هو غير صحيح. ولمعالجة تلك المشكلة علينا أن نحدد مصادر للعلم والمعرفة تتميز بالثبات والصحة وهي كما أشرت آنفا إما معطيات السنن والأسباب الكونية والإجتماعية المقطوع بصحتها وإما معطيات الفطرة البشرية بما تحتويه من غرائز وغير ذلك وإما معطيات مادية محسوسة. الأكيد أن تلك المصادر ما كانت كذلك إلا لهداية الناس إلى الحق أو إلى الصواب أو قريبا منهما على الأقل. المشكلة الأخرى هي أن تلك المصادر العلمية المعرفية صحيحة في حد ذاتها ولكن الكشف عنها قد يعتوره الخطأ وذلك هو الذي يدعونا ـ إضافة إلى داعيات أخرى ـ إلى بحث المنهاج التفكيري وأسسه.

التفكير السببي معناه بناء عقولنا على مقتضى الأسباب التي هي أصل الحوادث وأطرف شيء في ذلك ما ورد في الكتاب العزيز الهادي الذي أراد أن يحقننا بقانون السببية حقنا منيعا فأنظر ما قال لنا في بعض المواقع. قال لنا في شأن مريم البتول عليها السلام :«وهزي إليك بجذع النخلة تساقط

عليك رطبا جنيا»[12]. سل نفسك : ألم يكن ألطف بمريم وأيسر وأرفق بها أن ترزق الرطب الجني دون أن تضطر إلى هز النخلة. الهز لغة معناه الأخذ بقوة. هزي إليك بجذع النخلة معناها : خذي إليك جذع النخلة ـ وقطره بالتأكيد مثل قطر مريم مرة واحدة على الأقل ـ بقوة. هل يظن واحد منا أن هز إمرأة في حالة وضع ـ مثل مريم ـ وهي خائفة بسبب أن الأمر الذي يقع لها لم يقع من قبل في البشرية طرا مطلقا.. هي ضعيفة حتى لو لم تكن في حالة وضع وخوف.. هل يظن واحد منا أن هزها جذع النخلة الثابت الراسي سيحرك فرعها بقوة إلى درجة أنها تسقط الرطب. طبعا لا. فما المقصود إذن؟ المقصود هو لنا وليس لها. المقصود هو أن الأخذ بالسبب لازم حتمي مكتوب منه سبحانه كائنا ما كان الوضع. حتى مع مريم البتول المبتلاة بما لم تبتل به أنثى قط. أجل. حتى مريم في حالتها تلك. ولكن لم؟ لسبب واحد هو : الأخذ بالسبب لا بد منه لازمة حتمية حتى في مثل هذه الأحوال التي يكون فيها الأخذ بالسبب أمرا رمزيا. لا بد من ذلك سنة مسنونة وسببا مسببا. الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون كذلك رتب الأمر. لا رزق دون سبب حتى في مثل هذه الحالة. وأمثلة أخرى كثيرة في الكتاب العزيز الهادي ولكن لا يتسع المجال هنا للتعرض إليها. ليس هنا من مثال في الحياة أقوى من هذا المثال الذي يقول لنا بصراحة : رتب الكون على الأسباب فمن أخذ بها سدده الله ومن تجاهلها فلا يلومن إلا نفسه ولا عبرة في ذلك بمؤمن أو كافر. ألا ترى اليوم أننا ندعو كثيرا وطويلا ولكن لا ننصر. لم. لأننا أخذنا بسبب واحد هو سبب الدعاء والضراعة ولكن أهملنا سبب العمل أي الأخذ بالأسباب المادية المتكافئة قدر الإمكان.

رتب الكون على الأسباب فمن أخذ بها سدده الله ومن تجاهلها فلا يلومن إلا نفسه ولا عبرة في ذلك بمؤمن أو كافر. ألا ترى اليوم أننا ندعو كثيرا وطويلا ولكن لا ننصر لأننا أخذنا بسبب واحد هو سبب الدعاء والضراعة ولكن أهملنا سبب العمل أي الأخذ بالأسباب المادية المتكافئة قدر الإمكان.

[12] سورة مريم - الآية 25.

وما قيل في السببية يقال كذلك في السننية. التفكير السنني معناه أن يعرف المرء السنن الإجتماعية والكونية التي أودعها سبحانه ملكه وأرضه وإجتماع عباده وذلك بقصد الإنسجام معها لينال حظه من الدنيا. لقد أعلمنا سبحانه أن الإيمان والكفر لا دخل لهما في الدنيا وذلك هو صريح منطوقه الوارد في سورة الإسراء :«كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا» [13]. يعلمنا أن هناك سنة ماضية مطردة يرزق بها سبحانه الإنسان كله. هل يتطلب ذلك دليلا نقليا ونحن نبصره صباح مساء بأم أعيننا. من هذا الذي يمد أولئك (أي الكفار) من عطائه سبحانه. أنت!! ما كان عطاؤه محظورا عن أحد يعمل له. قانون الدنيا هو قانون المساواة ولكن قانون الآخرة هو قانون الجزاء العادل. اليوم مساواة وغدا عدالة.

التفكير الفطري معناه أن يدرك المرء الجهاز الفطري للإنسان وهو جهاز مركب متشعب فيه الغريزة وفيه العاطفة وفيه الذوق وفيه الشعور وغير ذلك. معرفة ذلك يفضي إلى إحكام مشروع الإصلاح إذ الإنسان مثله مثل آلة لا يمكن لك إصلاحها والتعامل معها أو حتى معالجتها في مختلف حالاتها إلا من بعد معرفة تلك الآلة من حيث تركيبها وخصائصها وغير ذلك. لا ريب عندي في أن أكثر عوامل النجاح في المشاريع النهضوية الكبرى هو عامل معرفة الفطرة البشرية وفي أن أكثر عوامل الإخفاق هي التنكب عن معرفة تلك الفطرة أو تجاهلها. الفطرة قوة داخلية لا بد لها أن تلبى فإن لبيت بالرفق والمعروف فبها ونعمت وإن حاول بعضنا قمعها تلبت

أن أكثر عوامل النجاح في المشاريع النهضوية الكبرى هو عامل معرفة الفطرة البشرية وفي أن أكثر عوامل الإخفاق هي التنكب عن معرفة تلك الفطرة أو تجاهلها.

[13] سورة الاسراء - الآية 20.

بأي صورة غصبا عنه. لما أخبرنا عن يوسف عليه السلام لم يتردد في القول:«وهم بها»[14]. الذين يتأثمون من ذلك ويرجون لو أن الله لم يذكر ذلك لحفظ عصمة الأنبياء يفرون إلى الآية التالية مباشرة :«لولا أن رأى برهان ربه»[15].كل واحد منا يعرف الآية التالية ولكن دعنا نتلبث هنا قليلا لندرك معنى (وهم بها). أجل. هم بها فطرة وغريزة وذلك هو المطلوب والمرقوب والمنظور ولو لم يهم بها ـ مجرد هم نفسي ثم يصرف نفسه أن يحقق ذلك ولو بنظرة ـ لما كان أهلا للتكليف بله النبوة والرسالة والملك من بعد ذلك أو كرامة تأويل الأحلام. التفكير الفطري معناه معرفة الكائن البشري في قواه وفي ضعفه ليعالج على ذلك الأساس وليس على أساس شيطاني أو أساس ملائكي. التفكير الفطري معناه رعاية الضرورات والحاجات والطارئات عند الإنسان فلا يعامل في كل حالاته معاملة واحدة. ولا يعامل كل الناس معاملة واحدة. لا يعاملون كذلك في الإيجاب والمنع أما في المساواة أمام الله وأمام الخلق فيعاملون معاملة واحدة.

التفكير العلمي معناه النظر إلى الأمور بخلفية سببية سننية فطرية فمن أنجز تلك الخطوات فقد تأهل لحسن فقه الإسلام ورسالته وذلك بسبب أن الإسلام تأيد بالفطرة وتعزر بالسنن والأسباب. تلك سابقة عن الإسلام واللاحق يتأيد دوما بالسابق. ولذلك لا يوصف الإسلام سوى بأنه دين الفطرة المتوافقة مع الأسباب والسنن. وتلك هي معجزته وتلك هي أكبر نقاط القوة فيه التي تجعل الغربيين من المثقفين والباحثين يفيؤون إليه.

التفكير العلمي معناه النظر إلى الأمور بخلفية سببية سننية فطرية فمن أنجز تلك الخطوات فقد تأهل لحسن فقه الإسلام ورسالته وذلك بسبب أن الإسلام تأيد بالفطرة وتعزر بالسنن والأسباب.

---

[14] سورة يوسف - الآية 24.

[15] سورة يوسف - نفس الآية .

الواقعية

التفكير الواقعي معناه التفكير الذي يأخذ بعين الإعتبار المسائل التالية :

الإتجاه الإنساني أي أن يكفر المرء تفكيرا يخدم الإنسانية ويتوافق مع حاجياتها وضروراتها ومصالحها لأن الدين لم يأت لغير ذلك ورغم ذلك فإنك لاف عددا غير يسير من الدعاة يسير في الإتجاه المعاكس. إذ تلفى الإسلام ليس له من مقصد أسنى سوى إستجلاب مصلحة الإنسان بدرإ المفسدة عنه في حين أن بعض الدعاة يبحثون عن إستجلاب القهر له والغبن والحرج والعنت والمشقة.

المسألة الثانية الجديرة بالرعاية حتى يكون التفكير واقعيا هي المآلية أي أن يفكر المرء تفكيرا تؤول ثمراته من بعد تحققه فوق الأرض إلى مآلات محمودة مقبولة معقولة وذلك هو الذي جعل الفاروق يؤجل تطبيق حد السرقة لما رأى أن المآل منه لن يكون تربية أو تأديبا أو عقابا أن يعود السارق إلى ذلك أو يعود غيره إليه ولكن سيكون ذلك التطبيق مآله جوع السارق والجوع ليس مقصودا. ذلك مجرد مثل صغير ولك أن تقيس عليه في الحياة وليس في الشريعة فحسب. التفكير الواقعي معناه لزوم الجانب العملي الذي ينعكس أثره على الناس مباشرة أو بعد زمن غير طويل وذلك بدل التجريد الفلسفي الذي لا يطعم الجوعى خبزا. التفكير الواقعي معناه إنجاز الخطط الكفيلة بتحويل مقاصد الإسلام إلى برامج عملية تحت سقف رزنامة زمنية وبوسائل نملكها وغير ذلك مما يتطلبه بناء الخطط.

التفكير الواقعي معناه في مسألة ثالثة أخيرة لزوم مصلحة الجماعة وليس مصلحة الفرد فحسب ومعلوم أن مصلحة الجماعة مقدمة قطعا

التفكير الواقعي معناه لزوم الجانب العملي الذي ينعكس أثره على الناس مباشرة أو بعد زمن غير طويل وذلك بدل التجريد الفلسفي الذي لا يطعم الجوعى خبزا. التفكير الواقعي معناه إنجاز الخطط الكفيلة بتحويل مقاصد الإسلام إلى برامج عملية تحت سقف رزنامة زمنية وبوسائل نملكها وغير ذلك مما يتطلبه بناء الخطط.

عند التعارض. ألا ترى أن مصلحة الفرد في الحياة تعدم وتقدم قربانا عندما يحين أوان الجهاد أو المقاومة لدفع الشر ودرإ الضر في سبيل حفظ المصلحة الجماعية. يكون ذلك كذلك لأن مصلحة الجماعة مقدمة عند التعارض وليس دوما. وليس هناك أي مثال تقدم فيها مصلحة الفرد على الجماعة إلا الحرية الفردية التي تتاح له فيعبر عن رأيه ما لم يتحول ذلك التعبير إلى محاولة لتغيير النمط الإجتماعي للناس بالقوة. لزوم الجماعة في التفكير منشؤه هو أن الناس كلهم في سفينة واحدة بمثل ما أخبر عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح. معنى ذلك هو أن الناس كلهم في سفينة واحدة بما يجعلهم يفكرون تفكيرا جماعيا إذ لا سبيل لنجاة فريق منهم وغرق فريق آخر. فإذا كان الأمر كذلك ـ وهو كذلك بمثل ما نراه اليوم في قضايا البيئة والحروب وغيرها ـ فإنه لا مناص من أن يكون تفكيرنا تفكيرا جماعيا والتفكير الجماعي تفكير واقعي لأنه يرعى الواقع الماثل ولا يتجاهله.

تلك هي الأسس العظمى ـ فيما رأيت ـ للمنهاج التفكيري الأرشد. أسس لا يكفي العلم بها ولكن لا بد من الحوار حولها من جهة وتمثلها في الحياة الفكرية من جهة أخرى ومن جهة ثالثة إنتاج الخطط والمشروعات في الحقول كلها على أساس تلك الأسس.

التفكير الواقعي معناه لزوم مصلحة الجماعة وليس مصلحة الفرد فحسب ومعلوم أن مصلحة الجماعة مقدمة قطعا عند التعارض. ألا ترى أن مصلحة الفرد في الحياة تعدم وتقدم قربانا عندما يحين أوان الجهاد أو المقاومة لدفع الشر ودرإ الضر في سبيل حفظ المصلحة الجماعية.

المؤلّف

الهادي بريك ـ من مواليد 6 جوان 1955 بمدنين (تونس).

* إمام مسجد الرحمة بمدنية دنسلاكن الألمانية.

* من مؤسّسي التجمع الأوروبي للأئمة والمرشدين وعضو مجلس الأمناء.

* من مؤسّسي هيئة الدّعاة والعلماء بألمانيا.

* داعية وكاتب في مواقع إلكترونية كثيرة من مثل : «تونس نيوز» و «الحوار.نت» و«الإصلاح» وغيرها.

* عضو مجلس الشورى بحركة النهضة التونسية.

* نائب رئيس جمعية مرحمة الإغاثية.

* متزوج وأب لستة من الولد وسبعة من الحفدة. .

للاتصال بالمؤلّف عبر البريد الالكتروني:

brikhedi@yahoo.de

كتاب الأمة

الكتاب الثالث عشر - أفريل 2016

ISBN: 978 - 9938 - 14 - 604 - 2 ر.د.م.ك: